في سبيل النهضة والاستقلال
قراءة في الأسس المعنوية
من خلال ثلاثة كتب

الطبعة الإلكترونية الأولى
٢٠١٨

د. مجدي سعيد

في سبيل النهضة والاستقلال

قراءة في الأسس المعنوية من خلال ثلاثة كتب

الطبعة الإلكترونية الأولى

٢٠١٨

د. مجدي سعيد

سبق نشر الدراسات الثلاث كمقدمات لثلاث كتب من سلسلة في الفكر النهضوي الإسلامي عن مكتبة الإسكندرية ودار الكتاب المصري واللبناني عامي ٢٠١١ و٢٠١٢

الطبعة الإلكترونية الأولى

٢٠١٨

الفهرس

كتاب المسئلة الشرقية لمصطفى كامل الصادر عام ١٨٩٨ ..... ١٢

كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد لعبد الرحمن الكواكبي ١٢٨

كتاب الإسلام دين الفطرة والحرية للشيخ "عبد العزيز جاويش"١٩٠٥ ..... ٢٢٤

التعريف بالكاتب ٣٣١

تمهيد

شاركت في الفترة ما بين عامي ٢٠٠٩ و٢٠١٣ في أعمال مشروع "في الفكر النهضوي الإسلامي" التابع لمكتبة الإسكندرية، والذي كان يقوم بإدارته الأستاذ الدكتور صلاح الدين الجوهري، وكان يشرف عليه من الناحية العلمية كل من الأستاذ الدكتور محمد عمارة، والأستاذ الدكتور محمد كمال الدين إمام، والأستاذ الدكتور إبراهيم البيومي غانم، أطال الله في أعمارهم ونفع بهم. هذا المشروع كان يهدف لإحياء كتب تراث الفكر الإسلامي النهضوي الصادر في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين/ حوالي التاسع عشر والعشرين الميلاديين، وهي الكتب التي تناولت قضايا كان ولازال لها صلاحية، أو أهمية في العصر الذي نعيشه.

كانت مشاركتي متمثلة في إعداد ثلاث دراسات تقديمية لثلاثة من تلك الكتب، وقد أنجزت اثنتين منها في عام ٢٠٠٩ وهي دراسة كتاب "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لعبد الرحمن الكواكبي، وكتاب "الإسلام دين الفطرة والحرية" لعبد العزيز جاويش، ثم كانت الدراسة الثالثة في عام ٢٠١١ لكتاب "المسئلة الشرقية" لمصطفى كامل، وقد صدرت كل من تلك الدراسات مع الكتب ذاتها عن دار الكتاب المصري واللبناني ومكتبة الإسكندرية في أوقات لاحقة (أعوام ٢٠١٠ و٢٠١٢). وقد رأيت بعد هذه الفترة أن أجمع دراساتي هذه في كتاب واحد، غير مستهدف الربح من ذلك، ولكنني أستهدف شيوع الفائدة، وتحصيل الثواب، بإتاحة تلك الدراسات مجانا على صفحات الإنترنت لمن يبتغي الاستفادة، خاصة مع ارتفاع أسعار الكتب التي صدرت، وربما نفاد طبعاتها. وقد رأيت حينما ضممت الدراسات مع

بعضها البعض في هذا السفر أن أرتبها زمنيا وفقا لتواريخ صدور الكتب الأصلية، بادئا بكتاب مصطفى كامل، فكتاب الكواكبي، ثم منتهيا بكتاب جاويش.

تتناول كل دراسة من تلك الدراسات عرضا لحياة الكاتب في سياق الزمان والمكان والأحوال، ثم عرضا للكتاب. وتأتي صلات تلك الكتب بالنهضة والاستقلال عبر تناولها لعدة قضايا لا ينبغي أن يغفل عنها أي منشغل ومشتغل بهما في عصرنا، على الرغم من مرور أكثر من مائة عام على صدور تلك الكتب. فكتاب مصطفى كامل يشير إلى قضيتين لا غنى عنهما لتحقيق هذين الهدفين:

- القضية الأولى: هي مسألة الوعي بالذات الحضارية في أبعادها التاريخي والجغرافي والبشري (تاريخ أمتنا، وامتدادها الجغرافي، وتنوعاتها البشرية.، وهي قضية

تجيب على سؤال: من نحن؟ حتى وإن أبى البعض أن يعرف نفسه بذاته الحضارية وفقا لتلك الأبعاد، فإن غيره، يعرفه ويتعامل معه وفقا لها، ومن ثم فإن إنكارك لذاتك وتنكرك لها لن يرضي عنك الآخرون، فلا تضيع هذا الوعي إرضاءا لهم.

- القضية الأولى: هي مسألة الوعي بالسياق الدولي الذي تتحرك فيه تلك الذات الحضارية، وهو للأسف سياق صراع وتآمر، يستهدف تفكيك تلك الذات وتفتيتها وتجزئتها، وإضعافها بكل السبل الممكنة، والكتاب وهو يتناول فصلا من ذلك الصراع والتآمر عنوانه "المسألة الشرقية" إنما يرسم لنا جذور مسألتنا اليوم في زمان ثورات الربيع العربي، والثورات المضادة التي أجهضتها، وإن كان يجب علينا أن نمر – استكمالا لتلك الجذور – على قصة صناعة الشرق الأوسط – والتي لم

تكن قد اكتملت في ذلك الحين الذي دون فيه الكتّاب، وإن كانت قد ارتبطت حلقاتها بحلقات المسألة الشرقية.

أما كتّاب عبد الرحمن الكواكبي، فإنه يشير إلى قضية ذات صلة بالقضية الثانية من قضايا كتّاب مصطفى كامل:

- وهي قضية الاستبداد، فالذي لا شك فيه، والذي أكدته كل الأحداث التي حدثت على مختلف أراضي بلدان الشرق الأوسط، خاصة بعد وهم الاستقلال والجلاء والتحرر الوطني الذي عشاناه في النصف الثاني من القرن العشرين، أن الاستبداد هو الفيروس الذي تضيع معه وبسببه مناعة الأمة ضد أعدائها، ولا زالت أمتنا في الفصول الأخيرة التي عاشتها منذ سقوط الكتلة الشرقية، سواء في كل من العراق أو سوريا أو مصر أو

ليبيا أو اليمن، أن آفة حارتنا الاستبداد، ومن ثم وجب تعلم دروس الكواكبي في كتابه تفصيلا.

أما كتاب عبد العزيز جاويش فيتناول:

- قضية تجديد النظر للدين من زاوية كونه دينا للإنسانية وليس لأمتنا فقط، وإنسانيته تأتي من كونه دينا للفطرة، كما تأتي قبل ذلك وبعده من كونه دينا للحرية، عليها تأسس، وإليها يهدف، فلا مسئولية على الإنسان ما لم يكن حرا، ومن ثم فإن الله قد خلق الإنسان ابتداء كائنا حرا عاقلا، ليصبح مؤهلا لحمل الأمانة ..أمانة الاختيار الحر، ومن ثم فإن التشريع إنما يأتي على رأس مقاصده وغاياته إلى يحفظ على الإنسان حريته، ومن ثم يحفظ عليه إنسانيته، والوعي بالدين بهذا الشكل والمعنى هو وعي بالذات الحضارية وتحريرا

لها لإنسانا ومجتمعا وأمة، وهو يقتضي إعمالا وتفعيلا في كافة مناهج التربية والتنشئة حتى لا نطمس على فطرة الإنسان ولا على حريته، وإذا صار إنساننا حرا، يسعى لتحرير الناس صار مشروعا لعولمة إنسانية جديدة أساسها الفطرة ووقودها الحرية. والتي بها ومعها لا يبقى استبداد ولا احتلال ولا استعمار ولا استحمار لأنه حينها تنعدم القابليات لكل أشكال الاسترقاق تلك.

بهذا وعلى هذا يجب أن نقرأ هذه الكتب، أو نعيد قراءتها في ظل واقعنا المعاصر الذي نعيشه، وهو الأمر الذي كان هدفا أسمى وراء هذا المشروع "في الفكر النهضوي الإسلامي"، وهذه المساهمات مني في هذا المشروع، والله أدعو أن أكون قد وفقت في مساهماتي تلك، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم،

وأن يجعلها "علما ينتفع به" بعد مماتي، وأن ينفعني بها يوم القيامة، إنه سميع مجيب الدعوات.

مجدي سعيد

لندن في ٢٩ مايو ٢٠١٦

كتاب

المسئلة الشرقية

لمصطفى كامل

الصادر عام ١٨٩٨

"كوفئت مصر في يوم بأكبر مجد وأشرف فخار وعوقبت في مثل ذلك اليوم بعد ٧٥ عاما باحتلال جر عليها العار والشنار*، كوفئت لأنها صانت الوطن والديار، وعوقبت لأنها سلمت البلاد وانشقت على نفسها ونسيت تاريخها وتناست مطامع أعدائها وامتلأت نفوس دعاة الثورة فيها بالأنانية والأغراض الذاتية والآمال الشخصية فذهب الوطن فريسة وقدمت الأمة على هيكل الدنايا ضحية، وتولى المجد القديم والعز التليد وأقام الذل والهوان، هذه عبرة العبر في التاريخ وموعظة المواعظ، فالتقطوها معاشر المصريين الراغبين في خير البلاد ورفعتها"[١]..هكذا عبر مصطفى كامل عن رؤيته لدور "نسيان التاريخ" فيما تعيشه الأمة من حاضر، ودور "الوعي بالتاريخ"

* يقصد باليوم الأول، يوم جلاء حملة فريزر عن مصر في ١٤ سبتمبر ١٨٠٧، وباليوم الثاني يوم دخول قوات الاحتلال البريطاني إلى القاهرة في ١٤ سبتمبر ١٨٨٢.

[١] مصطفى كامل في: يواقيم رزق مرقص (إشراف وتحقيق)، أوراق مصطفى كامل..الخطب، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٨٤، ص ٢٤٥ (من خطبة ألقاها مصطفى كامل في العيد المئيني لولاية محمد علي، بتاريخ ٢١ مايو سنة ١٩٠٢ م، ١٣ صفر سنة ١٣٢٠ هـ)

في إطار ثلاثية الوعي بالزمان والمكان والأحوال في تحقيق "خير البلاد ورفعتها"، وهو المدخل الذي نقدم من خلاله كتابه "المسئلة الشرقية" كونه كتابا تاريخيا بامتياز، لكنه التاريخ الذي نقرأه وعقولنا معلقة بالحاضر وقلوبنا متعطشة إلى المستقبل.. مستقبل "الاستقلال والنهضة" وهما القضيتان اللتان عاش مصطفى كامل من أجلهما، ومات وهو لا يزال وصحبه يركضون سعيا لتحقيقهما، ولا نزال نحن من خلفهم قاصدين نفس الغاية وإن تغيرت الأحوال.

أولا: مصطفى كامل..النشأة والمشروع الوطني

بين احتلال وثورة عاش مصطفى كامل ومات على أرض مصر وهو فتاها الأول الذي تفتح وعيه (وهو ابن الثامنة) وقد وقع وطنه في أسر الاحتلال البريطاني، ومات ولم يبلغ أربعة وثلاثين عاما، وقد أسهم في غرس بذور الاستقلال

والنهضة في أرض مصر، وهي البذور التي رعاها أصدقاؤه وتلامذته من بعده حتى أثمرت بعد وفاته بأحد عشر عاما ثورة شعبية – ثورة عام ١٩١٩ - هي الأولى منذ أكثر من مائة عام.

ولد مصطفى كامل بحي الصليبة بقسم الخليفة أحد أحياء مدينة القاهرة يوم ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٤ (أول رجب سنة ١٢٩١ هـ)، والده هو علي أفندي محمد أحد المهندسين الضباط الذين تعلموا في المدارس العسكرية التي أنشأها محمد علي، نشأ والده في بلدة تسمى "كتامة الغاب" من قرى مركز طنطا بمديرية الغربية، ودرس بمدرسة طرة[٢] منذ عام ١٨٢٥م لمدة ٥ سنوات، ثم انتقل إلى مدرسة الخانكة[٣] وبقي

[٢] وهي مدرسة الطوبجية (المدفعية) التي تأسست ضمن مجموعة المدارس العسكرية التي أسسها محمد علي في إطار مشروعه لتأسيس جيش حديث، حول المدرسة طالع: عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٨٩، ص ٣٤٣ – ٣٣٥.

[٣] وهي مدرسة أركان الحرب، طالع حولها نفس المصدر، ص ٣٣٥ - ٣٣٦.

بها ٤ سنوات، وفي سنة ١٨٣٤ م نال رتبة الملازم الثاني مهندسا طوبجيا* وعين معيدا في المدرسة، وظل يترقى وينتقل من وظيفة إلى أخرى حتى عين أركان حرب معية الخديوي سعيد، ثم أحيل للاستيداع في عهد إسماعيل، ثم عين مهندسا ملكيا بوزارة الأشغال حتى أحيل إلى المعاش عام ١٨٧٧. أما والدة مصطفى كامل فهي السيدة حفيظة كريمة اليوزباشي محمد أفندي فهمي، من جهة المحجر بالقاهرة بشارع الكومي[٤] بحي السيدة زينب.

حينما بلغ مصطفى كامل سن الخامسة عهد به أبوه إلى فقيه يدعى "أحمد السيد" ليعلمه في المنزل مبادئ القراءة والكتابة، ويحفظه القرآن الكريم، ولما بلغ السادسة أدخله مدرسة "والدة عباس الأول الابتدائية" بالصليبة، حيث مكث بها سنتين،

* مهندس مدفعية

[٤] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ٣١ – ٣٣.

ثم نقله أبوه إلى مدرسة "السيدة زينب الابتدائية"، وفي أثناء دراسته بتلك المدرسة توفي والده عام ١٨٨٦م (٢٣ جمادى الثانية عام ١٣٠٣ هـ)، فتولى رعايته أخوه الأكبر - غير الشقيق - حسين بك (باشا) واصف (وزير الأشغال الأسبق)، وما لبث مصطفى كامل أن نال شهادة الدراسة الابتدائية سنة ١٨٨٧، وفي نفس العام دخل المدرسة التجهيزية (الخديوية) وظل بها حتى نال شهادة الدراسة الثانوية (البكالوريا) صيف سنة ١٨٩١، ودخل مدرسة الحقوق الخديوية في أكتوبر من نفس تلك السنة، ونجح في امتحان السنة الأولى، ثم التحق بمدرسة الحقوق الفرنسية سنة ١٨٩٢، وجمع بين المدرستين، وفي النهاية حصل على شهادة الحقوق من كلية تولوز بفرنسا في نوفمبر سنة ١٨٩٤[٥].

[٥] نفس المصدر، ص ٣٤ - ٣٦.

الأخلاق والوطنية

من ينظر نظرة بانورامية إلى حياة مصطفى كامل، ومن يطالع تفاصيل تلك الحياة لدى من سطروها يستطيع أن يقول أن ذلك الشاب قصير العمر وافر الثمرة، كان يتسم بعدة سمات لعل أهمها قوة الإرادة والهمة العالية والإيمان بالرسالة الوطنية التي حملها، والاتسام بالشخصية الكاريزمية التي تعني قوة التأثير في الآخرين والقدرة على الإيحاء والإلهام ومن ثم التحريك والتفعيل، وتتمثل مفردات تلك الشخصية في: وضوح الرؤية والهدف من حياته ونعني بها أنه كان يدرك من هو وفي أي زمان ومكان وجد، وأي شيء يريد أن يفعل حيال ذلك، ثاني تلك الصفات قوة الإيمان والثقة فيما يدعو إليه[٦]، والاتساق الكامل مع ما يؤمن به، وخلو حياته مما يخدش هذه

[٦] طالع ما كتبه لمدام جوليت آدم في سبتمبر عام ١٨٩٥: إني لا أزال صغيرا، ولكن لي آمالا كبارا، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون إن وطني لا وجود له، وأنا أقول يا سيدتي إنه موجود، وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود في سبيله بجميع قواي، وأفديه بشبابي، وأجعل حياتي وقفا عليه"، نفس المصدر، ص ٤١٧ – ٤١٨.

الثقة، إضافة إلى الجسارة التي تعطي الشخص قوة في حركته وكلماته، والتضحية بالنفس في سبيل ما يدعو إليه، والخلق الرفيع والذكاء الاجتماعي المانع من كسب العداوات، وامتلاك ناصية أدوات التأثير المتاحة: كالخطابة والكتابة. وقد امتلك مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨) كل ذلك، وأسباب ذلك:

أولا: الاستعدادات الشخصية الوهبية التي لخصها الرافعي في: "الصدق والإخلاص وقوة العزيمة والصراحة والشهامة وعلو النفس وقد كانت هذه الأخلاق خير أساس لوطنيته، كما كانت عدته في الجهاد وسبيله إلى الفوز في أداء رسالته القومية"[٧]،

[٧] نفس المصدر، ص ٣٦.

ثانيا تأثير التربية المنزلية[٨]والتي تلقاها بالأساس من أبيه وأمه، ثم من أخيه الأكبر الذي تولى رعايته بعد والده.

ثالثا تأثير المحيط متمثلا في البيئة الوطنية التي كانت تتلمظ وتختمر الخميرة الوطنية وإن كانت في نفوس وعقول الرجال الذين تعرف عليهم وتأثر بهم، ومن هؤلاء:

- علي باشا مبارك (١٨٢٣ - ١٨٩٣) أبو التعليم[٩] ومؤرخ ومهندس العمران[١٠]، والذي كان يتولى نظارة المعارف العمومية في فترة رئاسة مصطفى رياض باشا (١٨٨٨ - ١٨٩١) وهي الفترة التي كان يدرس خلالها مصطفى كامل بالمدرسة الخديوية، ولم يمنع فارق المكانة والسن بينهما أن يعجب مبارك بكامل

---

[٨] حول خصائص شخصية مصطفى كامل وتأثير الاستعدادات والميول وتأثر التربية المنزلية عليه راجع: فتحي رضوان، مصطفى كامل، القاهرة، دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد ٣٩٠، ديسمبر ١٩٧٤، ص ١٥ – ٤٢، وراجع أيضا: أحمد رشاد، مصطفى كامل حياته وكفاحه، القاهرة، مطبعة السعادة، الطبعة الأولى، ١٩٥٨، ص ١- ١٥ وص ٢٦ – ٣٩، وراجع أيضا: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٣١ – ٤٠ وص ٤٣ – ٤٤.

[٩] كما وصفه حسين فوزي النجار في: علي مبارك أبو التعليم، القاهرة، وزارة الثقافة مؤسسة التأليف والنشر، دار الكتاب العربي، سلسلة أعلام العرب، العدد ٧١، ١٩٦٧.

[١٠] كما وصفه محمد عمارة في: علي مبارك مؤرخ ومهندس العمران، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧.

وأن يتعهده بنصحه، ويجالسه في بيته، ويقدمه إلى زواره من العلماء والساسة والصحفيين[١١]،

- لطيف سليم باشا: الذي تعرف كامل عليه من خلال صديقه فؤاد سليم نجله، حيث كان لطيف سليم هو المؤسس الروحي لجمعية الحزب الوطني السرية، والتي ضمت في لقاءاتها عددا من وجوه الأوساط الأدبية والسياسية في ذلك الوقت ومنهم: إسماعيل باشا صبري الشاعر المشهور، وعلي بك فخري وأمين باشا فكري ومحمود بك سليم وإسماعيل بك شيمي، ومحمود بك سالم، والشيخ علي الليثي الشاعر والأديب المشهور وآخرين من أعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية[١٢].
- عبد الله النديم: وكان من أكبر من أثروا في مصطفى كامل عبد الله النديم (١٨٤٣ - ١٨٩٦) خطيب الثورة العرابية العائد من منفاه في مايو ١٨٩٢، والذي

[١١] أحمد رشاد، مصدر سابق، ص ٣٧.
[١٢] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٤٥.

بعث مجيئه الحماسة في نفوس الشبيبة، والذي قابله كامل وتعرف به وقرأ له وتتلمذ عليه وتابع نشاطه، وكان له أبلغ الأثر في خطة وأساليب مصطفى كامل في نضاله الوطني، ومنه تعلم الحكمة المستفادة من أخطاء وأسباب فشل التجربة العرابية، وهي الأسباب التي تجنب كامل الوقوع فيها[١٣]، وكان النديم أيضا هو الفرع الذي وصل ما بين جذع الشجرة الذي مثله السيد جمال الدين الأفغاني بأفكاره ونضاله في مصر، وبين الشاب مصطفى كامل على الرغم من قصر مدة اللقاء بين النديم وكامل أعوام ١٨٩٢ - ١٨٩٣[١٤].

[١٣] وهي ألا يستعمل الجيش مطلقا في حركته، وألا يعادي الخديو حتى لا تنقسم الأمة، وألا ييأس مطلقا من طريق الكفاح الشاق والطويل، وألا يطمئن إلى الإنجليز بل يحذر من خداعهم ودسائسهم: حول تأثير النديم في مصطفى كامل طالع: طالع: عبد المنعم إبراهيم الدسوقي الجميعي، عبد الله النديم ودوره في الحركة السياسية والاجتماعية، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، الطبعة الأولى، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٩٧ – ٢٢٥، وطالع عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٤٨ – ٤٩.

[١٤] حول دور همزة الوصل بين الأفغاني ومصطفى كامل الذي لعبه النديم طالع: تشارلز آدمس، الإسلام والتجديد في مصر، نقله عباس محمود، تقديم مصطفى عبد الرازق وأحمد زكريا الشلق، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الإصدارات الخاصة، العدد ٢٢، ص ٢١٢ – ٢١٤.

- جولييت آدم[١٥]: بدأت صلة مصطفى كامل بها منذ عام ١٨٩٥، حيث أرسل إليها رسالة من تولوز رسالة في سبتمبر من هذا العام وأرفق مع الرسالة كتيبا كان قد ألفه بالفرنسية حول "أخطار الاحتلال الانجليزي لمصر"، وقد أعجبها خطابه وكتابه، فكتبت عن القضية المصرية في مجلتها "لا نوفل ريفيو" (المجلة الحديثة) واقتبست من كتابه، وتوطدت الصلة بلقائه إياها في دار المجلة، واستمرت المراسلات واللقاءات والتي قامت فيها معه بدور الأم التي عرفته بجميع الرجال الذين يعنيهم شأن مصر، وأولته من حب الأم جميع منازل أبنائها، وأوجدت له صلات بعالم الصحافة الفرنسية، وكان هو دائما يعاملها معاملة الابن لأمه الروحية فيستشيرها في شئونه الخاصة والعامة ويوم أدبر

[١٥] جولييت آدم كاتبة كبيرة ذات شهرة عظيمة ونفوذ أدبي، من أعظم شخصيات فرنسا في عالم الوطنية والسياسة والأدب، كان مشاهير الرجال من نواحي الأرض يرحلون إليها ويجتمع بدارها العلماء والأدباء وكبار القوم وملوك الشعر والأدب والسياسة، ولدت عام ١٨٣٦، وتوفيت عام ١٩٣٦، أي أنها عمرت مائة عام، ظلت فيها موضع احترام مواطنيها طوال سني حياتها، وصعت سنة ١٩٢٢ كتابا عن مصر أسمته (انجلترا في مصر) وهو من خير ما ألف في المسألة المصرية، طالع حول علاقتها بمصطفى كامل: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٦٨ – ٧١.

عن فرنسا وأدبرت عنه بعث إليها فيما بعث عام ١٩٠٦ يقول: "إني أكون مجرد الشعور إذا اعتقدت لحظة أن فرنسا تصير صديقة مصر والإسلام، فأستودع الله تلك الأماني والأحلام، إذ ليس في فرنسا غيرك ولم يكن هناك من داع يدعوني أحيانا إلى ذكر فرنسا إلا وفائي البنوي القوي الأكيد نحو شخصك الكريم"[١٦].

الكريم"[١٦].

الملامح الرئيسية لكفاحه الوطني

"تدل الشواهد والبينات على أن نشأة مصطفى كامل الوطنية بدأت وهو بعد في المدرسة الثانوية – وتحديدا عام ١٨٩٠ - ونقصد بالنشأة الوطنية اتجاهه إلى العمل والجهاد في سبيل حرية مصر واستقلالها[١٧]"، وقد ساهمت عوامل التكوين في أن جعلت لدى مصطفى كامل رؤية واضحة لدوره الذي يريد

[١٦] مصطفى كامل ، أوراق مصطفى كامل..المراسلات، القاهرة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة المذكرات التاريخية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٢، ص ٢٤٠.

[١٧] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٣٧.

أن يلعبه في حياة أمته، وهو الدور الذي ذكره لشقيقه علي فهمي كامل (١٨٧٠ - ١٩٢٦) في رسالته إليه عام ١٨٩١ (حال تخرجه من المدرسة الخديوية) حينما ذكر عزمه على دخول مدرسة الحقوق الخديوية "لأنها مدرسة الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم، وأنت تعلم أني أميل إليها كثيرا وعزمت كذلك على تأسيس جمعية باسم جمعية إحياء الوطن"[١٨]، وقد كانت "الكتابة والخطابة ومعرفة حقوق الأفراد والأمم" أدواته الرئيسية في أهم الأدوار التي لعبها في تاريخ الوطن وهو دوره في وضع الأساس المعنوي للاستقلال والنهضة، وقد بدأ تمرس مصطفى كامل على الخطابة وهو بعد طالبا في المدرسة الخديوية، إذ أسس عام ١٨٩٠ جمعية أدبية وطنية أسماها "جمعية الصليبة الأدبية" وانضم إلى جمعية أخرى شبيهة اسمها "جمعية الاعتدال" وكان

[١٨] نفس المصدر، ص ٣٨ - ٣٩.

يخطب خطبة وطنية كل أسبوع مرتجلا وكانت أولى خطبه حول "فضل الجمعيات في العالم"[١٩]، لكن أول خطبه الموثقة كانت في ٨ سبتمبر ١٨٩٤، وآخرها في ٢٧ ديسمبر ١٩٠٧.[٢٠]

أما دوره في الكتابة فقد بدأه بالصحافة مهتديا بهدي أستاذه عبد الله النديم خاصة في مجلته "الأستاذ" حيث بدأ بالكتابة أعوام ١٨٩٢ - ١٨٩٣ في جريدتي الأهرام والمؤيد، كما أسس في ١٨ فبراير ١٨٩٣ مجلة "المدرسة" وهو طالب في مدرسة الحقوق، وهي أول مجلة يصدرها طالب مصري، وكانت تصدر غرة كل شهر عربي، واستمر صدورها ٩ أشهر، كما كتب مصطفى كامل في عدد من الصحف المصرية

[١٩] نفس المصدر، ص ٣٧ – ٣٨.
[٢٠] طالع جميع خطبه الموثقة في: يواقيم رزق مرقص، مصدر سابق.

والأجنبية[٢١]، ثم أصدر صحيفة "اللواء" عام ١٩٠٠، أما الكتب التي ألفها فسوف يأتي الحديث عنها لاحقا، وإذا كان لنا أن نبلور مشروع حياته في عنوان موجز فإننا يمكن أن نقول أنه "الاستقلال والنهضة" والذي انصرف إليه جهده طوال حياته القصيرة وقد أخذ في تحقيقه من خلال مسارين رئيسيين:

- المسار الأول: الدبلوماسية الشعبية
- المسار الثاني: غرس بذور الاستقلال والنهضة

مسار الدبلوماسية الشعبية*

[٢١] طالع ما كتبه مصطفى كامل في الفترة من ١٨٩٣ حتى ١٨٩٩ في: يواقيم رزق مرقص (تحقيق وإشراف)، أوراق مصطفى كامل، المقالات، الكتاب الأول من ١٨٩٣ – ١٨٩٩، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، ١٩٨٦.

* الدبلوماسية الشعبية هي تلك الجهود التي يقوم بها نفر من أبناء الشعب من غير حملة المناصب الدبلوماسية الرسمية للدفاع عن قضيتهم بالتواصل مع الإعلام والمفكرين والسياسيين الأجانب دعوة لقضيتهم ودفاعا عنها".

"رأى مصطفى كامل أن الدعاية للقضية المصرية في الخارج من أمضى الأسلحة في مجاهدة الاحتلال، لأن المسألة المصرية كانت مجهولة للرأي العام الأوروبي، بل كانت الفكرة الذائعة عن المصريين أنهم راضون عن الاحتلال، وأنهم أمة قانعة بالحكم الانجليزي ليست لها آمال ولا حقوق تطالب بها، فنشط إلى تعريف الرأي العام الأوربي بحق مصر في الاستقلال، وبأن الأمة المصرية تكره الاحتلال، ولا ترضى به بحال، وأن بقاءه لا يضر بمصر فحسب، بل يضر بالمصالح الأوروبية عامة، وقد كان لدعايته أثر كبير في إحراج مركز الاحتلال، وإبراز عدم مشروعيته، كما كان لها صداها في مصر ذاتها، إذ كانت وسيلة لنشر الحركة الوطنية، لذلك كانت دعايته في أوروبا من أهم صفحات جهاده الوطني وكانت في الوقت نفسه من دلائل عبقريته، لأن اتصال شاب في سنه بأقطاب السياسة في أوروبا من كتاب وسياسيين وأدباء

وصحفيين، واستطاعته الدفاع عن القضية المصرية على صفحات الجرائد الأوروبية، كل ذلك ليس من المهام السهلة التي يضطلع بها كل من يريد، وإنما هي عمل شاق يتطلب استعدادا وكفايات متعددة وجهودا هائلة، إذا اجتمعت في شخص واحد كان ذلك آية عبقريته، ولا غرو فهو أول مصري أسمع العالم صوت مصر، وعرف الرأي العام الأوروبي من مقالاته وأحاديثه وخطبه أن على ضفاف النيل أمة تشكو الاحتلال وتطلب الحرية والاستقلال"[٢٢].

أدوات الدبلوماسية الشعبية لدى مصطفى كامل

كان مصطفى كامل إذا أول دبلوماسي شعبي في تاريخ مصر الحديث، وقد استخدم في مهمته كل الأدوات التي

[٢٢] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٥٩ – ٦٠.

كانت متاحة في عصره، واستهدف كل من يستطيع أن يصل إليه من جمهور مستهدف لها، وبيان ذلك:

- التواصل مع الصحافة الأجنبية: من خلال الأحاديث الصحفية والرسائل والمقالات التي أرسلها وكتبها للصحف الأجنبية
- السفر والدعاية للقضية في الخارج: حيث ظل يقوم تقريبا بما يعادل رحلة سنوية خارجية للدعاية للقضية المصرية
- الخطب الموجهة للأجانب في الخارج والتواصل مع الجاليات الأجنبية في مصر.
- الخطب الموجهة للطلبة المصريين والعرب والمسلمين المبتعثين في الخارج
- تأليفه الكتب باللغات الأجنبية للدفاع عن القضية الوطنية ومن ذلك رسالة: أخطار الاحتلال البريطاني

بالفرنسية عام ١٨٩٥ وكتاب "المصريون والانجليز" بالفرنسية في باريس عام ١٩٠٥

- مراسلاته مع الرموز الفكرية والسياسية الغربية وأشهرها مراسلاته مع مدام جولييت آدم الأديبة والكاتبة الصحفية الفرنسية بداية من عام ١٨٩٥ وغيرها.
- استخدامه أدوات التواصل غير المباشر: كتوزيع الكتب والصورة التعبيرية حول القضية المصرية أمام البرلمان الفرنسي عام ١٨٩٥
- استقباله للوفود الأجنبية والتواصل معها مثل استقباله للنائب والمستشرق الفرنسي دلونكل عام ١٨٩٥ ولجولييت آدم عام ١٩٠٤
- استثماره للحوارات الشفهية غير المرتبة مع الشخصيات العامة الغربية مثل الكولونيل بارنج شقيق اللورد كرومر المعتمد البريطاني على الباخرة عام ١٨٩٥،

ومع مستر جولدنيك المواطن الأمريكي عام ١٨٩٧،
ومع الدكتور رزنر النائب النمسوي عام ١٨٩٧

- استثماره لأدوات التواصل الاجتماعي من خلال الولائم والحفلات.
- إصداره لصحيفتين يوميتين بلغات أجنبية: واحدة فرنسية (ليتندار اجبسيان) والأخرى انجليزية (ذي اجبشيان ستاندرد) للدفاع عن حقوق مصر وإطلاع الرأي العام الأوروبي

البذور المعنوية للاستقلال والنهضة

حرص مصطفى كامل كأي زعيم مدرك لمتغيرات الزمان والمكان والأحوال أن يهتم بالشئون المعنوية لأبناء الوطن، ومن ثم ركز في خطابه شفهيا أو مكتوبا على إرسال عدد من

الرسائل التي تخاطب الوجدان والعقل، أما الوجدان فقد حرص فيه على أمرين اثنين:

- بث روح الأمل ومحاربة اليأس: فالأمل هو أهم حوافز الإنسان للقيام بأي عمل من الأعمال، لذلك نرى أن أول خطاب عام – موثق – ألقاه مصطفى كامل في مصر في ٣ مارس عام ١٨٩٦ تظهر فيه تلك الرسالة واضحة:

" إن في مصر فئة من الناس نسيت أن الأمل داعي العمل، فلبست ثياب اليأس وقضت بظنونها على مستقبل الوطن العزيز وجعلت مهمتها تثبيط الهمم وإقعاد العزائم فلا تنادي في المحافل والأندية إلا بأنه ليس لمصر حظ في المستقبل من الحرية والسعادة الاجتماعية وأن شعبها قد مات من زمن طويل وليس لمفكر عاقل أن يؤمل لها مستقبلا جديدا، وترى رجال هذه الفئة اليائسة يرمون كل رجل يقوم بالدفاع عن

حقوق البلاد المقدسة بعدم الخبرة وقصر النظر (..) وعندي أن الرجال اليائسين وإن كانوا أقل من القليل يضرون بلادهم أعظم ضرر بما يقولونه ويكررونه إذ قتل العواطف الشريفة وإخماد نار الغيرة الوطنية هما ولا محالة أكبر جناية تجنى على الوطن وأهله"[٢٣].

- إيقاظ الغيرة الوطنية لتصب في مصب الحرية والمدنية: وهو حين يحيي الغيرة الوطنية ويشعل وقودها كأساس ثان للروح المعنوية فإنه يفعل ذلك مقرونا بتحديد مرمى نيران تلك الغيرة وهدفها الأسمى، حيث يقول في نفس الخطبة:

"إننا أمة حية متمدنة نريد أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، ولا نرضى أن نبقى قصرا تحت حكم وصي ننظر تقدم الأمم الأخرى نظرة الكئيب التعيس دون أن نستطيع محاكاتها ومجاراتها"[٢٤]،

[٢٣] مصطفى كامل في: يواقيم رزق مرقص، أوراق مصطفى كامل، الخطب، مصدر سابق، ص ٩٨.
[٢٤] نفس المصدر، ص ١٠٢.

و"لا ريب عندي في أنكم كلكم تودون مثلي أن تكون مصر بلادا حرة منتشرة في سائر أرجائها من الإسكندرية إلى منابع النيل أنوار العلوم والمعارف، وتصبح كما كانت مهدا للفضائل والآداب مشرقا لشمس المدنية في كل بلاد الشرق، مرسحا للتنافس في الصناعة والتجارة"[٢٥].

أما العقل فقد أرسل فيه عدة رسائل تتناول كافة القضايا التي شغلت أذهان الناس في زمانه، ومن ذلك مثلا أن التعجل في الخطوات واستعجال النتائج، الناتج عن شدة الوطنية قد يحدث انتكاسة في المسيرة، ومن ذلك ضرورة الحفاظ على السلام الاجتماعي وقاية من الوقوع في الفتن، ومنها وحدة الكلمة واجتماع القلوب كونها من أسس تأمين الجبهة الداخلية وتحقيق السلام الاجتماعي وهي البيئة التي يحتاجها أي مشروع للاستقلال والنهضة وهما الهدف الواضح من مجمل

[٢٥] نفس المصدر، ص ١٠٤.

نضاله الوطني، والاعتماد في تحقيقهما على الذات وليس على تعضيد دولة من الدول (بالرغم من سعيه الدؤوب في مجال الدبلوماسية الشعبية)، كما حرص على تأكيد تلازم الدين والوطنية: إلا أنه حرص أيضا على نفي ما علق أو يعلق بذلك التلازم من شوائب قد تعكره[٢٦].

البذور المادية للاستقلال والنهضة

ارتكز كفاح مصطفى كامل في هذا المسار على:

- نشر التعليم بجميع مستوياته ومجالاته بين كافة فئات الشعب: حيث أن "الاستقلال نور من أنوار العرفان وإنه كما أن الأفراد لا يعتدي اللصوص على أمتعتهم إلا في ظلام الليل، كذلك الأمم لا تفقد حياتها المعنوية

[٢٦] راجع في ذلك مجمل ما ورد من خطبه في نفس المصدر.

ووجودها وأقدس حقوقها الشرعية إلا إذا كانت عائشة في ظلام الجهالة الحالك[٢٧]".

ومن ثم كان لابد أن يكون التعليم هو أحد المبادئ العشرة لخطة الحزب الوطني التي أعلنها مصطفى كامل في خطاب إعلان تأسيس الحزب يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٧، والذي جاء فيه:

"العمل لنشر التعليم في أنحاء الديار على أساس وطني صحيح بحيث ينال الفقراء النصيب الأوفر منه، ومحاربة الخزعبلات والترهات ونشر المبادئ الدينية السليمة الداعية للرقي وحث الأغنياء والقادرين على بذل كل المساعدات لنشر التعليم بتأسيس الكليات في البلاد وإرسال الإرساليات لأوروبا وفتح المدارس الليلية للصناع والعمال"[٢٨].

---

[٢٧] مصطفى كامل في: يواقيم رزق مرقص، الخطب، مصدر سابق، ص ١٦٩.

[٢٨] نفس المصدر، ص ٣٢٩ – ٣٣٠.

وهو ما أثمر عن افتتاحه لعدد من المدارس الأهلية التي أوقف عليها أنصاره وتلامذته أوقافا للإنفاق عليها[٢٩]، كما أنه كان من أوائل الدعاة لتأسيس "الجامعة الأهلية"[٣٠]، وإرسال البعثات من طلاب مصر ليتعلموا في الخارج.

- بناء جيل وطني فريد: كانت فيه الطبقة المتعلمة المثقفة (طلابا وخريجين) هي رأس الحربة، حيث حرص على التواصل مع الطلاب ومع عموم المثقفين في مصر وخارجها والخطابة فيهم والكتابة إليهم وشحذ همتهم

---

[٢٩] كانت أولى تلك المدارس تلك التي أسسها حسين بك القرشوللي أحد سراة الأعيان بالقاهرة عام ١٨٩٩ في حي الحلمية (طالع حولها: عبد الرحمن الرافعي، مصدر سابق، ص ١٤٨ – ١٤٩، وطالع نص خطبته في حفل افتتاحها في: يواقيم رزق مرقص، الخطب، مصدر سابق، ص ١٩٢ – ١٩٥، أما ثاني تلك المدارس فكانت تلك التي افتتحها محمد أفندي سعيد التومي وأحمد أفندي صادق في حي باب الشعرية عام ١٨٩٩ أيضا، وطلبا من مصطفى كامل أن يقبل تسميتها باسمه (حول المدرسة طالع عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ١٤٩ – ١٥٠، وطالع خطبته في افتتاحها في: يواقيم رزق مرقص، الخطب، مصدر سابق، ص ٢٢٣ – ٢٢٨، كما أسس مصطفى بك الشوربجي مدرسة أخى في قريته بريم بالبحيرة عام ١٩٠١ (طالع حولها: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ١٦١ - ١٦٢، وطالع خطبته فيها في: يواقيم رزق مرقص، الخطب، مصدر سابق، ص ٢٣١ – ٢٣٧، وطالع في نفس المصدر خطبته في حفل توزيع الجوائز على المتقدمين من تلاميذ مدرسة مصطفى كامل عام ١٩٠٤، ص ٢٥٥ – ٢٦١.

[٣٠] حول دوره في الدعوة للجامعة الأهلية طالع: فتحي رضوان، مصطفى كامل، القاهرة، دار المعارف، سلسلة اقرأ العدد ٣٩٠، ديسمبر ١٩٧٤، ص ٢٠١ – ٢٠٣، وإن كان عبد المنعم إبراهيم الجميعي في كتابه: الجامعة المصرية القديمة ١٩٠٨ – ١٩٢٥ دراسة في الوثائق، القاهرة المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٧ يرى أن أول من دعا إلى الجامعة هو جرجي زيدان، ثم تلاه محمد عمر، وأن مصطفى كامل هو أول شخصية مصرية بارزة تتبنى هذه الدعوة، طالع ذلك في المصدر المذكور، ص ٧ – ٩، وعموما فإن الدعوة "اجتذبت عددا من كبار الملاك كان على رأسهم مصطفى بك كامل الغمراوي من أعيان بني سويف ومن مشاهير مؤسسي الأوقاف هو وعائلته، الذي اقترح إنشاء الجامعة رسميا في أكتوبر سنة ١٩٠٦ وافتتح الاكتتاب لها بمبلغ ٥٠٠ جنيه" طالع في هذا إبراهيم البيومي غانم، الأوقاف والسياسة في مصر، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ٢٦٣ – ٢٦٤.

الوطنية ليكونوا طليعة مشروع الاستقلال والنهضة، وكانت أهم مؤسسة ولدت من رحم حركته تلك هي "نادي المدارس العليا"[٣١] وهي المؤسسة التي جاءت ثمرة لتنامي الوعي الوطني بين طبقة الإنتلجنسيا المصرية والتي كان لها الدور الأبرز في مشروع النهضة لدى الحزب الوطني كونها كانت أهم منتديات التداول في الشأن العام بجميع جوانبه، والتي خرجت من عباءتها معظم المشاريع النهضوية للحزب الوطني لاحقا، كحركة التعاونيات، ومشروع مدارس الشعب الليلية لتعليم وتوعية الطبقات العاملة ودمجها في تيار الوطنية، ومن مدارس الشعب الليلية خرجت "نقابة عمال الصنائع اليدوية"[٣٢] التي كانت باتفاق المؤرخين أول نقابة عامة لعمال المصانع والحرفيين على اختلاف طوائفهم، كما

[٣١] حول نادي المدارس العليا طالع: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ١٩٦ – ١٩٩، وحول صلة النادي بحركة التعاونيات طالع: عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص ٣٢٢ – ٣٣١.

[٣٢] حول مدارس الشعب الليلية ونقابة عمال الصنائع اليدوية طالع: عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، مصدر سابق، ص ١٠٧ – ١٠٨.

كان النادي هو الواجهة العلنية لحركة الطلاب والخريجين، بينما حرص كامل على أن تكون لتلك الحركة تكويناتها السرية خاصة في أوساط الطلاب، والتي كان لها الدور الأبرز في إطلاق شرارة ثورة ١٩١٩.[٣٣]

ثانيا: المسألة الشرقية في زمن مصطفى كامل

"المسألة الشرقية" هو مصطلح يعبر عن تاريخ طويل يتناول "مسئلة النزاع القائم بين دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها"[٣٤]، المصطلح إذا يعبر عن قضية وعن هوية جيو-ثقافية وبنية جيو-سياسية في نظر مفكري

[٣٣] حول الجمعيات السرية للحزب الوطني وعلاقة مصطفى كامل بالنضال السري للمصريين ضد الاحتلال البريطاني طالع: عصام ضياء الدين السيد علي الصغير، الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ – ١٩١٥، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧،خاصة الفصل الأول والثاني. أما حول وجود التنظيمات السرية للطلاب الذين فجروا الثورة من قبل قيامهم بثورتهم طالع: عاصم محروس عبد المطلب، دور الطلبة في ثورة ١٩١٩، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر، سلسلة مصر النهضة، ١٩٩٠، ص ٢٢ – ٣٧.

[٣٤] مصطفى كامل، المسئلة الشرقية، الطبعة الأولى، مطبعة الآداب بمصر، ١٨٩٨، ص ٥.

وساسة الغرب الأوروبي تحديدا، وهو المصطلح الذي تغير في مرحلة لاحقة ليصبح "الشرق الأوسط"[٣٥] الذي اعتبر البعض أنه يعبر عن "وحدة جيوسياسية تشكلت حول الدين الإسلامي"، أو أنه يعبر عن "المناطق التي كانت واقعة تحت سيادة الدولة العثمانية" وأن الميزتين الأساسيتين للمصطلح أنه يعبر عن "الوحدة التي تشكلت حول الدين الإسلامي والميراث التاريخي الذي خلفه العثمانيون"[٣٦].

---

[٣٥] ظهر مصطلح الشرق الأوسط للمرة الأولى في مقال بعنوان: "الخليج الفارسي والعلاقات الدولية" نشر بدورية ذاناشونال ريفيو البريطانية في سبتمبر عام ١٩٠٢، كان كاتب المقال هو الكابتن ألفرد تاير ميهان من الأسطول الأمريكي، ولفت المقال نظر السير فالنتاين تشيرول محرر القسم الأجنبي بالتايمز فنشر عشرين مقالا نوعيا بالتايمز بعنوان المسألة الشرق أوسطية وفيما بعد جمعها في كتاب صدر عام ١٩٠٣ بعنوان :مسألة الشرق الأوسط أو بعض المشاكل السياسية في الدفاع عن الهند، وهكذا اكتسب ما كان عادة يسمى بالشرق الأدنى أو آسيا التركية أو الشرق اسما جديدا، كان ما يسمى بلغة أيامنا الحالية "مشروع الشرق الأوسط" لدى تداوله للمرة الأولى آنذاك مبادرة أنجلو/أمريكية مركزة على الخليج الفارسي، قصد بها إبعاد روسيا، والحيلولة دون تنامي ألمانيا من خلال استزراع شبكة من القواعد العسكرية البريطانية بالتحالف الوثيق مع الحكام المحليين التقليديين، أضف "النفط" إلى هذه المعادلة، وستجد أن مصطلح "الشرق الأوسط" كما نحت آنذاك واستعمل قد استبق قرنا من الزمان ومهد لأحداثه، طالع: كارل إي مايرو وشارين بليز بريزاك، صناع الملوك..اختراع الشرق الأوسط الحديث، ترجمة فاطمة نصر، القاهرة، دار صطور، سلسلة إصدارات سطور الجديدة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص ٣٩ – ٤١.

[٣٦] راجع: أحمد داود أوغلو، العمق الاستراتيجي..موقع تركيا في الساحة الدولية، ترجمة محمد جابر ثلجي وطارق عبد الجليل، الدوحة، مركز الجزيرة للدراسات، وبيروت، الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ/ ٢٠١٠م، ص ١٥٨، أما الدكتور توفيق الشاوي فيرى أنه منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تحول شعار "الشرق الأوسط" إلى وسيلة استعمارية هدفها مقاومة تيار التحرر الوطني في مصر وغيرها من الأقطار العربية والإسلامية، كما كان وسيلة استعمارية أيضا لتحويل أنظار الشعوب الإسلامية عن الهدف الاستراتيجي الذي أجمعت عليه منذ سقوط الخلافة العثمانية والذي يتمثل في إعادة بناء وحدة المنطقة في صورة عصرية، طالع: توفيق محمد الشاوي، الشرق الأوسط والأمة الوسط، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ت – ث.

أما التاريخ فهو تاريخ طويل مليء بالحروب والمعاهدات والفتن والمؤامرات اتخذت فيه كل ذريعة ممكنة لإضعاف الدولة العثمانية والتهام أجزائها المترامية خاصة حينما بدأ الوهن يدب في جسدها، وإذا كانت عوامل الخلل في الدولة العثمانية قد ظهرت لأول مرة في مؤسساتها الداخلية، مما انعكست آثاره على إنجازاتها الخارجية[٣٧]، الأمر الذي حدا بالقيصر الروسي نيقولا الأول لوصف الدولة العثمانية عام ١٨٤٤ بأنها "رجل أوروبا المريض"[٣٨]، وهي الحالة التي كانت الدول الأوروبية الكبرى هي المسئولة عن جانب كبير منها، حيث اتبعت روسيا والنمسا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا سياسة عدوانية تجاه الدولة، استهدفت تمزيقها وتوزيع ممتلكاتها أسلابا فيما بينها، وواجهت الدولة ثورات عنيفة قامت بها الشعوب المسيحية

[٣٧] سيد محمد السيد محمود، انهيار الدولة العثمانية (الأسباب)، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٣، ص ٥٦

[٣٨] عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٤، ص ١٢٣.

الخاضعة لها التي ادعت الدول الأوروبية المختلفة حمايتهم وغيرهم من الأقليات في الدولة[٣٩]، ومن ثم دخلت الدولة في دوامة من ضعف داخلي ينعكس في ضعف (سياسي وعسكري) خارجي، فمعاهدات تعكس موازين القوى، فتدخل أجنبي، فقلاقل داخلية، فمزيد من الضعف، وهكذا، وإذا كنا لسنا هنا بصدد سرد فصول التاريخ الطويل للصراع العثماني الأوروبي، لكن حسبنا هنا الإشارة إلى أبرز فصول ذلك الصراع التي اكتنفت حياة مصطفى كامل، خاصة في الفترة التي تولى فيها السلطان عبد الحميد الثاني الولاية من ١٨٧٦ إلى عام ١٩٠٩، حيث أنها تكاد تتوازى مع حياة مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨).

تولى عبد الحميد العرش في ظروف متناهية في ظلامها وقسوتها، الأمر الذي حدا بأحد المؤرخين البريطانيين إلى القول "بأنه

[٣٩] نفس المصدر، ص ١٢٥ - ١٢٦.

ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار التي تعرض لها عبد الحميد الثاني من يمين ويسار"[٤٠]، وكان أبرز ما حدث في ولايته من أطوار المسألة الشرقية ما يلي:

- من ثورات البلقان إلى مؤتمر برلين: منذ اليوم الأول لارتقائه العرش ووجه السلطان عبد الحميد بثورات في دول البلقان بتحريض وإمدادات من روسيا وضغط من بريطانيا، وتطورت الأمور حتى وصلت إلى أن فرضت روسيا على الدولة العثمانية توقيع معاهدة سان ستفانو (٣ مارس ١٨٧٨)، والتي كانت تؤسس لإمبراطورية صقلبية (سلافية)، حيث منحت الاستقلال لصربيا والجبل الأسود ورومانيا وأسست لبلغاريا الكبرى ووضعت البوسنة والهرسك تحت مراقبة روسيا والنمسا، ومنحت لروسيا امتيازات على

[٤٠] نفس المصدر، ص ٣٠٧.

المضايق، ومدت أراضي روسيا إلى قرب شمالي العراق والشام والأناضول، وقد أثارت المعاهدة اعتراض الدول الأوروبية التي رأت أن روسيا وأتباعها من الدول قد استأثروا بالنصيب الأكبر، ومن ثم تداعت تلك الدول إلى عقد مؤتمر في برلين في يونيو ١٨٧٨ وقعت خلاله معاهدة برلين والتي أعطت للنمسا والمجر حق احتلال البوسنة والهرسك، وقسمت بلغاريا الكبرى إلى جزئين وأقرت باقي بنود معاهدة سان ستفانو[٤١].

- من احتلال قبرص إلى احتلال تونس: رأت بريطانيا مدى تدهور الدولة العثمانية[٤٢]، وهو التدهور الذي كشفت عنه الحرب العثمانية الروسية (١٨٧٧ - ١٨٧٨) ومن ثم رأت أن تخرج من تلك الأزمة

[٤١] طالع تفاصيل ذلك في نفس المصدر، ص ٣٠٧ - ٣٣٧، وطالع تفاصيل أكثر في: تشارلز بيلافيتش وبربارا بيلافيتش، تفكيك أوروبا العثمانية (إنشاء دول البلقان القومية) ١٨٠٤ - ١٩٢٠، ترجمة عاصم الدسوقي، القاهرة، دار العالم الثالث، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧.

[٤٢] يرى المؤرخون أن ارتداد الجيش العثماني عن أسوار فينا عام ١٦٨٣ ثم ما تلاه من توقيعها لمعاهدة كارلوفتز في يناير ١٦٩٩، والتي تنازلت بموجبها للتحالف الذي ضم النمسا وروسيا وبولندا والبندقية عن بعض من أملاكها، هذا الارتداد وتلك المعاهدة يؤرخان معا لبداية انحلال الدولة العثمانية، طالع عبد العزيز الشناوي، مصدر سابق، ص ٣٠١ - ٣٠٢.

بنصيب من أملاك الدولة، ومن ثم ضغطت على السلطان عبد الحميد لتوقيع اتفاقية في يونيو ١٨٧٨ تجيز لها احتلال قبرص "مؤقتا" بحجة الدفاع عن أراضي السلطان في آسيا[٤٣]، وهي الاتفاقية التي جعلت تونس موضوع الساعة في فرنسا بحجة المحافظة على التوازن الدولي في حوض البحر المتوسط، ومن ثم انتهزت فرنسا تحركات قبائل الكرميين على الحدود التونسية الجزائرية لتتحرك بقواتها لاحتلال تونس وتجبر الباي محمد الصادق باي تونس على توقيع معاهدة في مايو ١٨٨١ تجعل من الاحتلال الفرنسي لتونس أمرا واقعا[٤٤].

- احتلال مصر: وهو الاحتلال الذي جاء كثمرة لمؤتمر برلين وكفصل من فصول "المسألة الشرقية"، وذلك بغض النظر عن الحجج التي اتخذتها بريطانيا كي تفعل

[٤٣] نفس المصدر، ص ٣٣٨ – ٣٤١.
[٤٤] نفس المصدر، ص ٣٤١ – ٣٤٦.

ذلك، بحيث أنه إذا لم تكن هناك أسباب ومبررات لفعلها ذهبت تختلقها اختلاقا على نحو ما يرد مفصلا في هذا الكتاب الذي نقدم له، وقد حدثت بعض الحوادث الناتجة عن هذا الاحتلال والتي تمثل فصولا فرعية للمسألة الشرقية، منها ما عرف بحادثة فاشودة عام ١٨٩٨[٤٥]، واتفاقية السودان عام ١٨٩٩[٤٦]، والاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا عام ١٩٠٤[٤٧]، وحادثة العقبة عام ١٩٠٦[٤٨]، وهي الحوادث التي جاءت في فترة نضال مصطفى كامل الوطني.

---

[٤٥] وخلاصته أن فرنسا أرادت احتلال منطقة في أعالي النيل بالسودان لتصد التوسع الانجليزي في باطن أفريقيا ولتقوم بفتح ملف المسألة المصرية برمتها، لكن الحملة انتهت بتراجع فرنسا وإخلائها منطقة فاشودة، حول التفاصيل راجع: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ١٢٩ – ١٣٢.

[٤٦] وخلاصتها أن إنجلترا أرغمت مصر على توقيع اتفاقية تقضي باشتراكها في إدارة شئون الحكم في السودان ورفع العلم البريطاني هناك بجوار العلم المصري، مخالفة بذلك معاهدة لندن الموقعة سنة ١٨٤٠ والتي أعطت الحكم على مصر والسودان لأسرة محمد علي، حول تفاصل الموضوع طالع: نفس المصدر، ص ١٤٠ – ١٤٨، وحول تاريخ المطامع والمؤامرات البريطانية على السودان المصري طالع: داود بركات، السودان المصري ومطامع السياسة البريطانية، القاهرة، المطبعة السلفية، ١٣٤٢/ ١٩٢٤.

[٤٧] والذي أعلنت فيه انجلترا بألا تغير الحالة السياسية في مصر وتعهدت فرنسا بألا تعرقل عمل انجلترا في مصر مقابل التزام الحكومة البريطانية بألا تعرقل عمل فرنسا في مراكش، حول ظروف الاتفاق وأثره على مصر وعلى نفسية مصطفى كامل طالع: عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ١٧٨ – ١٨٠.

[٤٨] وتسمى أيضا بحادثة طابا والذي نتج عن اعتزام الدولة العثمانية مد فرع من سكة حديد الحجاز بين معان والعقبة والنزاع حول نقطة الحدود بين أملاك الدولة العثمانية وأملاك مصر المحتلة التي أرادت بريطانيا أن تمدها إلى العقبة، وقيام العثمانيين باحتلال موقع طابا، وكانت الدولة العثمانية ترمي إلى إعادة فتح ملف المسألة المصرية مرة أخرى، وتعاطفت الأمة المصرية ومصطفى كامل مع موقف الدولة العثمانية وانتهت الحادثة بتسوية مسألة الحدود وانسحاب الجنود العثمانيين من طابا، حول الحادثة طالع: نفس المصدر، ص ٢٠٣ – ٢٠٤.

- أزمات يونانية: ظل اليونانيون بدعم روسي بريطاني فرنسي يضغطون على الدولة العثمانية منذ مؤتمر برلين حتى عام ١٨٩٧ من أجل اقتطاع ولايات من الدولة، وضمها إلى اليونان تارة بإثارة الاضطرابات الداخلية في تلك الولايات وتارة أخرى بالتلويح بالحرب حتى عجزت القوات اليونانية البرية في مواجهتها العسكرية ضد الجيوش العثمانية في الحرب التي أشعلتها ضد الدولة العثمانية سنة ١٨٩٧ وتكبدت فيها القوات اليونانية البرية هزائم أليمة ومتلاحقة، وهو ما كان دافع مصطفى كامل لتأليف كتابه "المسئلة الشرقية" كما سنرى[٤٩].

وإزاء كل تلك الحروب والمعاهدات والاضطرابات والأزمات عمل السلطان عبد الحميد على إدارة شئون الدولة العثمانية في المجتمع الدولي على أساسين:

[٤٩] حول تفاصيل تلك الأزمات اليونانية طالع: عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، الجزء الرابع، ص ١٨٣ – ١٩٢.

- استثمار الخلافات الداخلية الأوروبية لتوفير ساحة مناورة تكتيكية للدولة وذلك عن طريق موازنة القوى بين عدو قريب مؤثر وعدو بعيد كامن.
- استثمار الامتداد الثقافي للدولة العثمانية متمثلا في المسلمين الذين يعيشون تحت الاستعمار وخارج سيطرة الدولة العثمانية من خلال تمتين العلاقة مع هذا الامتداد من خلال حركة "الجامعة الإسلامية"، حيث كان السلطان عبد الحميد يرى أن استمرار وجود الدولة العثمانية مرتبط باستغلال هذه العلاقة بشكل مؤثر في النظام الدولي[٥٠] وقد عمل على دعم تلك السياسة من خلال مشاريعه العملية على أرض الواقع ومن أهمها مشروع سكة حديد الحجاز[٥١].

---

[٥٠] أحمد داود أوغلو، مصدر سابق، ص ٨٩ – ٩٠.

[٥١] وهو المشروع الذي صدر الأمر بالبدء في تنفيذه في مايو من عام ١٩٠٠ وامتد من دمشق إلى المدينة المنورة ووصلت أول قطاراته إلى المدينة في أغسطس من عام ١٩٠٨، حول المشروع طالع كلا من: عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية، مصدر سابق، الجزء الثالث، ص ١٥٥ – ١٦٧، وطالع تفاصيل المشروع في: متين هولاكو، الخط الحديدي الحجازي، ترجمة محمد صواش، اسطنبول، دار النيل، الطبعة الأولى، ٢٠١١.

حركة الجامعة الإسلامية

حركة الجامعة الإسلامية Pan-islamism هي إذا حركة رد فعل تهدف إلى تخليص العالم الإسلامي من السيطرة الأوروبية المالية والسياسية والعسكرية، كان من أوائل من نادى بها كل من نامق كمال[٥٢] أحد أعلام الفكر العثماني في القرن التاسع عشر، والداعية المصلح المجدد السيد جمال الدين الأفغاني (١٨٣٨ - ١٨٩٧)، وكانت فكرة الأفغاني تقوم على دعامتين: الحج إلى بيت الله الحرام، والخلافة وضرورة التمسك بها كنظام ديني وسياسي[٥٣]، ومن ثم فإن حركة الجامعة الإسلامية جاءت كرد فعل على أمرين:

---

[٥٢] والذي حذر من الخطر الغربي الثقافي والاستعماري على العالم الإسلامي وطالب بأن تأخذ الدولة العثمانية زام المبادرة إلى حماية العالم الإسلامي، وكانت دعوته تتجه إلى الوسائل الثقافية أكثر من الأساليب السياسية، ولكن دعوته كانت تجوب بالأساس في الوسط التركي بينما جابت دعوة الأفغاني في أوساط العالم الإسلامي كله، حول نامق كمال ودعوته واختلافها عن دعوة الأفغاني طالع: عبد العزيز الشناوي، مصدر سابق، الجزء الثالث، ص ٤٤ - ٤٨ وص ٥٥ - ٥٦.

[٥٣] عبد العزيز محمد الشناوي، نفس المصدر، ص ٥٣.

- حالة الضعف والتخلف التي سادت بين المسلمين سواء أكانوا تحت الحكم العثماني أم خارجه، وهي الحالة التي ذهب المفكرون والعلماء كل مذهب في تفسيرها ورؤى الخروج منها.
- مواجهة مشاريع القوى الأوروبية الكبرى تجاه بلدان المسلمين والتي كان التعبير الجامع عنها هو فيما سمي بـ "المسألة الشرقية"، غير أنه كانت هناك تعبيرات منفصلة لكل قوة من تلك القوى عن مصالحها الخاصة، فقد ظهرت الدعوة للجامعة الإسلامية في نفس وقت ظهور حركة الجامعة الصقلبية Panslavism وهي حركة روسية قومية كان من أهدافها جمع صقالبة* البلقان الأرثوذكس وتخليصهم من السيطرة العثمانية، وكان هدفها النهائي القضاء على الوجود العثماني في أوروبا[٥٤].

* الصقالبة بمصطلح ذلك الزمان هم السلاف وهو العرق الذي يجتمع تحته الروس وكثير من البلقانيين.

[٥٤] نفس المصدر، الجزء الثاني، ص ٣٠٣ – ٣٠٤، وحول تفاصيل المشاريع الاستعمارية للقوى الأوروبية الأخرى، طالع نفس المصدر، الفصل التاسع ص ٢٧٩ – ٣٠٦.

وقد لاقت حركة الجامعة الإسلامية نجاحا جزئيا تمثل في خشية حكومات الدول الأوروبية الكبرى من هذه الحركة وتظرتها إليها نظرة معارضة جدية وهجومها العنيف الذي شنته عليها في مجلس العموم البريطاني وفي الصحافة وفي شتى الهيئات في بريطانيا وفرنسا، كما تمثل أيضا في توقف الزحف الاستعماري الأوروبي العسكري على الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية بعد الاحتلال البريطاني لمصر سنة ١٨٨٢ وحتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد، حيث كان المثل الأعلى للفكرة التي قامت عليها حركة الجامعة الإسلامية مغريا جدا، حيث استطاعت الحركة أن توقظ شعورا يعطف عليها في كل جزء من أجزاء العالم الإسلامي، وكان من نتائجها إيقاظ الشعور بالوحدة الإسلامية من جديد وتقويته إلى حد لم يسبق له مثيل[٥٥].

[٥٥] نفس المصدر، الجزء الثالث، ص ٧١ – ٧٥.

وفي المقابل توافرت عدة أسباب أعاقت حركة الجامعة الإسلامية منها حالة التفسخ والتخلف التي سادت العالم الإسلامي وحالت دون أن يجتمع قادته على كلمة سواء، إضافة إلى انعدام وسائل الإعلام والاتصال الحديثة مما قلل من انتشار الدعوة ووصولها إلى جميع التجمعات الجماهيرية الإسلامية، إضافة إلى القبضة القوية للدول الاستعمارية على الأقاليم الخاضعة لها وعدم سماحها بحركات مناهضة لها أو تيارات فكرية تشجع هذا الاتجاه الوحدوي.

وكان من العوامل التي أدت لإضعاف حركة الجامعة الإسلامية موقف المعارضة الشديدة للحركة الذي اتخذه المسيحيون العرب في الولايات العثمانية إذ خشوا أن تتهدد الأخطار كيانهم إذا قمت وحدة سياسية كبيرة تزداد فيها ضآلتهم العددية وسط أكثرية إسلامية ساحقة فتهضم حقوقهم

، وتأسيسا على هذه المخاوف تنادوا إلى حركة القومية العربية كبديل لحركة الجامعة الإسلامية، وكانت حركة القومية العربية قد بدأت عام ١٨٧٥ - قبل أن يصل عبد الحميد للحكم وقبل أن تظهر حركة الجامعة الإسلامية- على يد جمعية بيروت السرية التي ألفها خمسة شبان من المسيحيين العرب من خريجي الكلية البروتستانتية ببيروت، على أن صوت وتأثير تلك الجمعية بقي خافتا حتى قام نجيب عازوري بنشر كتابه "يقظة الأمة العربية" بالفرنسية عام ١٩٠٥، والذي دعا فيه إلى إنشاء دولة عربية دينية إسلامية في الحجاز تحكمها أسرة عربية ويلقب حاكمها بالخليفة ويباشر سلطة روحية على جميع المسلمين، ودولة عربية علمانية مستقلة تضم سوريا ولبنان وفلسطين، وقد وضع في مقدمة كتابه مذكرة مفتوحة إلى الدول الكبرى قال فيها إن القومية العربية حقيقة واقعة وأن الوعي

العربي قد انتشر بين العرب وهم يريدون أن ينفصلوا عن تلك الشجرة البالية شجرة آل عثمان وأن يؤسسوا دولة مستقلة[٥٦].

لكن يبدو أن سوء حكم بعض رجال الإدارات المحلية التابعين للدولة العثمانية كان سببا أيضا من أسباب ضعف حركة الجامعة الإسلامية تحت لواء الدولة العثمانية، فقبل أن يظهر كتاب عازوري كان عبد الرحمن الكواكبي قد نشر كتابه "أم القرى" عام ١٩٠٠، والذي دعا فيه إلى أن تكون الجامعة الإسلامية في إطار خلافة عربية شورية وليس في إطار حكم العثمانيين[٥٧].

ورغم ذلك فقد كانت فقد ظلت "النزعة الإسلامية غالبة على العصبية الجنسية والرابطة القومية في مصر إلى أوائل القرن العشرين، ولذلك لم يكن المصريون يجدون غضاضة في

[٥٦] حول موقف المسيحيين العرب من الجامعة الإسلامية طالع نفس المصدر، ص ٨٢ – ٨٨.
[٥٧] حول رؤية عبد الرحمن الكواكبي للخلافة التي يريدها طالع نفس المصدر، ص ١٠٠ – ١٠٦.

الاعتراف بسلطة الخليفة التركي"[٥٨]، وهو ما عبر عنه قادة الفكر في ذلك الزمان، سواء السيد جمال الدين الأفغاني، أو الشيخ محمد عبده خاصة في جريدة العروة الوثقى الصادرة سنة ١٨٨٤[٥٩]، أو عبد الله النديم في مجلته الأستاذ (عام ١٨٩٢)، ومن ثم فقد كان طبيعيا أن يكون موقف مصطفى كامل من الجامعة الإسلامية في إطار الدولة العثمانية ثابتا لا يتزعزع، وهو نبت من هذه الشجرة، وهو الموقف الذي عبر عنه في حديثه لإحدى الصحف الألمانية عام ١٨٩٨ بمناسبة انتصارات الدولة العثمانية على اليونان حيث قال: إن إحساسات المصريين نحو الدولة العالية لا تزال كما هي إحساسات التابع للمتبوع وكلما مر الزمان قويت الرابطة بين مصر والدولة العلية" وقد أرجع ذلك لعدة أسباب:

---

[٥٨] محمد محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الثالثة، ١٩٨٠، ص ١.

[٥٩] طالع أعداد العروة الوثقى كاملة في: العروة الوثقى لمدير سياستها السيد جمال الدين الأفغاني، ومحررها الأول الشيخ محمد عبده، باريس ١٣ مارس ١٨٨٤ ١٦ أكتوبر ١٨٨٤ جزآن في مجلد، القاهرة، المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨٤.

أولا: أن المصريين في أغلبهم مسلمون (..) وبما أن دولة الخلافة الإسلامية هي الدولة العلية وسلطانها هو رئيسها الديني (ومن ثم) تعلق النفوس بهذه الدولة المحبوبة.

ثانيا: أننا رأينا في أيامنا هذه فوق ما قرأناه في التاريخ أن أوروبا جمعاء تحارب الدولة العلية بصفتها دولة إسلامية وإلا فلم نجدها تهلل وتكبر كلما انتصرت أمة مسيحية على أمة إسلامية في حين أنها تتألم وتستشيط غيظا إذا كان الأمر على العكس من ذلك، ألم يكن في نتيجة انتصار الدولة العلية على اليونان ما يحقق هذه النظرية وذلك من شأنه أن يزيد تعلقنا بالدولة العلية.

ثالثا: أنها الدولة الإسلامية الوحيدة التي لها أملاك في أوروبا وآسيا وأفريقيا وأغلب هذه الأملاك إسلامي، ونحن أبناء دين يحتم علينا أن نكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا وأن

نعامل ذوي الأديان بالرفق والإنسانية وأن نجادلهم بالتي هي أحسن[٦٠].

وإضافة إلى ما سبق من أسباب فإن مصطفى كامل كزعيم سياسي وطني درس قضيته جيدا لم يجد من الحكمة أن ينادي في وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطاني وبإلغاء السيادة العثمانية لأن معادة الدولة العلية في ذلك الوقت كانت تؤدي حتما إلى انضمامها إلى إنجلترا وتنازلها لها عن سيادتها وهذا ما كانت تبغيه إنجلترا، إضافة إلى حقيقة أن مركز مصر السياسي حتى الحرب العالمية الأولى كانت تحدده معاهدة لندن سنة ١٨٤٠[٦١] والتي تعتبر صكا دوليا التزمت الدول باحترامه وأهم أحكام هذه المعاهدة الاعتراف باستقلال مصر المكفول

[٦٠] حول نص الحوار كاملا طالع: يواقيم رزق مرقص، المقالات، مصدر سابق، ص ٢٨٤ – ٢٨٧.

[٦١] حول المعاهدة وملابساتها طالع: عبد الرحمن الرافعي، عصر محمد علي، مصدر سابق، ص ٢٨٥ – ٢٩٢.

من الدول وضمان عرش مصر في أسرة محمد علي وبقاء السيادة العثمانية عليها[٦٢].

الأمم لا تنهض إلا بنفسها

في ظل الفصول المتلاحقة للمسألة الشرقية التي عايشها مصطفى كامل، والتي كان يستند فيها في تحييده لمعاداة الدولة العلية أو الخديوي (قدر المستطاع) فإنه اعتمد في نضاله على استجلاب دعم الرأي العام الأوروبي عامة والفرنسي خاصة، لكنه أدرك بعد عام واحد من نشاطه في الدبلوماسية الشعبية أن تلك الجهود لن تحقق وحدها غاية الوطن في الاستقلال والنهضة، فكشف عن رأيه بـ"أن هذا الأسلوب الذي تطرقه مصر إنما قضت به الأيام وإن كان وقتيا إلا أنه من أجل

[٦٢] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٣٥٨.

مصلحة مصر" وعلم علم اليقين أن العبء الأكبر في تحقيق ذلك إنما يقع على عاتق أبناء مصر بالدرجة الأولى[٦٣]، وجاء الاتفاق الودي ليزيد الوطنيين إيمانا بعدم الاعتماد من قريب أو بعيد بعد أن خيبت فرنسا رجاءهم في إمكانية مساعدة الحركة الوطنية[٦٤]، وقد عبر كامل عن رأيه في الاتفاق في خطبته بالإسكندرية في يونيو ١٩٠٤ قائلا: إني تألمت أشد الألم كسائر المصريين من هذا الاتفاق المشؤوم ورأيت فيه ضربة جديدة لوطننا العزيز ولم أكن أنتظر من فرنسا مجاراة إنجلترا في نسيان الوعود والعهود، ولكن أعتقد أن وزراءنا هم الذين ادعوا إليه وحرضوا عليه، لأنه لا يوجد في العالم إنسان يخدم من لا يخدم نفسه ويدافع عن حق من تنازل عن حقه، وقد استسلمت حكومتنا للاحتلال استسلاما أبعد عنها

[٦٣] عصام ضياء الدين السيد، مصدر سابق، ص ٢٦، نقلا عن رسالة بعثها إلى صديقه عبد الرحيم أحمد بتاريخ ١٩ سبتمبر ١٨٩٥.

[٦٤] نفس المصدر، ص ٣٠.

كل محب لها ميال لمساعدتها[٦٥]، وفي خطبته التي ألقاها في الإسكندرية أيضا بعد ثلاث سنوات (أكتوبر ١٩٠٧) والتي كانت بمثابة دعوة عامة لتأسيس الحزب الوطني عاد يقول: ظن الساسة الانكليز أنهم إذا اتفقوا مع فرنسا على مسئلة مصر طويت أوراق هذه القضية الخطيرة وخفت كل صوت ومات كل أمل وحل اليأس محل الرجاء وصار الشعب المصري أثرا كتلك الآثار القديمة (..) ولكنهم أخطأوا خطأ كبيرا، نعم أخطأ أولئك الساسة الذين يظنهم العالم أمهر الناس في تدبير الشؤون العامة وإعداد الحوادث ومعرفة المستقبل، أخطأوا لأن العزلة التي صرنا إليها بعثت فينا روحا جديدة وأرشدتنا إلى الحقيقة التي لا قوام لشعب بدونها ولا حياة لأمة بغيرها ولا وجود لنفر من الناس إذا لم يتبعوها، وهي: أن الأمم لا تنهض إلا بنفسها ولا تسترد استقلالها إلا

[٦٥] مصطفى كامل في: يواقيم رزق مرقص، الخطب، مصدر سابق، ص ٢٦٣.

بمجهوداتها وأن الشعب كالفرد لا يكون آمنا على نفسه إلا إذا كان قويا بنفسه مستجمعا لكل عدد الدفاع وآلات الذب عن الشرف والمال والحياة، نعم فقهنا أن الشعوب التي لا ترجو الرقي إلا بمعونة جيرانها وأصدقائها ولا تحفظ استقلالها إلا بالاعتماد على حلفائها هي شعوب في خطر وحياتها مهددة في كل وقت[٦٦].

كانت هذه هي الحقيقة التي استشعرها إذا في مبتدئ نضاله الوطني، والتي توثقت لديه قرب منتهاه، وهي الحقيقة التي انعكست فيما قدم للأمة من مقالات وكتب رويدا رويدا، وإن كان التأليف في حقيقته ليس مقصده الأساسي، فهو بالأساس زعيم وناشط، للكتابة عنده وظيفة محددة في خدمة قضيته.

[٦٦] نفس المصدر، ص ٣٠٢.

ثالثا: الإنتاج الفكري لمصطفى كامل

ولد مصطفى كامل وعاش في بيئة محملة بالهم العام ممثلا في القضية الوطنية وقضايا الأمة بشكل عام، وساهم ذلك الجو ومن خالطهم فيه من رجال في تكوينه، وتكوين حصيلته التي أخرج من مكنونها بعد ذلك في رحلة عطائه، وإضافة إلى هؤلاء الرجال، وإضافة إلى الصحف السيارة حينها وما كان يكتب فيها حول تلك القضايا، اجتهد كامل بشكل شخصي كي يرفع حصيلته المعرفية حول القضية التي تمنى أن يكون المدافع عنها أمام العالم أجمع، وقد حكى عن ذلك شقيقه علي فهمي كامل قائلا:

"أنه (لما) استقبله في الإسكندرية عند رجوعه بعد حصوله على شهادة الحقوق وجد معه ضمن متاعه صندوقين كبيرين

مملوءين بالكتب القديمة والحديثة في تاريخ المسألة المصرية وسياسة الأمم وفيهما مذكرات بعضها لكبار السياسيين وبعضها من مكتبة باريس وبعضها من وزارة الخارجية الفرنسية، وبعد أن استقر به المقام في القاهرة كان لا يفتأ يدرس الكتب والمذكرات التي أحضرها معه، وقد أكب عليها كأنه لا يزال في دور الدراسة، فوضع لنفسه برنامجا للعمل سار عليه، فكان يعمل يوميا ثماني ساعات في مكتبه، ذلك أنه يستيقظ في السادسة صباحا فيؤدي صلاة الصبح، ثم يتناول الفطور، ويقصد كوبري قصر النيل للرياضة، ثم يعود في السابعة ويأخذ في المطالعة والعمل فيستمر بين قراءة وكتابة وتدوين مذكرات إلى الظهر ثم يتناول الغذاء، وينام إلى الساعة الثالثة، ثم يستأنف المطالعة حتى الساعة الخامسة، وبعدئذ يزور إخوانه وأصدقاءه ويعود في السابعة مساء ليعاود القراءة مرة أخرى إلى الساعة التاسعة، ثم يتناول مع أفراد الأسرة طعام العشاء،

ويقضي السهرة معهم ومع الزائرين حتى منتصف الليل ثم يأوي إلى فراشه، وقد نضج فكره من هذه الدراسات العميقة، فكانت عدة له في الكفاح إلى جانب إخلاصه وقوة يقينه، ومواهبه الخطابية والصحافية"[٦٧].

أثمرت المذاكرة في تلك الحصيلة المعرفية خطبا ومقالات ورسائل وأحاديث صحفية وكتبا عدة، وقد بذلت محاولات عدة سواء في حياة مصطفى كامل أو بعد مماته لجمع شتات هذا الجهد الوطني، لكن كل ما بذل في هذا المجال من جهد ما زال قاصرا، ومن تلك الجهود:

- كتاب شقيقه علي فهمي كامل: مصطفى كامل في ٣٤ ربيعا سيرته وأعماله من خطب ورسائل سياسية وعمرانية، ٩ أجزاء في ثلاثة مجلدات، القاهرة ١٩٠٩.

[٦٧] عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل، مصدر سابق، ص ٥٥ – ٥٦.

- ما أصدره مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر من أوراق مصطفى كامل في خمسة أجزاء شملت: المراسلات (جزء واحد/ ١٩٨٢)، الخطب (جزء واحد/ ١٩٨٤)، المقالات (٣ أجزاء/ ١٩٨٦)
- المؤلفات الكاملة لمصطفى باشا كامل الصادرة ضمن سلسلة المكتبة التاريخية، عام ٢٠٠١[٦٨].

والمتأمل لكل ما قاله أو كتبه مصطفى كامل يجد أنه يصب بشكل أساسي في هدفين رئيسيين كان يسعى إليهما في كفاحه وأن أحدهما يؤدي إلى الآخر، الهدف الأول هو الاستقلال، والهدف الثاني هو النهضة أو العمران، وهو ما يفسر لنا تخصيص شقيقه علي فهمي كامل لهذين الهدفين في قوله: "رسائل سياسية وعمرانية"، ويمكننا أن ننظر إلى مؤلفاته من الكتب التي حصرها المؤرخون ونصنفها على النحو التالي:

[٦٨] لم يصل الباحث من هذا المشروع إلا إلى كتابه: المسألة الشرقية، والذي حققه وقدم له كل من عبد الرازق عيسى وعبير حسن، وجاء فيه نص كتاب مصطفى كامل ملئيا بالأخطاء والصفحات المتكررة مما شوه النص على الرغم من الجهد المبذول في التحقيق والتقديم.

القسم	المؤلفات
القسم الأول: ويتناول قضايا الحاضر، وعلى وجه أخص قضية المسألة المصرية المتمثلة في الاحتلال البريطاني لمصر	- أخطار الاحتلال الإنجليزي لمصر وقد نشر بالفرنسية وعربته جريدة المؤيد في عددها بتاريخ ٢٨/ ٨/ ١٨٩٥ - رسالة إلى الجمعية الوطنية الفرنسية، وهي رسالة تقدم بها إلى الجمعية مرفقا بها لوحة مرسومة وهي خاصة بطلب مساعدة فرنسا لمصر في تحقيق استقلالها/ ١٨٩٥ - مصر والاحتلال الإنجليزي، عبارة عن خطب ومقالات مصطفى كامل خلال عامي ٩٥ - ١٨٩٦ جمعها محمد مسعود/

	١٨٩٦ - المصريون والإنجليز أصدره مصطفى كامل في باريس، ويتناول مقالاته ومراسلاته في ١٢ فصلا ويتكون من ٣٢٨ صفحة من القطع الصغير، وقد قدمت له مدام جولييت آدم/ ١٩٠٦ - مصطفى كامل والإنجليز، أو دفاع المصري عن بلاده، ويتضمن خطب مصطفى كامل ومقالاته، قامت بجمعها جريدة اللواء وطبعت بمطبعة اللواء، وقدم لها محمد فريد/ ١٩٠٦ - رغائب الحزب الوطني، وهي خطبة ألقاها مصطفى كامل في

	مساء يوم ٢٤/ ١٠/ ١٩٠٧ على مسرح زيزينيا/ ١٩٠٧
القسم الثاني: ويتناول قضايا تاريخية وهو غير منفصل عن قضايا الحاضر، فهو إما يصب في قضيته السياسية أو في قضيته العمرانية	- أعجب ما كان في الرق عند الرومان، نشرته سنة ١٣١٠هـ مطبعة المحروسة في ٢٠٤ صفحة من القطع الصغير/ ١٨٩٣ - رواية فتح الأندلس، وهي رواية وطنية عن الفتح الإسلامي للأندلس نشرت أولا في جريدة المؤيد عدد ١٨/١٢/ ١٨٩٣، ثم ظهرت في كتاب مستقل عام ١٨٩٤ - المسألة الشرقية، نشر في أبريل ١٨٩٨ بمناسبة انتصار الدولة العثمانية في حربها ضد اليونان،

	مطبعة الآداب في جزءين من ٣٥٢ صفحة - صور الجنود العثمانية المظفرة، وهي خاصة بالحرب بين الدولة العلية واليونان وعبارة عن إحدى عشرة صورة عن قواد الجيش العثماني وجنوده وفرقه، بالإضافة إلى قائد الجيش اليوناني/ ١٨٩٨ - الشمس المشرقة، وقد ألفه مصطفى كامل بعد ما حققته اليابان على روسيا من انتصارات في الحرب التي كانت دائرة بينهما، وهو في جزء واحد من ٢٢٣ ص (مطبعة اللواء سنة ١٩٠٤) ولم يعثر إلا على هذا الجزء وإن كان قد أشار إلى أنه

	الجزء الأول[٦٩]

رابعا: المسألة الشرقية في إطار مشروعه

كتاب "المسئلة الشرقية" أحد أهم ما كتبه مصطفى كامل، كان قد أصدره عام ١٨٩٨ وأعيد نشره مرة أخرى عام ١٩٠٩ ثم نشر مرة ثالثة محققا عام ٢٠٠١[٧٠]، وقد ترجمت مقدمته إلى التركية، ثم ترجم الكتاب كله إلى التركية، وطبع مترجما مرتين في مصر خلال مدة قصيرة (في سنة ١٨٩٨م وسنة ١٨٩٩ م)[٧١]، وكتاب المسألة الشرقية ليس مجرد كتاب في التاريخ، لكنه كان أداة من أدوات كفاح مصطفى كامل

[٦٩] طالع شوقي الجمل في مقدمته لأوراق مصطفى كامل، المراسلات، مصدر سابق، ص ٥ – ١٣.

[٧٠] وهي النسخة التي حققها وقدم لها كل من عبد الرازق عيسى وعبير حسن، والصادرة عن العربي للنشر والتوزيع في إطار المكتبة التاريخية، والتي صدرت طبعتها الأولى في ٢٠٠١.

[٧١] أكمل الدين إحسان أوغلي، الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي، نقله إلى العربية صالح سعداوي، القاهرة، دار الشروق، ٢٠١١، ص ٢٨٤ – ٢٨٥.

في حاضره، وهو بالنسبة إلينا الآن يتصل بقضية "النهضة" بسببين:

١- مسألة الوعي بالذات الحضارية: فمما لا شك فيه أن أي مشروع للنهضة لابد أن يسبقه ويوازيه إعادة صياغة لعقل ووجدان أبناء الأمة، ولابد لتلك النهضة أن تنبني على وصل الذات الحضارية لأبناء الأمة بعد أن تعرضت لتقطيع أوصالها سواء كانت تلك الأوصال رأسية تمتد في أعماق التاريخ، أو كانت أفقية تمتد بامتداد الجغرافيا، وكتاب المسألة الشرقية في الحقيقة يصلنا بالبعدين معا.

٢- مسألة فقه الواقع: فمما لا شك فيه أن كتاب المسألة الشرقية كان في حينه ذا صلة بواقع "المسألة المصرية" التي هي جزء من الشرق محل الصراع، وهو أيضا في حيننا الآن ذو صلة كون الشرق في أعين الغرب هو هو، وإن تغير الاسم "من المسألة الشرقية إلى الشرق

الأوسط" كما بينا، إذ أن مشروعنا اليوم للنهضة، لابد فيه أن نلحظ بأعيننا السياق الدولي الذي نبنيه فيه، وهذا السياق متصل وممتد لم ينقطع، ولم تتغير الأسس التي ينبني عليها.

سياق ظهور الكتاب:

كان كتاب مصطفى كامل كأنه حلقة في سلسلة من الكتابات التي تناولت المسألة الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في تلك الفترة، ونتناول هنا أهم هذه الكتب:

فقبل أن يصدر مصطفى كامل كتابه هذا، كان رفيق كفاحه والزعيم الثاني للحزب الوطني محمد فريد قد أصدر كتابه "تاريخ الدولة العلية العثمانية" عام ١٨٩٤ والذي صدرت منه في

حياة المؤلف ثلاث طبعات[٧٢]، وهو يسير في نفس الاتجاه الذي سار فيه كتاب "المسألة الشرقية" لاحقا ويرمي إلى نفس مراميه إذ "لما كانت هذه الدولة قد وقفت نفسها للذب عن حرية الشرق والذود عن حوضه، ولما كانت هي الحامية لبيضة الدين الإسلامي زمانا طويلا رأت فيه من التعصب الأوروبي الإحن والمحن وجب علينا أن نعلم تاريخها التفصيلي حق العلم لنقف على ما كان يربطنا بغيرها من الدول من المعاهدات والوفاقات الدولية لذلك رأيت من الواجب علي خدمة للحقيقة ونفعا لأبناء البلاد أن أدون هذا التاريخ"[٧٣]، إلا أنه يختلف عنه في كونه يفصل في تاريخ الدولة العثمانية منذ نشأتها، ويسبقه بموجز لتاريخ الدول الإسلامية قبلها، بينما يتناول مصطفى كامل بعدا معينا في تاريخ الدولة يختص

[٧٢] الأولى عام ١٨٩٤، والثانية عام ١٨٩٦، والثالثة عام ١٩١٢.
[٧٣] محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٧، ص ٤- ٥.

بصراع الدول الأوروبية الكبرى معها بادئا بذلك الصراع في القرن الثامن عشر ثم تاليا ذلك بالقرن التاسع عشر، كما أن مصطفى كامل حين دون كتابه فإنه دونه بروح المناضل السياسي الوطني الذي كان الكتاب بالنسبة له أداة في نضاله، أما محمد فريد فإنه دونه بما عرف فيه وعنه من نزوع للبحث والتأريخ[٧٤].

وقبلهما أصدر أمين إبراهيم شميل عام ١٨٧٩ جزأين من سفر كان مقدرا له أن يصدر في ستة أجزاء هو "الوافي في المسئلة الشرقية ومتعلقاتها وتاريخ الحرب الأخيرة بين الروس والعثمانيين سنة ١٨٧٧ - ١٣٩٤"، وحسب ما تشير مقدمة الكتاب فإن الأجزاء الثلاثة الأولى كانت لتناول تاريخ العلاقة

[٧٤] أصدر عام ١٨٩١ كتابه "البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة المحمدية" وهو تاريخ واف لمحمد علي باشا، ثم كان تاريخ الدولة العلية كتابه الثاني الصادر عام ١٨٩٤، وفي عام ١٩٠٢ أخرج كتابه "تاريخ الرومان" ويشتمل على تاريخ تلك الدولة منذ سقوط قرطاجنة وكان قد نشره تباعا في مجلة الموسوعات التي كان يصدرها مع أحمد حافظ عوض بك ومحمود بك أبي النصر منذ عام ١٨٩٨ وله فيها عدة مباحث تدل على سعة اطلاعه وميله إلى البحث والتمحيص، طالع حول مؤلفاته: عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد مصدر سابق، ص ٣٥ - ٣٧.

بين دول المسلمين ودول الغرب المسيحي منذ ظهور الإسلام، بينما تؤرخ الأجزاء الثلاثة الأخيرة للحرب الروسية العثمانية، ومرد هذا التقسيم راجع إلى رؤية أمين شميل للمسألة الشرقية التي يرى أنها تبدأ منذ أن وجدت دولة للمسلمين تنازع دول الغرب المسيحي أملاكها: هذا ولما كانت طوارئ الحرب المذكورة من النوادر الغنية، نظرا إلى ما تنطوي عليه من الصوالح والعناصر المتنوعة الكلية، لم يكن رقم حوادثها كافيا لمن أراد الاطلاع على الأسباب المختلفة، إذ ليست هي كبقية الحروب الجارية المؤتلفة، بل هي حلقة من سلسلة ما يدعوه أهل السياسة في عهدنا هذا بالمسألة الشرقية، المندرجة في سلاسل الطوارئ العالمية، وهي المسألة التي عاشت القرون الطويلة فلم يكن ما يفنيها، لها السلم كالسيف وما يميتها يحييها، فلو تتبعنا التاريخ من أول ما اشتغل به الناس لما وجدنا مدة تميزت بكثرة الدول والحروب نظير المدة الأخيرة من لدن ما

ولد نبي الأمة العربية، وأفرغت دولتا الروم والفرس إلى الدولة الإسلامية"[٧٥].

وفي عام ١٩٠٠ أصدر الناشط التركي علي كمال كتابا طبع له بعنوان "مسأله شرقيه" بالتركية تحدث فيه عن ماهية المسألة الشرقية وملابسات ظهورها ومراحل تطورها، وهو الكتاب الذي جاء ضمن نشاط حركة تركيا الفتاة في إصدار الكتب والمجلات في مصر، وهي الحركة التي نشطت في أعقاب الاحتلال البريطاني لها، وبتشجيع من الإنجليز دعما منهم للنشاط المناهض للدولة العثمانية، وقد بدأت الحركة إصداراتها في مصر منذ عام ١٨٩٥[٧٦].

---

[٧٥] أمين بن إبراهيم شميل، الوافي في المسئلة الشرقية ومتعلقاتها وتاريخ الحرب الأخيرة بين الروس والعثمانيين سنة ١٨٧٧ – ١٣٩٤، الإسكندرية، مطبعة الأهرام، سنة ١٨٧٩ – ١٣٩٦، ص ٢.

[٧٦] علي كمال (١٨٦٧ – ١٩٢٢) هو ناشط تركي ناصر لفترة حركة تركيا الفتاة ثم عاد بعد ذلك وانقلب عليها، وفي سنة ١٩٠٠ توجه إلى مصر لتولي إدارة مزرعة لأحد الأمراء المصريين وهناك أصدر كتابه هذا، إضافة لإصداره جريدة "مجموعه ه كمال" وجريدة "ترك": أكمل الدين إحسان أوغلو، مصدر سابق،ص ٢٧٢، وحول مجمل أعمال ناشطي حركة تركيا الفتاة في مصر طالع نفس المصدر، ص ٢٦٤ – ٢٧٧.

وفي عام ١٩٠٢ صدر كتاب "تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان" من تأليف حقي العظم، وهو من أهم الكتب التي صدرت في أعقاب نفس تلك الحرب التي بسببها دون مصطفى كامل كتابه، غير أن هذا الكتاب يتميز كما يقول حقي "بجمع الكثير من الدقائق السياسية والجغرافية والمسائل الاقتصادية والحربية مما لا يوجد في كتاب سواه"[٧٧]، وقد اعتمد فيها مؤلفه على مراجع متخصصة باللغات التركية والإنجليزية والفرنسية، يقول "حقي" في فاتحة كتابه "قصدت إلى ذكر الحقائق المهمة التي أغفلها كثير ممن كتب في هذا الشأن، وعمدت إلى سرد الوقائع وما تضمنته من الملاحظات، كما أني أجهدت الفكر في تحري الحق والتزام الصدق شأن المؤرخ المنصف والباحث العادل"[٧٨]، وأرجع

[٧٧] حقي العظم، تاريخ حرب الدولة العثمانية مع اليونان، القاهرة، مطبعة الترقي، الطبعة الأولى، ١٣١٩ هـ - ١٩٠٢م، ص ٤.
[٧٨] نفس المصدر، ص ٤.

في مستهل كتابه أسباب الوهن الذي أصاب الدولة العثمانية وأدت لانفصال الولايات البلقانية إلى الاعتماد على قوتها وعلى المستقبل وتقلباته والأيام وتحولاتها بدلا من توثيق عرى الرابطة الدينية مع أخل تلك الولايات بالدعوة أو توثيق عرى اللغة بنشر اللغة التركية بينهم أو حتى زيادة العنصر الإسلامي في تلك الولايات بالهجرة إضافة إلى سماحتها النابعة من التزامها بتعاليم الدين الإسلامي واقتفائها سنة الدول الإسلامية من قبلها بعدم تعرضها لحرية الأديان، ومن ثم كان طبيعيا أن يسعى أهل تلك البلدان – والحالة هكذا – إلى التخلص من حكم الدولة العثمانية والانفصال عنها[٧٩].

نظرة على الكتاب

[٧٩] حول تفاصل رؤيته راجع: نفس المصدر، ص ٥ – ٦.

يحتوي الكتاب الذي جاء في ٣٥٢ صفحة على فاتحة (أو تمهيد) ومقدمة عامة حول المسألة الشرقية، ويشتمل الكتاب على قسمين، يتناول القسم الأول المسألة الشرقية في القرن الثامن عشر وهو القسم الأصغر ويمتد حتى صفحة ٤٩ من طبعة الكتاب الأولى، بينما يتناول القسم الثاني - ويشمل باقي الكتاب - سبعة أزمات تضمنتها أطوار المسألة الشرقية في القرن التاسع عشر وهي استقلال اليونان، ومسألة الشام (بين مصر والدولة العلية)، وحرب القرم، والحرب بين الدولة العليا وروسيا عام ١٨٧٧، والمسألة المصرية، والمسألتان البلغارية واليونانية من عام ١٨٨٥ إلى عام ١٨٨٧، وينتهي بالحديث حول المسألة الأرمنية، ويعتبر بعض مؤرخي علم التاريخ المصري الحديث أن كتاب "المسئلة الشرقية" كان حدا فاصلا بين ما يسمى بالتأريخ الزمني والتأريخ الحديث والذي يتضمن تفسير الحوادث وتحليلها لا مجرد سردها في تسلسلها

التاريخي[٨٠]، وهو ما يجعل لكتاب المسئلة الشرقية ميزة عما سبقه من كتابات تاريخية مصرية في القرن التاسع عشر، وفضل على ما تلاه من كتابات تاريخية، ورغم الميزة والفضل إلا أننا بنظرة عامة على الكتاب يمكننا أن نخرج بالملاحظات التالية على أسلوب مصطفى كامل في كتابته:

- الملاحظة الأولى: أنه بالرغم من تميز الكتاب بالاعتماد على المعلومات وسعيه لتفسيرها وتحليلها، إلا أنه جاء مشبوبا بالعاطفة، مشوبا بحسن الظن، أما العاطفة فقد جعلته يصب جام غضبه وسوء ظنه على الإنجليز بشكل خاص وهو غضب وسوء ظن مفهومين كون وطنه محتلا من قبل الإنجليز، لكنه يلح في الكتاب كله على تحميل الإنجليز بالعبء الأكبر فيما آلت إليه أحوال الدولة العثمانية في القرنين الثامن والتاسع عشر، بينما

[٨٠] طالع تقييما لكتاب المسئلة الشرقية في: جاك كرابس جونيو، كتابة التاريخ في مصر القرن التاسع عشر دراسة في التحول الوطني، ترجمة عبد الوهاب بكر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الألف كتاب الثاني، العدد ١١٨، ١٩٩٣، ص ٢٠١ – ٢١٧.

أدى به حسن ظنه إلى التماس الأعذار والتبرير أحيانا حينما يأتي ذكر فرنسا والفرنسيين، ربما تأثرا برجائه في مساعدة فرنسا لمصر في قضيتها وحسن ظنه بها في تلك الفترة التي ألف فيها الكتاب، حتى أنه حينما تناول المسألة الشرقية في القرن الثامن عشر لم يتناول الحملة الفرنسية على مصر، ولم يشر حتى إليها.

- الملاحظة الثانية أن العاطفة وحسن الظن أديا به إلى أن يخفف بعض الشيء من مسئوليات باقي الدول الأوروبية الكبرى – باستثناء بريطانيا - فيما آلت إليه الأمور، وذلك رغم أن الاستقراء العام لسير الأحداث التي ذكرها الكتاب ينبئنا أنه لا مكان في العلاقات الدولية بشكل عام، ولعلاقات القوى الأوروبية بالدولة العثمانية للعواطف أو المشاعر النبيلة أو لحسن الظن، فإذا كانت بريطانيا أكثر الدول في التآمر السياسي فإن فرنسا كانت شريكة في التواطؤ ولم تكن أقل استعماريا، كما أن ألمانيا ومنذ مؤتمر برلين عام

١٨٧٨ كان لها دور مهم في التآمر على الدولة العثمانية، أما روسيا فإنها كان كان لها الدور الأكبر في إنهاك قوى الدولة العثمانية عسكريا، وساهمت مع النمسا وإن كان لها الدور الأكبر في تأليب دول البلقان على الدولة العثمانية ثم اقتطاعها من الدولة واحدة تلو الأخرى، مرة بحكم رابطة العرق السلافي وأخرى بحكم الرابطة الدينية المسيحية الأرثوذكسية.

- الملاحظة الثالثة: أنه بالرغم من أن المناسبة التي ألف مصطفى كامل من أجلها الكتاب هي مناسبة لبث الأمل والتعبير عن السعادة بـ"فوز الدولة العلية في حربها مع اليونان فوزا عظيما وانتصارها نصرا مبينا"[٨١] إلا أنه وهو يسطر سطور الكتاب ويقلب صفحات تاريخ المسألة الشرقية كان كمن يمسك بشوكة ليكتب بها على صفحة من الصوف المبلول، فلا هو أسعد قلبا ولا أشفى نفسا، كونه كان يكتب عن تاريخ الدولة

[٨١] مصطفى كامل، المسئلة الشرقية، مصدر سابق، ص ٣.

العثمانية وهي تتشبث بمنحنى انهيارها تحاول أن تبطئ منه، بينما يدفعها أعداؤها إلى الهاوية ويمزقونها إربا.

مقدمة الكتاب

أهم ما احتوته مقدمة الكتاب ثلاثة أمور: الأول ما احتوته من التعريفات الذين قدمهما للمسألة الشرقية، الثاني ما رآه أسبابا مؤدية لها، أما الثالث فهو ما يمكن أن نسميه المقولة الأساسية أو الرسالة الرئيسية للكتاب.

التعريفات

- أما التعريف الأول فهو ذلك الذي نقلناه سابقا وهو أنها "هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن الدول الواقعة تحت سلطانها، وبعبارة أخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها في

أوروبا" ويبدو أنه كان يميل إلى هذا التعريف كونه لم يناقشه كما ناقش التعريف الآخر.

- أما التعريف الثاني والذي نوه إلى أن كتابا آخرين من الشرق والغرب يقولونه فـ" هي مسئلة النزاع المستمر بين النصرانية والإسلام أي مسئلة حروب صليبية متقطعة بين الدول القائمة بأمر الإسلام وبين دول المسيحية". وقد استدرك على هذا التعريف الثاني بأنه وإن كان فيه شيء من الحقيقة فليس بصحيح تماما، لأن الدول التي تنازع الدولة العلية وجودها لا تعاديها باسم الدين فقط، بل في الغالب تعاديها طمعا في نوال شيء من أملاكها"، واعتبر أن الدين هو "ستار تختفي وراءه أغراض شتى وأطماع مختلفة"[٨٢].

أما أسباب المسألة الشرقية فقد رآها كامل كما يلي:

[٨٢] نفس المصدر، ص ٥.

- الطمع فيما تحت سلطة الدولة "من أجمل البلاد وأغناها" والتي من أجلها "كانت هذه الدول تحارب الدولة العلية بأمل تقسيمها شيئا فشيئا والاستيلاء على أجزائها جزءا فجزءا"[٨٣].
- إنكار الدول الأوروبية للتسامح والتساهل والاعتدال الذي عاملت به الدولة رعاياها الذين يدينون بغير دينها، واستغلالهم لهذه المكرمة لجعلها أكبر سبب لكل ما لحق الدولة العلية من الضرر والإجحاف، "فمسئلة اختلاف الدين التي هي نتيجة الاعتدال الديني والعدل والإنصاف كانت ولا تزال الداء الدفين الذي يهدد حياة الدولة من وقت لآخر، فتداخل الدول الأوروبية في شئون الدولة باسم المسيحيين المحكومين بها، ومضايقة أوروبا للدولة باسم هؤلاء المسيحيين واضطرابات الدولة تقوم باسم هؤلاء المسيحيين،

[٨٣] نفس المصدر، ص ٦.

والإنذارات التي توجه للدولة باسم هؤلاء المسيحيين"[٨٤].

- الدخلاء في الدولة العلية، وهم الأجانب الذين دخلوا في جسم الدولة العلية "وغيروا أسماءهم بأسماء إسلامية وعملوا على الارتقاء في المناصب حتى وصل بعضهم إلى أسماها وصاروا من أقرب المقربين فعرضوا الدولة للدمار وأطلعوا أعداءها على أسرارها"[٨٥].

أما الرسالة الرئيسية التي يلح عليها في ثنايا تعليقاته على الأحداث في جميع فصول الكتاب فهي أنه "ليس للسلطنة العثمانية وبالطبع الخلافة الإسلامية في هذه الأيام عدو يجاهر بالعدوان لها ويعمل على دك أركانها وتقويض بنيانها غير انكلترا" وذلك مقارنة بباقي الدول التي حاربت الدولة العثمانية طويلا كروسيا والنمسا، والتي يرى أنها كفت عن عداوتها

[٨٤] نفس المصدر، ص ٦ – ٨.
[٨٥] نفس المصدر، ص ١١.

للدولة في الآونة الأخيرة، ومن ثم فبعد أن وصل لتلك النتيجة في نهاية مقدمته أعاد تعريف المسألة الشرقية واصفا إياها بأنها صارت "مسئلة النزاع بين انكلترا وبين بقية دول أوروبا بما فيها الدولة العلية"[٨٦].

القسم الأول من الكتاب

في هذا القسم من الكتاب والذي يحمل عنوان "المسئلة الشرقية في القرن الثامن عشر" يتناول مصطفى كامل "الحرب بين الدولة العلية والروسيا التي طالت من أواخر عام ١٧٦٨ إلى أوائل عام ١٧٧٥ وهذه الأزمة كانت شديدة، غزيرة النتائج، وكانت أصلا لتداخل أوروبا في أمور الدولة العثمانية باسم

[٨٦] نفس المصدر، ص ٢٢.

الدين"[٨٧]، وقد كانت تلك الحرب استكمالا لفصول سابقة من الصراع بين روسيا والدولة العثمانية واستهلالا لفصول تالية منه، وهو صراع كان يدور على أربعة محاور:

- الأول: الصراع على المناطق الشمالية والشمالية الغربية من تركيا الحالية وتشمل أوكرانيا وبولندا ورومانيا.
- المحور الثاني وهو الصراع في البلقان، وهو الصراع الذي كانت النمسا طرفا ثالثا فيه من الناحية العسكرية.
- أما المحور الثالث فهو الصراع على المضايق البحرية الواصلة ما بين بحر إيجة جنوبا وصولا للبحر المتوسط، إلى البحر الأسود شمالا مرورا بالدردنيل وبحر مرمرة ثم البوسفور.
- أما المحور الرابع فهو الصراع في شمال شرق تركيا في القوقاز وأذربيجان وما وراءهما تجاه الشرق.

[٨٧] نفس المصدر، ص ٢٤.

وفي هذا الفصل من الحرب الذي تناوله القسم الأول من الكتاب يدور الصراع على المحاور الثلاثة الأولى، وهو الصراع النموذج الذي يمكن من خلاله تبين نمط إدارة الصراع في إطار "المسئلة الشرقية"، والذي كانت تستخدم فيه أدوات:

- إثارة النعرات الدينية في وجه الدولة العثمانية وذلك على محور البلقان حيث "حصل أن بعض قسوس الروسيا جاءوا بلاد الدولة وأخذوا يهيجون أهالي اليونان وكريد والجبل الأسود باسم الدين"[٨٨] وهو ما كان من أحد أسباب إعلان الحرب، ثم كان من فصولها عندما أرسلت روسيا بمعاونة إنجلترا أسطولين على البحر المتوسط عام ١٧٧٠ لإثارة اليونانيين ضد الدولة[٨٩].

[٨٨] نفس المصدر، ص ٢٦.
[٨٩] نفس المصدر، ص ٢٨.

- المواجهات العسكرية المباشرة: وهو ما بدأ عام ١٨٦٩ بين روسيا والدولة العثمانية على المحور الأول (شمال غرب) على شواطئ نهر الديستر، حول خوتين وآزوف وتاجانروج*، وفي مقاطعة البغدان (الرومانية) وفي مدينة بوخارست، وما تلا ذلك من استيلاء على مقاطعة الأفلاق الرومانية وعلى شبه جزيرة القرم، واستيلاء النمسا على الصرب.
- التحالفات المتغيرة دائما بحسب تيار المصالح: ومن ذلك التحالف الروسي البروسي** والذي تجلى في معاونة بروسيا لروسيا في حربها، ثم الاتفاقية الودية بين النمسا وبروسيا عام ١٧٦٩ رغبة في الضغط على روسيا للقبول بتقسيم بولونيا، ثم اتفاق النمسا مع الدولة العلية عام ١٧٧١ ومحادثاتها السرية مع روسيا في نفس الوقت لدراسة مشاريع تقسيم الدولة العلية.

---

* مناطق في أوكرانيا الحالية.
** البروسي = الألماني.

- المراسلات السرية بين جميع الأطراف مع الحليف ونقيضه (روسيا/ بروسيا، والنمسا/ روسيا/ النمسا/ بروسيا، إنجلترا/ روسيا)، ودفعا لطرف للحرب بالوكالة عن طرف (سعي فرنسا لدفع الدولة لمحاربة روسيا)، والتجسس (النمسا تتجسس لصالح فرنسا، وانجلترا تتجسس وتؤلب الدول الأوروبية على التحالف النمساوي العثماني.
- المعاهدات العلنية لتكريس ما تم تحقيقه على الأرض بقوة السلاح وتعميقه ربما، وأهم مظاهر ذلك هو معاهدة "كوتشك قاينارجه" والتي تم الاتفاق على إبرامها في يوليو ١٧٧٤، وتم التصديق النهائي عليها في ٢٤ يناير ١٧٧٥، والتي يقول مصطفى كامل عنها أنها: أشهر عهدة أمضت عليها الدولة العلية والحجر الأول للمسألة الشرقية وعنوان النزاع بين المسيحية والإسلام وأصل الحروب الطويلة التي وجهت ضد الدولة في القرن التاسع عشر والأزمات الشداد التي وقعت فيها،

وشروط هذه المعاهدة أن الدولة العلية تتنازل للروسيا عن مقاطعات الدانوب تحت حمايتها وتعلن استقلال القرم تحت ضمانتها وتتنازل لها عن أزوف وكرنش ويني قلعة* وتعطيها حق الملاحة في البحر الأسود وشبه الحماية المعنوية على رعايا الدولة العلية المسيحيين عموما والأرثوذكسيين منهم خصوصا، وهذا الشرط كان ولا يزال آفة الدولة العلية في علاقاتها مع دول أوروبا فكلها تتداخل في شؤون الدول باسم المسيحية[٩٠].

القسم الثاني من الكتاب

في هذا القسم من الكتاب يتناول مصطفى كامل سبع أزمات يمكن تتبعها في خطين:

* على السواحل الشمالية للبحر الأسود.

[٩٠] نفس المصدر، ص ٤٦ – ٤٧.

- الأول المتصل بالمشروع التحديثي لمحمد علي وخلفاؤه (استقلال اليونان ومسئلة الشام بين مصر والدولة العلية ثم المسئلة المصرية).
- الثاني ويشمل أربع أزمات ذات صلة بامتداد الصراع الروسي العثماني (حرب القرم والحرب بين الدولة العلية والروسيا عام ١٨٧٧ ومؤتمر برلين وما تلاه متمثلا في المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية من عام ١٨٨٥ حتى عام ١٨٨٧، ثم المسئلة الأرمنية).

المسئلة الشرقية ومحمد علي وخلفاؤه

ويشمل الحديث عن الأزمة الأولى (استقلال اليونان)، والثانية (مسئلة الشام)، والخامسة (المسئلة المصرية):

استقلال اليونان: وهي الأزمة التي يمكن أن نرى فيها أربعة ملامح:

- الأول أن استقلال اليونان كان الهدف الذي سعت روسيا إلى تحقيقه إبان حربها مع الدولة العلية لتمد مناطق نفوذها غرب الدولة العثمانية من بولندا شمالا وحتى اليونان جنوبا وقد فشلت في تحقيق ذلك الاستقلال عام ١٧٧١، لكنها نجحت في التوصل إليه في نهاية المطاف بتوقيعها اتفاقا مع إنجلترا وفرنسا في لوندرة** يوم ٣ فبراير ١٨٣٠.
- الثاني وهو المسعى الذي كان هدفا أيضا لعناصر الثورة اليونانية (والتي بدأت عام ١٨٢١) الذين احتضنتهم روسيا بإدخالها زعماء تلك الثورة في خدمة القيصر الشخصية ورعايته، والذين كونوا في روسيا جمعية (هيتري أي الجمعية اليونانية الوطنية)، وذلك على الرغم من الحرية الدينية والمعاملة الحسنة التي نال اليونانيين منها "ما لم يخطر لهم على بال من السعادة والرفاهية"، وعلى الرغم من الحرية التجارية التي أدت

** لوندرة = لندن (العاصمة البريطانية).

لنمو التجارة في أيدي اليونانيين فصاروا بفضل الدولة العلية وبفضل تساهلها الديني أغنياء أثرياء عائشين في أتم الراحة والهناء"، وعلى الرغم ثالثا من الثقة الكبيرة التي أعطتها الدولة العلية لليونانيين، سواء بجعلهم حكاما لمقاطعات صربيا والأفلاق والبغدان* "مؤملة أنهم يخدمونها بصدق وأمانة كما أكرمتهم وأكرمت أمتهم فكانوا الأعداء الألداء في ثوب الأصدقاء الأمناء وعوضا عن أن يقوموا بالواجب عليهم نحو دولة رقتهم إلى أسمى المناصب استعملوا سلطتهم في تهييج أهالي هذه البلاد ضد الدولة العلية وإلقاء بذور الثورات والاضطرابات فيها"[٩١].

- الثالث هو التحالف الشعبي والرسمي (الروسي الإنجليزي الفرنسي) لدعم الثورة اليونانية أولا ثم للقضاء على الأسطول المصري ثانيا. أما شعبيا فإنه لما انتشر خبر

* الأفلاق والبغدان هما المقاطعتان اللتان تتكون منهما دولة رومانيا الحالية.

[٩١] نفس المصدر، ص ٥٠ – ٥١.

قيام اليونانيين بالثورة ضد الدولة العلية حتى تظاهر الكثيرون من الكتّاب والشعراء بتعضيدهم والانتصار لثورتهم ضد المسلمين، ومن هؤلاء الشاعر الإنجليزي لورد بيرون والكاتب الفرنسي فيكتور هوجو "فأسست اللجان المختلفة في فرنسا وإنجلترا لمساعدة اليونانيين بالمال والرجال وسافر المتطوعون من كل بلد في أوروبا ومن كل جانب، وقد قامت الحركة كلها في بلاد أوروبا باسم معارف اليونان وأنوارها القديمة وباسم الدين المسيحي"[٩٢]. أما الاتفاق الرسمي فقد وقع بين الدول الثلاث في لوندرة بتاريخ ٦ يوليو ١٨٢٧ وكان أساسا لواقعة ناوارين الشهيرة[٩٣].

- الرابع وهو استعانة الدولة العلية بمحمد علي باشا لمعاونتها في إخماد الثورة، حيث كان هذا الأخير قد نجح منذ توليه في أن يؤسس جيشا وأسطولا قويا فأجاب طلب

---

[٩٢] نفس المصدر، ص ٥٤.

[٩٣] وهي الواقعة الشهيرة في التاريخ والتي تم فيها إغراق الأسطول المصري من قبل أساطيل الدول الثلاث بالرغم من حالة الهدنة، طالع نفس المصدر، ص ٧٠.

الدولة وأتم تجهيزات بعثته العسكرية بقيادة ابنه إبراهيم باشا في ٩ يوليو ١٨٢٤ "وكان الأسطول المصري مركبا من ثلاث وستين مركبا حربية عظيمة ومن ثمانية آلاف جندي مصري من خيرة الرجال، وكان مع الأسطول والجيش ذخيرة سنتين كاملتين"[٩٤]، وقد أتى المصريون في بلاد اليونان من الأعمال الجليلة ما يخلده لهم التاريخ وما يحق لمصر أن تفتخر به في كل آن وفي كل زمان (..) فقد هزم المصريون اليونانيين شر هزيمة واستولوا على كل بلادهم حتى ارتفعت أصوات أنصار اليونان في أوروبا"[٩٥]، وما وقع بعد ذلك في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ في مياه ناوارين من تدمير ثلاثي (إنجليزي/ روسي/ فرنسي) للأسطول المصري في وقت هدنة، ومحاولة الوقيعة بين الضحية المصرية وبين الدولة العلية هو أمر مشهور وذا دلالة.

---

[٩٤] نفس المصدر، ص ٦٩.

[٩٥] نفس المصدر، ص ٦٨ – ٦٩، وحول تفاصيل الدور المصري في ثورة اليونان طالع: محمد أحمد حسونة، إبراهيم باشا في بلاد اليونان، في إطار: الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، ذكرى البطل الفاتح إبراهيم باشا ١٨٤٨ – ١٩٤٨، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٨، ص ٣٣ – ٧٧.

مسئلة الشام بين مصر والدولة العلية:

وهي الأزمة التي وصفها مصطفى كامل بأنها "الأزمة التي إذا تذكرها العثمانيون والمسلمون امتلأوا حسرة وأسفا أكثر من كل أزمة سواها لأنها أعظم شقاق وقع بين التابع والمتبوع وبين مصر والدولة العلية أي بين قلب الخلافة الإسلامية وهذه الخلافة نفسها وبين روح المملكة العثمانية وهذه المملكة"، ويعتبرها أيضا "نذيرا بأن الشقاق بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله وعلى أعضائه عضوا عضوا بالمصائب العظام والبلايا الجسام"[٩٦].

ويمكننا أن نلاحظ في تلك الأزمة ما يلي:

[٩٦] مصطفى كامل، المسئلة الشرقية، مصدر سابق، ص ٨٧.

- أولا أن السؤال الذي يتبادر للذهن للوهلة الأولى هو: ما علاقة مسألة الشام، والتي كانت بين مصر والدولة العلية بالمسألة الشرقية؟ فشأن الأزمة هو شأن داخلي ف "محمد علي باشا كان يعمل لتوسيع نطاق ملكه وكان مولعا بأن يتولى إمارة مصر والشام لتتم له الكلمة في الشرق وفي البحر المتوسط، وكأنه رأى ما رآه قبله نابليون من أن صاحب مصر لا يهنأ له عيش ولا تكمل له سعادة بغير الشام، وكذلك صاحب الشام لا تؤيد إمارته ولا تقوى سلطته إلا باستلامه زمام أمور مصر فطمح لذلك مؤسس العائلة الخديوية بجعل الشام تحت حكمه وانتهز فرصة رفض والي عكا قبول طلبه بإرجاع المصريين المهاجرين من مصر إلى وطنهم لفتح الشام وتحقيق أمانيه، ومما سهل عليه ذلك علمه بارتباك أحوال الدولة عندئذ واشتغال المرحوم السلطان محمود الثاني بتنظيم جيش جديد"[٩٧].

[٩٧] نفس المصدر، ص ١٠٢.

- السؤال الآخر الذي ناقشه الكتاب: هل كان محمد علي باشا يؤمل القبض على زمام الخلافة الإسلامية والسلطنة العثمانية والجلوس على أريكة آل عثمان؟ وهو ما رأى نفيه نفيا قاطعا وحجته في ذلك ما كان يتمتع به محمد علي من ذكاء وفكر وبصيرة تمنعه من التفكير في "هذا الأمل المستحيل"، ويرى سنده في هذا الرأي رسائله إلى لويس فيليب ملك فرنسا التي تثبت أن غاية أمانيه كانت الاستيلاء على الشام[٩٨].
- الغريب في الأمر أن الدولة العلية هي التي جعلت مسألة الشام تدخل في باب "المسألة الشرقية"، إذ اضطرت للاستنصار بالدول الأوروبية لما ووجهت بالانتصارات المتوالية للجيش المصري الذي كان يقوده إبراهيم باشا على الجيش العثماني ووصوله إلى كوتاهية في آسيا الوسطى*، وكانت روسيا أول من تطوع

---

[٩٨] نفس المصدر، ص ١٠٢ – ١٠٣.

* تقع كوتاهية حاليا في تركيا.

بالمساعدة والتوسط والحماية حتى وصل أسطولها إلى مياه البوسفور، الأمر الذي دفع كل من إنجلترا والنمسا وفرنسا إلى التدخل بنفس الأساليب والأغراض التقليدية في المسألة الشرقية، وما زالت تعمل حتى اضطرت محمد علي إلى الرضوخ والاكتفاء بمصر له ولأبنائه من بعده، والخروج من الشام، وتقليل أعداد جيشه إلى ١٨ ألف عسكري وذلك في ١٠ مايو سنة ١٨٤١.

- خرج مصطفى كامل من هذه الأزمة بخلاصة أنه "لا سلامة للدولة العلية ولمصر إلا بالوفاق والاتحاد وقد أدرك هذه الحقيقة المصريون عن بكرة أبيهم (..) وإنه ليجب على كل مصري صادق وعلى كل عثماني يخلص الحب لبلاده أن يحبط أعمال الذين يبثون الدسائس بين مصر والدولة العلية"[٩٩].

[٩٩] نفس المصدر، ص ١٠٤ – ١٠٥.

المسئلة المصرية:

وهي المسئلة التي يمكن أن نلمح في تناول مصطفى كامل لها ثلاثة ملامح:

- الملمح الأول موقفه من مسألة الديون التي اقترضها الخديو إسماعيل: حيث اعتبر أنها "سبب مصائب مصر" حيث أنها "العلة الوحيدة لتداخل الأجانب في شؤون مصر ولتداخل انكلترا على الخصوص في أمورها"، وأن سواس هذا العصر قد أوجدوا قاعدة جديدة لاستعباد الأمم "وهي (أدن تستعبد) فإن اعتماد السياسة الأوروبية في استيلائها على البلاد الأفريقية والآسيوية إنما هو على إقراض أمرائها، فمتى أرادت دولة أن تستعبد أمة وتستولي على بلادها سلطت على أميرها من يحسن له المدنية وزخرفها وتغيير حالة بأحسن منها فإذا كان الأمير ضعيف الرأي قصير النظر في العواقب أو

كان ذا أهواء شريرة أصغى إلى هذه الأقوال المزخرفة واستدان وأثقل عاتق أمته وبلاده بالديون التي تجر وراءها التداخل الأجنبي والاستعباد"[١٠٠].

- الملمح الثاني هو رؤيته للحركة العرابية: التي قدم لحديثه عنها بالقول بأنه "من سوء حظ مصر أن سماسرة الانكليز نجحوا في التفريق بين المصريين وبعضهم فاستحكم الشقاق بين الجراكسة والمصريين في الجيش وبعبارة أخرى بين المصريين وبعضهم لأنه لا يمكن اعتبار الجراكسة الذين قضوا في مصر طول حياتهم واستوطنوا البلاد وتناسلوا فيها أجانب عنها بل هم فيها مصريون لا فرق بينهم وبين سلالة الفراعنة القدماء، ولو كان زال من بين الجراكسة والمصريين سوء التفاهم وعرفوا أنهم كلهم مصريون تجمعهم جامعة الوطن العزيز وأن لبلادهم عدوا طامحا إلى الاستيلاء عليها من عهد بعيد لكانت نجت مصر من الخطر الجسيم

[١٠٠] نفس المصدر، ص ٢١٤.

الذي هي واقعة فيه الآن ولكانت تمت لمصر السعادة والرفاهية والحرية ولكن العداوة استحكمت بين بنيها ففشل أمرهم وذهبت ريحهم وتداخل الأجنبي بينهم وتساقطت على مصر المصائب العديدة وهذا شأن كل أمة يقع الشقاق والتفريق بين أفرادها"[١٠١].

- الملمح الثالث وهو بيت القصيد في هذا الكتاب، وهو المتعلق بموقفه من الاحتلال البريطاني لمصر والذرائع التي تم اختلاقها له، والتي تم اختلاقها لاستمراره وعدم الوفاء بوعد الجلاء السريع، حيث يرى أن الأمر بدأ بازدياد نفوذ انكلترا في مصر في نهاية عهد إسماعيل والذي ازدادت بعده المشاكل في بلادنا وتمهدت لها سبل احتلالها[١٠٢]، وأن السياسة التي اتبعتها انكلترا من أول الحوادث العرابية لآخرها لسياسة كلها غش وخداع وكذب أو كما يقول عنها السياسيون سياسة كلها

[١٠١] نفس المصدر، ص ٢١٦.
[١٠٢] نفس المصدر، ص ٢١٦.

دهاء ومهارة[١٠٣]، وقد رصد وترصد عددا من دعاوى الإنجليز ومؤامراتهم:

- فـ "كما أن الانكليز وجهوا عنايتهم لقتل نفوذ أوروبا في مصر فإنهم عملوا ما في استطاعتهم لتنفير المصريين من الدولة العلية، وهو ما رأى أنها لم يفلحوا فيه[١٠٤].
- إدعاء انكلترا قبل الاحتلال وبعده أن جل أمانيها نقوبة السلطة الخديوية في مصر وتقوية المصريين وجعلهم كفؤا لأن يحكموا بلادهم بأنفسهم[١٠٥].
- تهويل انكلترا لأوروبا بأن المسلمين متعصبون في الدين كلما اقتضت حاجتها، وأن سلامة الأوروبيين في مصر متعلقة بدوام الاحتلال الانكليزي[١٠٦].
- إشاعتها في كل أوروبا أن المصريين قوم لا يصلحون لاستلام زمام أمور بلادهم وليسوا أكفاء لأن يحكموا

---

[١٠٣] نفس المصدر، ص ٢٢٠.
[١٠٤] نفس المصدر، ص ٢٦٣.
[١٠٥] نفس المصدر، ص ٢٦٤.
[١٠٦] نفس المصدر، ص ٢٦٦ – ٢٦٧.

أنفسهم بأنفسهم وأنهم في حاجة لمعونة ومساعدة الاحتلال الانكليزي[١٠٧].

- بعد أن بين خطر الاحتلال البريطاني على السياسة الدولية ختم بالقول بأن "قصارى القول أنه يجب علينا أن نعمل لتقريب ميعاد الجلاء وأن ننشر المعارف في أنحاء البلاد وفي سائر القرى حتى يعرف كل مصري حقوقه وواجباته نحو الوطن والأمة، وحتى لا يعتدي لصوص الحرية على بني الوطن العزيز، وإن الوطني الحقيقي هو الذي يظهر وطنيته في وقت الشدائد ويقول ويعمل بهذا القول: إني لو استطعت أن أغير وجه البسيطة لإنقاذ بلادي لغيرته بلا تردد"[١٠٨].

الصراع الروسي العثماني ومؤتمر برلين وما تلاه

[١٠٧] نفس المصدر، ص ٢٦٧.
[١٠٨] نفس المصدر، ص ٢٨٠.

ويشمل هذا المحور الحديث في أربع أزمات تشمل: حرب القرم، والحرب بين تركيا والروسيا، وما تلاها من مؤتمر برلين، وما يعتبر من نتائج المؤتمر من: المسألة البلغارية والمسألة اليونانية (وهي نتائج مباشرة) والمسألة الأرمنية (وهي نتيجة غير مباشرة):

حرب القرم:

ويتحدث فيها مصطفى كامل على ثلاثة محاور:

- أسباب الحرب: وفيها يذكر أسبابا لافتعال روسيا المشكلات لشن الحرب، الأول: استياء روسيا من حلول إنجلترا بدلا منها في النفوذ لدى الدولة العلية في أعقاب أزمة حرب الشام فـ "عقدت النية على الانتقام من الدولة العلية التي أحلت انكلترا محلها"، الثاني: عمل

السلطان عبد المجيد خان "على إصلاح الدولة وتنظيم إدارتها فأصدر فرمان الكلخانة[١٠٩] الشهير الذي اشتمل على إصلاحات عديدة كانت تكفي لتقويم أحوال الدولة وتقويتها في ظرف قليل من السنين، فساء ذلك القيصر (نيقولا الأول) لأن سياسته كانت تقتضي تقهقر الدولة على الدوام وعدم تمكنها من إصلاح شؤونها وتقويم المعوج في أحوالها، ولذلك أوعز إلى المسيحيين الأرثوذكس في الدولة بمعارضة التنظيمات والعمل على إيقاف تنفيذها"، السبب الثالث فشل مساعي روسيا في إخراج الجبل الأسود من التبعية للدولة، وفشل الثورة التي حرضت عليها حاكم الجبل الأسود، وهي الثورة التي هزمها الجيش العثماني بقيادة عمر باشا، السبب الرابع للحرب هو الخلاف بين الروسيا وفرنسا بشأن الأماكن المقدسة في الشام، حيث أرادت روسيا تسليم مفاتيح الكنائس بأورشليم إلى

[١٠٩] حول الفرمان طالع: عبد الرازق عيسى وعبير حسن، مصدر سابق، الهامش رقم ٢، ص ٢٠٣.

القسس الأرثوذكس (بدلا من الكاثوليك) ليزداد نفوذها في الشرق[١١٠].

- أحداث الحرب: والتي بدأت في ٤ يوليو ١٨٥٣، ودارت في مجملها في المحور الشمالي والشمالي الغربي وعلى محور المضايق البحرية للحروب الروسية العثمانية، وهي الحرب التي ساهمت فيها الجيوش الإنجليزية والفرنسية والإيطالية فضلا عن الجيشين التركي والمصري، ودارت فيها مباحثات ومفاوضات وتحالفات تقام وتنفض انحازت فيها بروسيا لروسيا، وحاولت فيها النمسا أن تأخذ موقفا حياديا وإصلاحيا خوفا على مصالحها في البلقان وأوروبا وانتهت باتفاقية باري في ٣٠ مارس ١٨٥٦.
- نتائج الحرب: يرى مصطفى كامل أن النتيجة الإيجابية الوحيدة التي حصلت عليها الدولة العلية هي بقاء الأماكن المقدسة تحت إدارتها، وفي المقابل فقدت

[١١٠] حول تفاصيل تلك الأسباب طالع: مصطفى كامل، المسئلة الشرقية، مصدر سابق، ص ١١٠ – ١١٢.

المال والرجال وضياع الوقت وخسرت سلطتها المطلقة على مقاطعتي الأفلاق والبغدان، وحصلت في المقابل على امتيازات أثبتت الحوادث أنها لا تفيدها شيئا مذكورا، ومنها تعهد دول أوروبا بضمان استقلال الدولة العلية وسلامتها، واتفاق الدول على اعتبار الدولة العلية دولة أوروبية وقبولها في المجتمع الأوروبي. أما روسيا فقد خرجت في نظره سليمة لم تخسر غير المال والرجال ومعاكسة الدول لها في البحر الأسود معاكسة وقتية. أما الدولة التي استفادت كثيرا من الحرب - رغم عدم اشتراكها فيها عسكريا - فهي بروسيا إذ استمالت روسيا نحوها، وأوجدت عندها كراهية للنمسا، مما جعل روسيا تساعدها في حربها على النمسا عام ١٨٦٦ واستولت - بروسيا - على مقاطعتين نمساويتين، وتمت نتائج الحرب بالنسبة لها بانتصارها على فرنسا عام ١٨٧٠ وتكوين الوحدة الألمانية. أما النمسا فقد خسرت استقلال إيطاليا واستقلال المجر إداريا،

بينما كسبت إنجلترا وفرنسا ازدياد نفوذهما في الآستانة، فاستغلته إنجلترا في إنهاء ثورة سيباي في الهند، واستغلته فرنسا في زيادة نفوذها في الشام بإرسالها جيشا عام ١٨٦٦ بحجة قمع الفتنة بين الموارنة والدروز.

الحرب بين تركيا والروسيا:

ويضمها الفصل الذي عنونه باسم الأزمة الرابعة والذي يتتبع فيه الحوادث من عام ١٨٧٥ إلى عام ١٨٧٨، وإذا كنا قد نوهنا بتلك الأحداث لدى حديثنا حول سياق تطور المسألة الشرقية في حياة مصطفى كامل، فإن من المفيد الإشارة هنا إلى الأسباب التي ذكرها الكتاب:

- أسباب الحرب: كانت أسباب تلك الحرب أولا امتدادا للمكاسب التي تحصلت عليها بروسيا من حرب القرم وما بعدها، وثانيا تقرب النمسا من ألمانيا عدوتها اللدودة طمعا في تعويض ما فقدته بعد حرب القرم على حساب الدولة العلية، واتفاق روسيا وألمانيا والنمسا على العمل سويا بعد انتصار الألمان عام ١٨٧٠، ثالثا سعي روسيا لتغيير شرط حرية الملاحة في البحر الأسود الذي تضمنه اتفاق باريس عام ١٨٥٦، ومن ثم تم عقد مؤتمر في لندن في ١٣ مارس ١٨٧١ أعطى روسيا حرية الملاحة، رابعا اجتهاد روسيا في تهييج أمم البلقان حيث أرسلت من ينشرون مبدأ اتحاد السلافيين تحت راية القيصر ويدعون أقوام البلقان كافة للعصيان باسم الدين الأرثوذكسي ضد الحكومة العثمانية الإسلامية، وكان من مصلحة النمسا أن تهيج البوسنة والهرسك

ضد الدولة العلية أملا في الاستيلاء عليها[١١١]، وهكذا بدأت المشكلة التي انتهت بالحرب على ما بيناه سابقا.

وفي تناوله للأحداث توقف مصطفى كامل عند نقطة ادعاء أعداء الدولة العلية "أنها إذا فتحت بلادا نشرت فيها لجنودها راية السلب والنهب والفتك بأهلها وإذا مرت بأرض خربتها وغيرت معالمها"، وهو ما حرص على أن يتوقف عنده لنفيه من خلال شهادات الكتاب والصحفيين الغربيين أنفسهم[١١٢].

وتعليقا على أحداث الحرب قال مصطفى كامل أن الدولة العلية فقدت في هذه الحرب ما لم تفقده في حرب أخرى (..) فإن الدول الأوروبية كانت كلها ضد الدولة العلية وكانت كل واحدة منها تعمل للاستيلاء على شيء من أملاكها، مرجعا ذلك إلى ثقة الدولة العلية بإنجلترا وخذلان

---

[١١١] نفس المصدر، ص ١٤٢ – ١٤٣.

[١١٢] طالع ما أورده من شهادات في نفس المصدر، ص ١٦٣ – ١٧٢.

الأخيرة لها[١١٣]، وأشار إلى أن بسمارك (السياسي الألماني) كان له الشأن الأول فيما آلت إليه الأمور، وأنه هو الذي خلق أغلب البلايا التي نزلت بالدولة العلية في هذه الأزمة الشديدة[١١٤].

وقد أفرد مصطفى كامل فصلا لـ "ما بعد مؤتمر برلين"، لعرض النتائج المترتبة عليه والتي أسلفنا الحديث حولها، وتناول فيه عدة مسائل تتعلق في أغلبها بالبلقان وبما أوجدته قرارات المؤتمر من طموحات سواء لدى شعوب البلقان المسيحية والقوى الأوروبية المناصرة لها في زيادة أملاكها على حساب ما بقي في عهدة الدولة العلية ومن ذلك رغبة روسيا وسعيها في ضم الروملي الشرقي إلى بلغاريا، ورغبة الجبل الأسود في توسيع ممتلكاتها على حساب أراضي ألبانيا زيادة على ما قرره

[١١٣] طالع رأيه في تأثير ثقة الدولة العلية بإنجلترا في نفس المصدر، ص ١٨٣ – ١٨٥.
[١١٤] حول تقييمه لدور بمسارك في الأزمة طالع نفس المصدر، ص ١٨٦ – ١٨٩.

مؤتمر برلين، ثم سعي اليونان للحصول على بعض أجزاء من ممتلكات الدولة العلية، وقد كانت القوى الأوروبية نصيرة لطلبات روسيا والجبل الأسود واليونان وضد الدولة على طول الخط، الأمر الآخر هو احتلال النمسا للبوسنة والهرسك ومساعدة بسمارك لها على توسيع نفوذها في البلقان وتوطيد علاقاتها مع رومانيا والصرب وبلغاريا، وينتهي الفصل بالحديث حول الاحتلال الفرنسي لتونس بدعم من بسمارك.

المسئلة البلغارية والمسئلة اليونانية:

وهي الأزمة السادسة التي تناولها كامل، وهي امتداد لأحداث ما بعد مؤتمر برلين، وفي هذا الفصل يتناول سعي إنجلترا والنمسا في توطيد نفوذهما في بلغاريا على حساب روسيا، وسعيهما في ضم الروملي الشرقي نهائيا لبلغاريا، وهو ما رضخت

له الدولة العلية عام ١٨٨٥، الأمر الذي فتح شهية الصرب واليونان لتوسيع ممتلكات دولتيهما، ودخلت الصرب في حرب مع بلغاريا رغبة في توسيع دولتها على حساب بلغاريا، لكن الأخيرة انتصرت في حربها وردت الجيش الصربي، أما اليونان فإنها لم تحصل على ما تريد، وأخذت الاستعداد للحرب ضد الدولة العثمانية، وهو ما وقفت ضده الدول الأوروبية خشية هزيمة اليونان عسكريا، ووصل الأمر إلى محاصرة الأساطيل الأوروبية للثغور اليونانية في مايو من عام ١٨٨٦ وهو ما علق عليه مصطفى كامل بقوله، "لا ينس القارئ أن أوروبا كانت تعمل لخير اليونان ومصلحتها فإن الدولة العلية كانت تهزم اليونان شر هزيمة لو كانت أعلنت الحرب، لذلك كان تهديد أوروبا لليونان بمثابة إنقاذ لها من الوقوع في مهواة الخطر والاضمحلال"[١١٥]، بعد ذلك يعود كامل لمتابعة

[١١٥] نفس المصدر، ص ٢٨٨ – ٢٨٩.

تطورات الأحداث في بلغاريا – وذلك وفق منهجه في تتبع الأحداث زمنيا – حيث يتناول الصراع الإنجليزي النمساوي من جهة والروسي من جهة في فرض النفوذ على بلغاريا وتعيين أمير يدين بالولاء لأحد الطرفين، ومحاولة الاستعانة بالدولة العلية للتداخل لصالح طرف على حساب آخر، وفي نهاية الفصل يعلق كامل قائلا بأن "من الأمور المحزنة أن كل أزمة من أزمات المسئلة الشرقية تنتهي بسلخ جزء أو أجزاء من أملاك الدولة العلية، فقد فقدت الدولة في هذه الأزمة الروملي الشرقي وأضاعت نفسي أوقاتها في مخابرات لا نفع فيها ولا جدوى"[١١٦].

المسئلة الأرمنية:

[١١٦] نفس المصدر، ص ٢٩٩.

يتناول مصطفى كامل في هذا الفصل الختامي المسألة الأرمنية من جهة مسئولية إنجلترا ومسئولية الأرمن البروتستانت الذين احتضنتهم عن اشتعالها، ويحلل من وجهة نظره المرامي البعيدة لإنجلترا من إشعال تلك الفتنة قائلا "إن انكلترا عملت بإيجادها للمسئلة الأرمنية على تدمير ملك آل عثمان وضعضعة السلطة الإسلامية وإذلال العثمانيين والمسلمين وإحداث حرب عامة في الغرب وفي الشرق"[١١٧]، ثم يفصل في الدور الإنجليزي ومسئوليته عن الأزمة قائلا "وقد والت انكلترا الأرمن بالتشجيع والتحريض على متابعة الثورة والهيجان وما فتئت ترسل إليهم الذخائر والأسلحة وتحضهم على الاسترسال في التمرد والعصيان فعملوا بتحريضها وتلطخوا بدماء الجرائم والفظائع متسلحين في كل أعمالهم بالأسلحة الانكليزية، ورأى العالم هذه الطائفة التي كانت عائشة في بحبوحة السعادة

[١١٧] نفس المصدر، ص ٣٠٤.

والرفاهية والتي كان يسميها العثمانيون "بالملة الصادقة" والتي لها في مناصب الحكومة والإدارات وفي التجارة والصناعة الشأن الأول تثور ضد الدولة العلية"[١١٨]، وقد سعى كامل من خلال النتائج التي توصلت إليها لجان التحقيق، وما كتبه الغربيون حول الأزمة ومن خلال المعلومات حول تعداد السكان من أرمن ومسلمين وغيرهم في المناطق التي ثار فيها الأرمن للإشارة إلى الرابط بين المسألتين المصرية والأرمنية، ودور السياسي المصري الأرمني "نوبار باشا" والذي كان يسعى من خلال مؤتمر برلين لأن يكون حاكما على أرمينيا، ويعلق كامل على كل ما ذكر من تفاصيل وحقائق بقوله "برهنت الحوادث الأرمنية على أن انكلترا هي عدوة المسيحيين في الشرق، فهي وحدها المسئولة عن دماء الذين ماتوا من الأرمن ضحية لسياستها وفريسة لأغراضها. وإن المسئلة الأرمنية لدرس مفيد

[١١٨] نفس المصدر، ص ٣٠٥.

للمسيحيين في الشرق يرشدهم إلى أن اتباع الإيعازات الأجنبية ضار بهم كل الضرر"[١١٩].

خاتمة:

لا شك أن كتاب "المسئلة الشرقية" كان جزءا من السياق الذي أراد مصطفى كامل تنوير الأذهان بوضعه إطارا لكفاحه في تحقيق مشروعه في الاستقلال والنهضة، وهو بلا شك يستلفت انتباهنا ونحن نعيش المرحلة الانتقالية لما بعد ثورة ٢٥ يناير في مصر إلى ضرورة أخذ السياق الدولي في الاعتبار ونحن نعيد بناء مشروع استقلال ونهضة الوطن، ولا شك أن المسألة الشرقية تمثل جذرا تاريخيا لذلك السياق الدولي الذي نعيشه، والذي علينا أن نعيه ونعي دروسه.

[١١٩] نفس المصدر، ص ٣٤٦.

وبعد أن شهدت مصر ثورة ٢٥ يناير التي توشك أن تضع مصر على أعتاب جمهورية جديدة، تتحرك فيها جميع مؤسسات الدولة ومواردها البشرية والطبيعية ناحية تحقيق أهداف الاستقلال الحقيقي والنهضة والتي طال غيابها مائتي عام ونيف، بعد هذه الثورة علينا أن نتذكر دروس المسألة الشرقية:

- أن الشقاق – كما قال مصطفى كامل - بين أعضاء مجموع واحد يعود على المجموع كله وعلى أعضائه عضوا عضوا بالمصائب العظام والبلايا الجسام، وهو الدرس الحري بأن يتذكره الفرقاء السياسيون في مصر، بألا يكون للشقاق من أجل مصالح ضيقة أولوية على الوفاق من أجل المصلحة العليا للوطن.
- علينا أن نتذكر أن استعانة أحد فرقاء الوطن في أي من مراحل الشقاق بالأجنبي المتربص لن يعود علينا إلا بتأخر تحقق هدفي الاستقلال والنهضة عقودا أخرى.

- علينا أن نتذكر قاعدة استعباد الأمم التي ذكرها مصطفى كامل وهي (أدن تستعبد) فكما قال أنه متى أرادت دولة أن تستعبد أمة وتستولي على بلادها سلطت على أميرها - أو على نخبها - من يحسن له – أو لهم - المدنية وزخرفها وتغيير حالة بأحسن منها فإذا كان الأمير – أو كانت النخبة - ضعيف الرأي قصير النظر في العواقب أو كان ذا أهواء شريرة أصغى إلى هذه الأقوال المزخرفة واستدان وأثقل عاتق أمته وبلاده بالديون التي تجر وراءها التداخل الأجنبي والاستعباد.
- أنه إذا كان الأمر كما قال مصطفى كامل بأنه: لا سلامة للدولة العلية ولمصر إلا بالوفاق والاتحاد (..) وإنه ليجب على كل مصري صادق وعلى كل عثماني يخلص الحب لبلاده أن يحبط أعمال الذين يبثون الدسائس بين مصر والدولة العلية" إذا كان ذلك كذلك فإنه في ظل صيرورة الدولة العلية أثرا بعد عين، فإن على مصر أن تبحث عن أمنها وأمن الإقليم من

خلال علاقات إستراتيجية قوية بدول المنطقة، وأن تحبط أعمال الذين يبثون الدسائس بينها وبين تلك الدول، حتى تستعيد المنطقة عافيتها في ظل دول قوية مستقلة وناهضة.

- أنه إذا كان بث الأمل الذي أراد مصطفى كامل تحقيقه من خلال إصداره للكتاب احتفالا بنصر الدولة العثمانية في حربها على اليونان، إذا كان هذا الأمل ربما يصيبه بعض الفتور من قراءة أحداث الكتاب، إلا أن علينا أن نتذكر أن بث الأمل في النفوس هي أحد المهام الرئيسية التي قام بها مصطفى كامل، والتي نحتاج دائما أن نفعلها مهما كانت الانكسارات، ومهما كانت العقبات، وإن النذر الذي تحقق للشعب المصري في ثورة لم يكن يتوقعها أكثر المتفائلين بالشكل الذي حدث، إن نصر هذه الثورة وغيرها من الثورات العربية (ثورتي تونس وليبيا).

وأخيرا فإن علينا أن نتذكر أن الوعي بالتاريخ ودروسه وعبره، وتجلياته المتمثلة في الوعي بالذات الحضارية في أبعادها الجغرافية والتاريخية والثقافية، والوعي بامتدادات هذا التاريخ في حاضرنا وتأثيره على مستقبلنا، كل ذلك جميعا - وهي الخلاصة الأساسية من تسطير مصطفى كامل لهذا الكتاب - هو من أهم دعائم بناء عقل ووجدان الإنسان الذي تتعلق به آمال الأمة في الاستقلال والنهضة.

كتاب

طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

لعبد الرحمن الكواكبي

١٩٠٢م

"أقول وأنا مسلم عربي مضطر للاكتتام شأن الضعيف الصادع بالأمر، المعلن رأيه تحت سماء الشرق، (..) إنني في سنة ثماني عشرة وثلاثمائة وألف هجرية هجرت دياري سرحا في الشرق، فزرت مصر واتخذتها لي مركزا أرجع إليه مغتنما عهد الحرية فيها (..) فوجدت أفكار سراة القوم في مصر كما هي في سائر الشرق خائضة عباب البحث في المسألة الكبرى، أعني المسألة الاجتماعية في الشرق عموما وفي المسلمين خصوصا، إنما هم كسائر الباحثين، كل يذهب مذهبا في سبب الانحطاط وفي ما هو الداء، وحيث إني قد تمحص عندي أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية، وقد استقر فكري على ذلك، كما أن لكل نبأ مستقرا، بعد بحث ثلاثين عاما ... بحثا أظنه كاد يشمل كل ما يخطر على البال من سبب يتوهم فيه الباحث عند النظرة الأولى، أنه ظفر بأصل الداء أو بأهم أصوله، ولكن لا يلبث أن يكشف له

التدقيق أنه لم يظفر بشيء، أو أن ذلك فرع لأصل، أو هو نتيجة لا وسيلة"[١٢٠]

هكذا تكلم عبد الرحمن الكواكبي (١٢٧٠ - ١٣٢٠ هـ/١٨٥٤ - ١٩٠٢ م) في تمهيده لكتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" كاشفا عن السؤال أو المعضلة التي شغلت باله ثلاثين عاما، وشغلت بال علماء الأمة وقادتها أفرادا وجماعات ولا زالت تشغل بالهم بعد مرور أكثر من مائة عام، كل يراها من زاويته ومن جهته ووفق تكوينه وظروف زمانه العام منها والخاص، وهو السؤال/ المعضلة الذي حاول أن يجيب عليه في كتابه هذا تشخيصا للمرض، مرض الأمة الإسلامية الذي أوهنها وأضعفها ووصل بها إلى درك الانحطاط كما عبر، وذكر فيه ما رآه من أعراضه وطرق

[١٢٠] عبد الرحمن الكواكبي، الأعمال الكاملة للكواكبي، دراسة وتحقيق: محمد جمال طحان، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة التراث القومي، بيروت، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧، ص ٤٣٠.

علاجه، وهو التشخيص الذي كان له ما يبرره من ظروف زمانه ومكانه العام منها والخاص.

١- الأوضاع والأفكار العامة في عصر الكواكبي

إذا كان الكواكبي قد شخص الحالة التي كانت عليها الأمة في زمانه بأنها حالة من "الانحطاط" أو "الفتور العام"، فإن هذا الفتور العام كان قد أدى على مر الزمان وبتقادم عمر الدولة العثمانية التي عاش في ظلها إلى ما سمي وقتها بـ "المسألة الشرقية" والتي كانت تعني مسألة "النزاع القائم بين بعض دول أوروبا وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها، وبعبارة أخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها في أوروبا"[١٢١]. ويمكننا أن نشبه تلك الحالة بما شبه به الرسول أمثالها من حالات الأمة التي تصير فيها كـ "القصعة" التي

[١٢١] - عبد الرازق عيسى وعبير حسن، المؤلفات الكاملة لمصطفى باشا كامل، الجزء الأول، المسئلة الشرقية، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٩٧.

يتداعى الأكلة من الدول الأوروبية إليها باعتبارها "رجل أوروبا المريض"[١٢٢]، ويمكننا أن نعتبر وضع الانحطاط والفتور العام في الأمة والدولة، ومن ثم استضعاف الدولة العثمانية هذا "نتيجة" لعدد من العوامل التي أدت على مر الزمان إلى غلبة عوامل الضعف لدى الدولة العثمانية والأمة الإسلامية على عوامل القوة فيها، وذلك في مقابل تصاعد عوامل القوة لدى البلدان الأوروبية وتضاؤل عوامل الضعف فيها[١٢٣]، وفي نفس الوقت يمكننا أن نعتبر تداعي الأكلة الأوروبيين على القصعة العثمانية أيضا "سببا مغذيا" أدى إلى تضاعف عوامل الضعف والانحطاط والفتور صعودا من القرن الثامن عشر إلى

---

[١٢٢] - أطلقت هذه التسمية اول ما أطلقت في المجال الدبلوماسي – الأوروبي- المغلق وعلى أعلى المستويات، ولكن لم تمض سنوات ذات عدد حتى أذيعت هذه التسمية وأشباهها وما أحاط بها من ملابسات في الخمسينيات من القرن التاسع عشر، ووقف عليها الرأي العام البريطاني، ثم انتقلت إلى سائر البلاد الأوروبية، وتلقفها المؤرخون والباحثون ورجال السياسة المتحاملون، واتخذوا منها مادة للتشهير بالدولة العثمانية، وسواء كان هذا التوجه بإيعاز من حكومات بعض الدول الأوروبية، أو جاءت كتاباتهم بوحي من تفكيرهم وحقدهم، فقد كان الهدف هو النيل من الدولة، والإعداد المسبق لدى الشعوب الأوروبية بأن سقوط الدولة العثمانية أمر وشيك وأن نهايتها السريعة آتية لا ريب. حول هذه التسمية وملابساتها أنظر: عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٤، الجزء الثاني، الفصل الرابع، ص ص ١٢٣- ١٤٨.

[١٢٣] - حول عوامل الضعف والقوة وأسباب الانهيار طالع: سيد محمد السيد محمود، انهيار الدولة العثمانية- الأسباب، القاهرة، مكتبة الآداب، ٢٠٠٣.

القرن التاسع عشر، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انهيار الدولة العثمانية في الربع الأول من القرن العشرين ككيان سياسي حارس وجامع لمعظم أقاليم العالم الإسلامي، وفي السطور التالية سوف نتناول بإيجاز يقتضيه موضوع المقدمة تجليات تلك الحالة على الأوضاع العامة داخل الدولة، وانعكاسات تلك الأوضاع على الأفكار، مع التركيز على الأوضاع والأفكار في فترة حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ – ١٣٢٧ هـ/١٨٧٦- ١٩٠٩ م) وهي الفترة التي عاش فيها الكواكبي نشاطه العام ونضجه وإنتاجه الفكري.

١-١: المسألة الشرقية:

تجلى ما عرف بـ"المسألة الشرقية" في مظهرين أساسيين:

أ- سعي الدول الأوروبية الاستعمارية - وعلى وجه الخصوص روسيا وبريطانيا وفرنسا والنمسا وإيطاليا- إلى تقليص رقعة

الأراضي الواقعة تحت حكم الدولة العثمانية، إن لم يكن إلى تفكيك الدولة ككل، وذلك من خلال دفع الدولة إلى سلسلة متلاحقة من الحروب لا تفيق من إحداها حتى تقع في الأخرى، ومن خلال افتعال الأزمات في أقاليم الدولة سعيا لفرض الحماية ومن ثم الاحتلال العسكري لبعضها (مثلما حدث من احتلال لمصر والجزائر وتونس)، ومن خلال دفع الدولة إلى عقد عدد من الاتفاقيات وتوقيع عدد من المعاهدات التي تتنازل فيها عن بعض أو كل سيادتها على أقاليم أخرى (كاليونان والقرم)[١٢٤].

ب- تأليب الدول الأوروبية الاستعمارية للأقليات المسيحية في أقاليم الدولة العثمانية للقيام بثورات وإحداث اضطرابات والاعتداء على المسلمين في تلك الأقاليم، مما يؤجج الصراعات

[١٢٤] - طالع نماذج من تلك السياسات الأوروبية في: عبد الرازق عيسى وعبير حسن، م س ذ، الفصل الخاص بالمسألة الشرقية في القرن الثامن عشر، ص ص ١١٣- ١٣٢، وحرب القرم، ص ص ٢٠٣- ٢٢٥، والحرب بين تركيا والروسيا وما قبلها وما بعدها من عام ١٩٨٥ إلى عام ١٨٨٧، ص ص ٢٢٧- ٢٨١.

الدينية فيها، وهو ما ينتهي إما باستقلال تلك الأقاليم (كما حدث في أقاليم البلقان)، أو اضطرار الدولة إلى التغاضي عن الرد الشعبي الإسلامي على استفزازات تلك الأقليات، أو قيام سلطات الدولة بالرد بنفسها على تلك الاستفزازات باستعمال العنف (كما حدث مع الأرمن)، أو أن ينتهي الأمر بتكريس أوضاع تمييزية لصالح تلك الأقليات الواقعة تحت الحماية الأوروبية (كما حدث في لبنان)[١٢٥].

١-٢: الدولة العثمانية إشكالات وإصلاحات:

وإذا كان للفتور العام أسبابه الخارجية التي أشرنا إليها في المسألة الشرقية والتي ساهمت في مضاعفة أعراضه -والتي لم يتعرض لها الكواكبي في كتابه أم القرى الذي محص وبحث

[١٢٥] - طالع نماذج من سياسة تأليب الأقليات المسيحية في الدولة في: نفس المصدر السابق، حول استقلال اليونان، ص ص ١٣٣- ١٦٠، وحول المسئلة الأرمنية، ص ص ٣٥٣- ٣٨٤. وفي: عبد العزيز محمد الشناوي، م س ذ، الجزء الثالث، الفصل الثاني عشر، مذابح لبنان وامتدادها إلى دمشق سنة ١٨٦٠، ص ص ٢٧٩- ٣١٢، ومذابح الأرمن وقضيتهم، الفصل الثالث عشر، ص ص ٣١٣- ٣٨٨، وقضية الأرمن ومذابحهم، الفصل الرابع عشر، ص ص ٣٨٩- ٤٤٠.

فيه ودقق في أسباب الفتور العام إلا ذكره كنتيجة وليس ذكره كسبب من الأسباب، ومر عليه مرور الكرام في طبائع الاستبداد-، إلا أن له أيضا أسبابه الداخلية والتي تعرض لها الكواكبي في كتاباته، وتعرض لها دارسو الدولة العثمانية فذكروا منها أسبابا من أهمها:

أ- هبوط مستوى معيشة الجماهير العربية[١٢٦]: والذي يعزى إلى أسباب خارجية منها القديم الذي يتعلق بالاستعمار البرتغالي ومنها الحديث الذي ذكرناه آنفا، وأسباب داخلية منها انكماش موارد خزائن حكومات الولايات العثمانية بسبب الجزية السنوية، وما يسمى بمعتادات الآستانة[١٢٧]، وتزايد الإنفاق العسكري، وكثرة قدوم القابجية والططرية[١٢٨]، والتكاليف

[١٢٦] - للتفاصيل حول هذا العيب طالع: عبد العزيز محمد الشناوي، م س ذ، الجزء الثالث، الفصل العاشر، ص ص ٢٤٧- ٢٧١.

[١٢٧] - وتشمل أنواعا من الهدايا الشخصية للسلطان وزوجاته وأولاده وكبار رجال الباب العالي، طالع في هذا البند المصدر السابق، ص ٢٥٣.

[١٢٨] - القابجية مفردها قابجي هو رسول من الباب العالي يسافر بحرا ويعد له استقبال حافل، والططرية مفردها ططري وهو\رسول من الباب العالي يصل برا ويعد له استقبال حافل أيضا، طالع نفس المصدر، هامش رقم ٢، وهامش رقم ٣، ص ٢٥٤.

المالية لولاة الإقليم وحاشيتهم، وزيادة اعتمادات الحرمين الشريفين، وتقاعس الدولة العثمانية عن تنفيذ مشروعات عامة للحفاظ على المرافق العامة القديمة.

ب- تعثر الحياة الدستورية: "مضت الدولة العثمانية في مسيرتها الحضارية وتوسعها الإقليمي في أوروبا وآسيا وإفريقية حتى إذا جاء الربع الأخير من القرن التاسع عشر أرادت الدولة أن تساير ركب الدول الأوروبية المتحضرة فأصدرت "مشروطية" أي دستورا في سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦ م على عهد السلطان عبد الحميد الثاني"[١٢٩]. لكن هذه الخطوة كانت قد سبقتها محاولات منذ بدايات القرن التاسع عشر لتوسيع رقعة المشاركة في اتخاذ القرار المتصل بشئون الحكم

[١٢٩] - ومعنى المشروطية أن الحكم في الدولة ليس فرديا ولا مطلقا، وإنما مشروط بقيود وحدود يعينها ويقررها الدستور، طالع: عبد العزيز محمد الشناوي، م س ذ، الجزء الرابع، ص ٢٣.

والإدارة[١٣٠]. ومن ثم فقد كان صدور ذلك الدستور امتدادا لمشروعات الإصلاح التي شهدتها الدولة خلال القرن التاسع عشر وعرفت باسم " التنظيمات الخيرية" نتيجة جهود بعض رجال الدولة المستنيرين حيث تمكن فريق من الأحرار من ترويج فكرة الحكم الدستوري، وكللت جهودهم بالنجاح حين أمر السلطان بتشكيل لجنة لوضع مشروع الدستور برئاسة مدحت باشا (١٢٣٧ - ١٣٠١ هـ/ ١٨٢٢ - ١٨٨٤ م)

---

[١٣٠] - أول تلك الخطوات كان صدور سند-ى اتفاق في أوائل عهد السلطان محمود الثاني عام ١٨٠٨ والذي كان ناتجا عن عقد اجتماع للأعيان والدره بكوات (أي أمراء الوديان) في الأناضول والأقاليم الأوروبية عرف باسم المجلس الاستشاري العام وكان يهدف إلى إعادة تنظيم العلاقات بين الحكومة المركزية والأقاليم خاصة في الجوانب العسكرية والمالية والسياسية بما يحقق تماسك الدولة وتقويتها، لكن هذا الاتفاق لم يعش طويلا، حيث لقي الصدر الأعظم مصطفى الذي رأس الاجتماع حتفه، واستطاع السلطان محمود إخضاع الأعيان والدره بكوات، وجعل الولايات الأوروبية خاضعة لحكومة مركزية قوية، حول الاتفاق طالع، نفس المصدر السابق، ص ٢٣-٢٧. وفي عهد السلطان عبد المجيد الأول (١٨٣٩- ١٨٦١) صدر مرسومان سلطانيان إصلاحيان، الأول هو خط-ى شريف-ى جلخانة وصدر سنة ١٨٣٩، والثاني هو خط-ى همايون-ى وصدر عام ١٨٥٦، وينظر لهذين المرسومين على أنهما وثيقتين دستوريتين تأسيسا على أنهما اشتملا على مبادئ عامة في الحكم والإدارة، مثل إعلان المساواة بين جميع رعايا الدولةأمام القانون بغض النظر عن أجناسهم ودياناتهم، والمساواة في الحقوق والضرائب، ومنح الجميع حرية إقامة الشعائر الدينية، ومنع العقوبات البدنية، وغير ذلك وفي عام ١٨٤٥ قام نفس السلطان بأول تجربة نيابية كانت الأولى من نوعها في الدولة العثمانية حيث أنشأ مجلس أعيان الولايات ويتكون من عضوية من كل ولاية يختاران من بين المستنيرين وأصحاب المعرفة الملمين بمطالب الرخاء وطبائع السكان، وتتحمل حكومة كل ولاية نفقات سفرهما، ولما وصل النواب وزعت عليهم منشورات توضح أهداف استدعائهم وتطلب من كل منهم أن يعبر عن وجهة نظره فيما يختص بالأوضاع السائدة في الدولة والإصلاحات التي يقترحون إدخالها، فداخل الأعضاء الشك واختلط عليهم الأمر وباءت التجربة بالفشل (حول المرسومين والمجلس أنظر نفس المصدر السابق، ص ص ٢٧-٢٩)، وقي عهد السلطان عبد العزيز تكون مجلس شوري-ي دولت أو شورى الدولة عام ١٨٧٦، وكان ينقسم لعشر إدارات، ويرشح حكام الأقاليم أعضاءه من المسلمين وغيرهم، ويختار مجلس الوزراء من المرشحين ويصدر فرمان بتعيينهم، وكان للمجلس اختصاصات استشارية وقانونية، ويعد مشروعات القوانين التي تريد الحكومة إصدارها، ويبدي الرأي للوزارات في القوانين واللوائح المعمول بها (حول المجلس انظر نفس المصدر، ص ص ٢٩-٣٠)

رئيس مجلس شورى الدولة، انتهت إلى وضع هيكل للنظام البرلماني يقوم على مجلسين: مجلس للشيوخ يطلق عليه "مجلس الأعيان"، ومجلس للنواب يطلق عليه "مجلس المبعوثان".

وقد كانت نفوس المثقفين من رعايا الدولة مهيأة لتقبل أفكار الحكم الدستوري، نتيجة لـ:

- تسرب الأفكار حول الحياة الدستورية في الغرب من خلال العديد من كتابات عدد من رعايا الدولة، ومنها كتاب رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) "تخليص الإبريز في تلخيص باريس" والذي ترجم إلى التركية عام ١٢٥٥ هـ/ ١٨٣٩ م والذي تناول فيه الحياة الدستورية في فرنسا.
- مناداة عدد من الكتاب الأتراك بالحياة الدستورية وربط بعضهم وهم يكتبون حول تلك الأفكار نداءاتهم بالمبادئ الإسلامية خاصة في آيات الشورى، واشتهر

في هذا الخصوص اسم نامق كمال ١٢٥٦ - ١٣٠٥ هـ/١٨٤٠- ١٨٨٨ م) من خلال كتاباته في جريدة تصوير-ى أفكار أي تنوير الأفكار، والذي اشتهر فيها بكتابة المقالات السياسية، والتي دعا فيها إلى الحياة البرلمانية وربط بينها وبين حقوق الإنسان، وأكد أن الواجب الأول على الحكومة هو تحقيق العدالة واحترام الحقوق السياسية للمواطن، وأكد أن هذه الأفكار التي ترجع إلى الفكر السياسي في إنجلترا وفرنسا مطابقة لمبادئ الشريعة الإسلامية ودلل على أفكاره بآيات الشورى في القرآن الكريم.

- وقوع عدد من الأحداث في أقاليم الدولة العثمانية، كإعلان الباي محمد الصادق للدستور التونسي في عام ١٢٧٧ هـ/ ١٨٦١ م، وإنشاء مجلس شورى النواب في مصر على عهد الخديوي اسماعيل عام ١٢٨٣ هـ/ ١٨٦٦ م، ثم صدور دستور رومانيا في نفس العام.

- نشاط الأمير العثماني المصري مصطفى فاضل وكتابته خطابا مفتوحا بالفرنسية بعنوان "من أمير إلى سلطان" والذي طالب فيه بإدخال النظام الدستوري في الدولة ونعى فيه على أسلوب السلطان في الحكم المطلق، وقد ترجم الخطاب إلى التركية كل من نامق كمال وأبي ضيا توفيق وسعد الله ونشرته جريدة "تصوير-ى أفكار" وقد أثارت تلك الترجمة اهتماما كبيرا في دوائر الأحرار في الدولة العثمانية[١٣١].

إلا أن تلك الحياة الدستورية التي تاقت إليها النفوس لم تدم طويلا حيث أصدر السلطان قرارا بتعطيل الدستور وحل البرلمان في صفر ١٢٩٥ هـ/ فبراير ١٨٧٨ م، والذي استمر تعطيله حتى عام ١٣٢٦ هـ/ ١٩٠٨ م حين قرر السلطان عبد الحميد إعادة العمل بالدستور مرة أخرى[١٣٢]، الأمر الذي أدى إلى تصاعد حالة السخط واتهام نظام الحكم بأنه مطلق

[١٣١] - حول العوامل التي أحاطت بنشأة الحياة الدستورية في الدولة العثمانية طالع: نفس المصدر السابق، ص ص ٣٠- ٥٣.
[١٣٢] حول مراحل الحياة الدستورية في الدولة العثمانية طالع الفصل الثاني من نفس المصدر، ص ص ٥٥- ٩٢.

وشمولي، ومرتبط بإرادة السلطان، وهو ما أدى إلى المزيد من التطلع "للشورى الدستورية" كما عبر الكواكبي في كتاباته.

ج- عيوب أخرى في الدولة العثمانية: وقد عرفت الدولة العثمانية عددا آخر من العيوب منها، الإسراف في الإنفاق العسكري، وعدم وجود رصيد بشري من المدنيين الفنيين المهنيين، وعدم تطوير أنظمة الحكم التي وضعتها الدولة في مستهل عهدها، وقصور حركة التنظيمات الخيرية[١٣٣].

١-٣: عصر السلطان عبد الحميد الثاني:

"تولى السلطان عبد الحميد الثاني السلطة في ظروف متناهية في ظلامها وقسوتها، ولم يتردد المؤرخ البريطاني وليم ميلر - وهو من المؤرخين المتحاملين على الدولة وعلى السلطان عبد الحميد بالذات - عن القول بأنه ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل

[١٣٣] - حول تلك العيوب طالع نفس المصدر، الفصل الثالث، ص ص ٩٣-١٠٨.

عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار التي تعرض لها عبد\ الحميد الثاني من يمين ويسار وهو السياسي الداهية"[١٣٤]. وقد "حكم السلطان عبد الحميد الثاني زهاء أربعة وثلاثين عاما (١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ/١٨٦٣-١٩٠٩ م)، فكان من أطول سلاطين الدولة العثمانية حكما، وكان في زمانه ولا يزال ملء الأسماع، ولكنه تعرض لحملات إعلامية شرسة من خصومه السياسيين تناولوا فيها حياته العامة والخاصة بكل نقيصة، فاتهم بأنه السلطان السفاح، والسلطان الأحمر، والسلطان الديكتاتور، والسلطان المنافق الذي كان يتظاهر بالتقوى والصلاح أمام رعاياه (..)، ثم أضاف خصومه إلى كل هذه المثالب أنه نشر في أنحاء الدولة شبكة من الجاسوسية، بلغ عدد أفرادها ثلاثين ألف شخص (..)، وفي غمرة هذه الحملات الإعلامية فسر

[١٣٤] - عبد العزيز محمد الشناوي، م س ذ، الجزء الثاني، ص٣٠٧

الخصوم والحاقدون، ومنهم عرب، كل مشروع إصلاحي تعهده عبد الحميد تفسيرا تعسفيا، ففي رأيهم كان هدفه الخفي والأوحد من بعض هذه المشروعات، هو أن تشتد قبضته على الولايات العثمانية ليحكما بيد من حديد إرضاء لنزعته الاستبدادية"[١٣٥]. والحقيقة أن المتأمل لحال الدولة العثمانية فترة حكم عبد الحميد والمؤامرات التي كانت تحاك لها، والطعنات التي كانت تتلقاها من كل جانب من الداخل والخارج تمهيدا لتفكيكها وتقطيع أوصالها، ربما يدرك السياق الذي لابد من استحضاره بتفاصيله المؤلمة وهو يحكم على فترة حكم الرجل، فمهما كانت نواياه الحسنة وصدق رغبته في الإصلاح، إلا أن هذا السياق التآمري كان ولابد حتما أن يدفعه إلى الريبة والشك فيمن وفيما حوله، ومن ثم إلى العسف حينا والبطش حينا آخر، الذي كان ولابد أن يطال

---

[١٣٥] - نفس المصدر، ص ٢٥٩.

بعض حسني النية، كما أنه كان يرث ميراث دولة عظمى ترهلت أجهزتها وترامت أطرافها، وجاءته المطامع والمطامح فيها من كل جانب، والتي كان بعضها يطلب حقا والبعض الآخر يسعى بمؤامرة، وهو في هذا كله قد ورث نظام حكم اعتاد أن يعتمد على شخص واحد هو شخص السلطان، الذي أحاطت به حاشية لم تكن مبرأة من العيوب، ومن ثم لم تتح للسلطان الظروف الطبيعية لتوسيع قاعدة الحكم وإصلاحه، فانتكست أغلب مشاريعه الإصلاحية، ومن أهمها مشاريع الإصلاح السياسي.

١-٤: الدعوة إلى الجامعة الإسلامية:

في محاولة من السلطان عبد الحميد لإيقاف عجلة الانهيار في الدولة وتحالف عوامل التآكل الداخلية مع عوامل الهدم الخارجية، "وبحكم موقعه كخليفة للمسلمين - قام- بالدعوة

لاستنهاض الهمم، وجذب أفئدة المسلمين في كل أصقاع الأرض إلى شكل من الوحدة الإسلامية والتضامن للوقوف أمام موجات أعداء الإسلام الطامية وتركزت هذه الدعوة حول مصطلح الجامعة الإسلامية التي شكل فيها المحور الرئيسي عاملان هما: الخلافة الإسلامية، والحج إلى بيت الله الحرام. ومد السكك الحديدية، ومنها الخط الحديدي الذي وصل في مراحله الأولى إلى المدينة المنورة، وتقرر أن تكون له توسعات أكثر. وفي مجال سعي عبد الحميد لتحقيق فكرة الجامعة الإسلامية قام بدعم هذين المحورين فنشط الدعاة، وأجرى السلطان باتصالات مع قادة الدول الإسلامية في ذلك الحين، وقام بتشكيل الكتائب المسلحة التي شملت الأعراق المختلفة من عرب وألبان وشراكسة وأكراد وترك وبربر وغيرهم، للدفاع عن حمى الإسلام والخلافة

الإسلامية[١٣٦]، وقد تحمس للفكرة في الشرق الإسلامي زعماؤه الشعبيون وقادته المثقفون، غير أنهم كانوا يرون ضرورة أن تلتزم الخلافة الإسلامية التي تلتف حولها الجامعة الإسلامية بشروط الخلافة الشورية الاختيارية كما حددها الشرع[١٣٧] كما دعا البعض منهم إلى الخلافة الإسلامية والتي يجب برأيهم أن تكون خلافة عربية قائمة على أساس الشورى الدستورية واللامركزية في الحكم ومنهم عبد الرحمن الكواكبي[١٣٨].

---

[١٣٦] علي حسون، العرب والدولة العثمانية، دمشق، دار الرؤية، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ٢٢٥.

[١٣٧] راجع في ذلك كتاب الشيخ محمد رشيد رضا ،الخلافة، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٨، وطالع كذلك: محمد عمارة، الجامعة الإسلامية والفكرة القومية، نموذج مصطفى كامل، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، حيث رصد عددا من التيارات في إطار الجامعة الإسلامية، منها التيار الذي قاده جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وكان يتميز بعدة خصائص منها: الإصلاح الديني من منطلق العقلانية الإسلامية، وجديد الصلات الحضارية مع الغرب واقتباس المناسب منها، والمحافظة على بقاء السلطنة العثمانية من منطلق ضرورة التصدي للعدو الاستعماري الأوروبي، وجعل علاقة الدين والمعتقد بديلا للعلاقات القومية، وعدم إنكار حق الاستقلال الذاتي للشعوب الإسلامية المؤهلة في إطار السلطنة العثمانية، والدعوة إلى توحيد العناصر الوطنية للأقطار الإسلامية بصرف النظر عن العقائد والأديان، وعدم اعتبار الجامعة الإسلامية حركة يواجه فيها إسلام الشرق مسيحية الغرب. ومن هذه التيارات تيار الكواكبي الذي أشرنا إليه في المتن، ومنها تيار مصطفى كامل الذي يمكن أن نعتبره متفقا مع أغلب ما دعا إليه تيار الأفغاني مع تأكيده على المزج بين الوطنية المصرية والجامعة الإسلامية، ومنها التيار العثماني الذي كان يقوده السلطان عبد الحميد الثاني والذي كان يعني بشكل أساسي وحدة العالم الإسلامي في ظلال حكم الدولة العثمانية، وقد سلك عمارة في تيار الجامعة الإسلامية أيضا الحركات الوهابية والسنوسية والإسماعيلية.

[١٣٨] نختلف هنا مع ما وصل إليه الدكتور محمد عمارة في كتابه: عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام" (القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧، ص ص ١٠١- ١٣٥) من أن الكواكبي كان داعية عروبة أو قومية ، بل إن الأدلة من كتبه تشير بجلاء إلى أنه كان داعية لتأسيس الجامعة الإسلامية على أسس جديدة، أي أنه كان يدعو لتغيير أسس الرابطة بين المسلمين، لا إلى حلها على أسس قومية عرقية. طالع حول موقف الكواكبي من حركة الجامعة الإسلامية: عبد العزيز محمد الشناوي، م س ذ، الجزء الثالث، الفصل الرابع بعنوان: الكواكبي ودعم حركة الجامعة الإسلامية العربية، ص ص ٨٩-١٢٩.

٢- الكواكبي: رحلة الخبرات والأفكار

٢-١: المولد والنشأة والتكوين:

ولد عبد الرحمن الكواكبي بحلب[١٣٩] يوم ٢٣ شوال سنة ١٢٧١ هـ - ٩ يوليو ١٨٥٤م ويقول المؤرخون أن والده أحمد بهائي بن محمد بن مسعود الكواكبي يرقى نسبه إلى علي بن أبي طالب، وقد كان حجة في علم الفرائض (الميراث) وأمينا للفتوى في ولاية حلب مدة من الزمن، وعضوا بمجلس إدارة الولاية، وقاضيا لها، ومستودع سر الناس ومحرر عقودهم وصكوك معاملاتهم، ثم خطيبا وإماما في مسجد جده أبي يحيى الكواكبي، ومديرا ومدرسا بالمدرسة الكواكبية، والمدرسة الشرفية، والجامع الأموي بحلب، إضافة

[١٣٩] - كانت حلب الشهباء مركز الولاية العثمانية المسماة باسمها والتي تشكلت عام ١٨٦٦ وكانت تتألف من ثلاثة ألوية: اللواء الأول، وهو القسم الشمالي من سورية، ويشمل حلب وما جاورها من الأقضية والقرى، واللواء الثاني، وهو القسم الجنوبي من آسيا الصغرى، ويشمل مرعش وما جاورها، واللواء الثالث، وهو أورفة ويدعى قديما الرها. طالع: عائشة الدباغ، الحركة الفكرية في حلب في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، حلب، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، الطبعة الثانية، ٢٠٠٧، ص ١٥.

إلى ذلك فقد كان في أسرته لأبيه نقابة الأشراف في حلب، أما أمه فهي السيدة عفيفة بنت مسعود آل النقيب، كان أبوها مفتيا لأنطاكية، ويعود نسبها إلى محمد الباقر بن علي زين العابدين[١٤٠].

كانت حلب وقت ولادة الكواكبي مركز ولاية عثمانية مسماة باسمها يقطنها حوالي مائة ألف من السكان ثلثاهم من المسلمين، والباقي من المسيحيين واليهود، يتحدث أهلها العربية المختلطة ببعض الألفاظ التركية، مع معرفة البعض منهم للفارسية، وإن كان لأهلها عاداتهم وتقاليدهم الشرقية، إلا أن العادات والتقاليد الغربية كانت قد بدأت في التسرب إلى بعضهم خاصة من المسيحيين الذين خالطوا الأجانب المقيمين بها والذين كان أغلبيتهم من الفرنسيين والطليان، حيث كانت

[١٤٠] المعلومات حول مولد وأسرة الكواكبي نقلا عن: محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، القاهرة، دار الشروق، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧، ص ص ٧٣- ٧٦. وسامي الدهان، عبد الرحمن الكواكبي ١٨٥٤- ١٩٠٢، القاهرة، دار المعارف، سلسلة نوابغ العرب ٢٣، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤، ص ص ١٢-١٦. ويمكن الاطلاع على مزيد من المعلومات فيهما.

حلب مركزا تجاريا عظيما لوقوعها كنقطة هامة في طرق المواصلات مع أوروبا، ومحطة كبرى للطرق الداخلية، وهو المركز الذي تضرر كثيرا بافتتاح قناة السويس عام ١٢٨٦ هـ/ ١٨٦٨ م وقد تضرر أيضا نتيجة لسوء الإدارة العثمانية وإصابة حلب بالأوبئة المتكررة والزلازل[١٤١].

وعندما بلغ عبد الرحمن السادسة من عمره توفيت أمه "فأرسله أبوه إلى خالته السيدة صفية بنت مسعود النقيب (..) وكانت مشهورة بين أترابها، تجيد القراءة والكتابة والخط (..) وكانت على ذكاء واسع فلبث عندها ثلاث سنوات، تعلم خلالها اللغة التركية، وتابع دروسه في القراءة والكتابة. وعاد بعد ذلك إلى حلب في كفالة والده فعني به عناية بالغة، وأرسله إلى مدرسة الشيخ طاهر الكلزي (..) فتعلم العربية والتركية والفارسية. ولكنه لم يلبث أن سافر إلى أنطاكية سنة ١٨٦٤ وقد بلغ

[١٤١] - طالع حول حلب زمن الكواكبي وأحوالها العامة، عائشة الدباغ، م س ذ، ص ص ١٣- ٧٣.

العاشرة من عمره وأصبح يدرك الأشياء وصورها فتأثر بجمال هذه المدينة وفيها الشلالات والبساتين والحدائق الواسعة (..) وفي المدينة داوم على مدرسة خصوصية من أساتيذها بعض أنسبائه لأمه كالعلامة عبد الرحمن العلبي، عضو شورى الدولة، والسيد نجيب النقيب عم والدته، وكلاهما مشهوران لعصرهما، فقد عين الخديو توفيق ثانيهما أستاذا خاصا لابنه عباس حلمي، وبعد سنة مكثها في أنطاكية عاد إلى حلب فأدخله والده في المدرسة الكواكبية (..) فتعلم فيها علوم الدين والعربية، وكان من أساتيذه فيها الشيخ عبد القادر الحيال، والشيخ محمد علي الكحيل أمين الفتوى بحلب وغيرهما من فحول العلماء، وتلقى العلوم العصرية على يد الأستاذ خورشيد، وهو من أدباء الأتراك المشهورين، فأتقن التركية والفارسية تكلما وكتابة. (..) وكان الفتى يجنح إلى القراءة في العلوم الرياضية والطبيعية، ويكثر من المطالعة والمراجعة، وكانت صحف إستانبول تصل

إلى حلب وفيها خير المترجمات عن الغرب، حتى قيل إنه أصبح موسوعة في معارفها وكان ضليعا فيها، فراح يعب منها حتى قوي عوده واستقام لسانه، واتسع أفقه حين بلغ سن الشباب وزحف نحو العشرين من سنيه، يعيش في وسط ثقافي رفيع، من حوله أبوه وأهله وهم علماء أدباء، وصلحاء فقهاء، وعلى مقربة من المدرسة الكواكبية وكانت مصنعا لكثير من شيوخ العصر تعلموا فيها وأخذوا عن أساتيذها، فسار على سنة من قبله وبلغ إلى ما بلغوا إليه من ثقافة ورفعة وقوة"[١٤٢]. "وقد اتصل عبد الرحمن "بالغرب وآراء الغرب بواسطة الجرائد التركية، التي كانت تصل حلب وغيرها، جهرا حينا وسرا حينا آخر، وهنا بدأ هذا الشاب العبقري يعاني الأزمات الفكرية التي رافقته طوال حياته، فقد أدرك معنى الحرية في زمن كان فيه عبد الحميد سلطان تركية

[١٤٢] سامي الدهان، م س ذ، ص ص ١٧- ١٩.

والإمبراطورية (١٢٩٣ - ١٣٢٧ هـ/١٨٧٦ - ١٩٠٩ م) ورأى ما يعانيه أبناء بلاده وقومه"[١٤٣]. إذا فقد تكون عبد الرحمن الكواكبي تكوينا دينيا تقليديا لكنه ذا أفق واسع إذ أتيح له تعلم ثلاث لغات العربية والتركية والفارسية، إضافة إلى العلوم الدينية، كما أنه ألم بثقافة حديثة من خلال مطالعته للآراء والأفكار الغربية وأفكار الأتراك المطالبين بالحرية والدستور والتي كانت تنقلها إليه الصحف التركية، واختلطت تلك العلوم والثقافة بنفس تشربت بإباء وشمم الحسب والنسب والعلم المتوارث مع حمية وانطلاقة الشباب وميله المعتاد إلى المثاليات من الأفكار.

وقد عاصر الكواكبي عددا من مفكري وأدباء حلب الذين كان أغلبهم من المسيحيين، وقد تعامل مع بعضهم ومنهم:

---

[١٤٣] نقولا زيادة، أعلام عرب محدثون من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، بيروت، الأهلية للنشر والتوزيع، ١٩٩٤، ص ٨٨، وقد أشرنا إلى ملابسات وظروف حكم عبد الحميد الصعبة فيما سبق، والتي تبرر ما عزي إلى حكمه من انتقادات، لكن المؤرخين العرب لم يراعوا تلك الظروف في تقييمهم لحكمه.

* **جبرائيل دلال** (١٢٥٢ - ١٣٠٩ هـ/١٨٣٦- ١٨٩٢ م): كان متمكنا من الجغرافيا والتاريخ، مولعا بالغناء والموسيقى والتصوير متقنا للفرنسية والإيطالية والتركية تنقل في بلاد كثيرة، تولى جريدة الصدى التي كانت تصدرها وزارة المعارف الفرنسية، وأنشأ جريدة السلام في القسطنطينية، ودرس العربية في فيينا، ثم عاد وتولى التدريس في المكتب الإعدادي في حلب، له قصيدة العرش والهيكل، وديوان شعر، ورسالة في التاريخ العام، ورسائل لغوية مختلفة.

* **ميخائيل صقال** (١٢٦٨ - ١٣٥٦ هـ/١٨٥٢- ١٩٣٧ م): شاعر مجيد طويل النفس من طليعة أهل الأدب، عمل بالتدريس والمحاماة، ارتحل إلى مصر سنة ١٨٩٦ وأصدر مجلة "الأجيال" المصورة له "كتاب العبر" وديوان شعر، ولطائف السمر في سكان الزهرة والقمر، وطرائف النديم في تاريخ

حلب القديم، ومخطوط في علم التشريح، ورسالة علمية صغيرة في النحل.

* **كامل الغزي** (١٢٦٩ - ١٣٥٢ هـ/١٨٥٣- ١٩٣٣ م): أقرب أصدقاء الكواكبي، نال حصة وافرة من علوم الفقه والحديث واللغة والمنطق والشعر، وسما في الأمور الأدبية والتاريخية، تولى عدة مناصب حكومية كان متسامحا في الدين وعلى اتصال قريب بمسيحيي حلب ألف فيهم "في حقوق أهل الذمة"، كان يرأس جمعية العاديات الحلبية يقوم معها برحلات للتنقيب عن آثار حلب وما جاورها، كان يؤمن بالقومية العربية التي أساسها الرابطة الإسلامية من مؤلفاته "نهر الذهب في تاريخ حلب"، في ٣ أجزاء، و"القول الصريح في

الأدب الصحيح"، و"رسالة في الموسيقى" وغيرها، كما ترجم "إتحاف الأخلاف في أحكام الأوقاف" عن التركية[١٤٤].

٢-٢: الخبرات العملية في حياته:

مر الكواكبي في حياته العملية بثلاثة أطوار: الأول: عمله بالصحافة وقد تقلب فيه بين ثلاث جرائد حلبية واستمر فيه[١٤٥] خمس سنوات.

فما كاد الكواكبي يبلغ العشرين من عمره حتى أصبح محررا غير رسمي لجريدة "فرات" وهي الجريدة الرسمية التي كانت

---

[١٤٤] - حول مفكري وأدباء حلب طالع: عائشة الدباغ، م س ذ، ص ص ١١٧- ١٩٢.

[١٤٥] هناك أخطاء متكررة من سامي الدهان في كتابه في حساب سن الكواكبي في كل مرحلة مقارنة بالتواريخ وذلك حتى وفاة الكواكبي، فعلى حين يقول أن الكواكبي استمر ٥ سنوات في العمل بالصحافة، يقول بأن سنه وقت بداية العمل بالصحافة كانت ٢٢، ووقت بداية مرحلة التوظيف كانت سنه ٢٥ سنة وذلك سنة ١٨٧٩ إذا ربما نستنتج من ذلك أنه بدأ العمل بالصحافة وسنه عشرون عاما حيث يقول في صفحة ١٨ من المصدر أنه قد "اتسع أفقه حين بلغ سن الشباب وزحف نحو العشرين من سنيه..."، على حين يقول أنه في سنة ١٨٨١ انتقل لعمل آخر وكانت سنه ٢٩ سنة، ووفقا لهذا التاريخ ينبغي أن يكون سنه وقتها ٢٧ سنة، ويقول أنه عين رئيسا لغرفة التجارة سنة ١٨٩٢ وكانت سنه ٤٠ سنة، ووفقا لهذا التاريخ يكون سنه وقتها ٣٨ سنة..وهكذا، ويبدو أن هذا الاختلاف راجع لنقل الدهان عن كامل الغزي صديق الكواكبي، دون تمحيص.

تصدرها الحكومة في اللغتين العربية والتركية[١٤٦]، وبعد عام أصبح محررا رسميا لهذه الجريدة نفسها[١٤٧]، ثم راح ينشئ جريدة يحررها سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧ م سماها "الشهباء" بالاشتراك مع هاشم العطار[١٤٨]، وهي أول جريدة عربية صدرت في حلب، وقد اغتبط الناس بهذه الصحيفة وأقبلوا عليها أيما إقبال، غير أنهم لسوء الحظ لم يتمتعوا باستجلاء محاسن هذه البكر الوحيدة سوى أيام قليلة حتى فاجأها القدر بانقضاء الأجل. وكان كامل باشا القبرصي، الصدر الأعظم المشهور،

---

[١٤٦] سامي الدهان، م س ذ، ص ١٩، ويضيف أن هذه الجريدة كان قد أسسها أحمد جودت باشا المؤرخ التركي الشهير سنة ١٨٦٧ للميلاد، حين كان واليا على حلب، وجعلها بعنوان "غدير الفرات" وظلت تصدر سنتين بهذا العنوان، ثم تغير اسمها إلى "فرات" وظلت الجريدة أربعا وأربعين حتى سنة ١٩١١ تصدر في قوة وإبداع، حرر فيها عبد الرحمن الكواكبي، وكامل الغزي، ومحمد الحنيفي، وهم أعلام حلب لعصرهم، فهي من الصحف الفريدة ولا يجري في ميدانها إلا فارس الحلبة.

[١٤٧] - المعلومات التي تشير إليها عائشة الدباغ تخالف ذلك، حيث تقول أن تلك الجريدة الرسمية الأسبوعية التي تأسست عام ١٨٦٧ باللغتين التركية والعربية، لنشر أخبار الولاية وأوامر الحكومة وإعلاناتها والحوادث الداخلية والخارجية وتولى تحريرها زمن تأسيسها في ولاية جودت باشا المؤرخ التركي المشهور مكتوبجي الولاية (رئيس الديوان) حالت بك، وأن الكواكبي قد تولى الترجمة فيها مدة خمس سنوات، ثم أنيطت حوالي سنة ١٨٨٢ بكامل الغزي، وبقيت في عهدته عشرين عاما.عائشة الدباغ، م س ذ، ص ص ٨٠- ٨١.

[١٤٨] - صاحب امتيازها هو هاشم العطار، ثم اشترك فيها ميخائيل الصقال وعبد الرحمن الكواكبي، ظهرت في ١٠ آيار ١٨٧٧: عائشة الدباغ، ص ٨٢، يقول طحان في مقدمته للأعمال الكاملة أن الكواكبي كان يحررها من أولها إلى آخرها، إذ لم يظهر في الأعداد التي بين أيدينا سوى أسماء ستة أشخاص، أولهم مكاتب الجريدة في الشام، والخمسة الباقون لم يكتب كل منهم سوى مرة واحدة فقط، وهم: الحاج مصطفى الأنطاكي، جبرائيل دلال، قسطنطين حمصي، أنطونيوس قندلفت، أحمد وهبي. طالع عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ص ٦٥- ٦٦.

واليا لحلب آنذاك يكره الصحافة والحرية معا، فعاجلها بالتعطيل، ويرى كامل الغزي أن منشأ ذلك تسرع الشاب الكواكبي في الإصلاح، ونقده الكثير الموجه إلى أعمال الوالي وموظفي ولايته مشيرا من طرف خفي إلى استبداد السلطان عبد الحميد وأنانيته المفرطة في تثبيت سلطانه، في حين كانت الصحف الأخرى تكيل المديح للسلطان، ويغالي محرروها في الإغداق عليه بالألقاب والمدائح مما لم ينله قبله ملك أو سلطان، ولذا فقد أغلقت الصحيفة بعد صدور ستة عشر عددا منها، وأنشأ جريدة "الاعتدال" سنة ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩ م[١٤٩] وكانت بامتياز سعيد بن علي شريف وكانت تصدر بالعربية والتركية، فألغاها الوالي جميل باشا شيخ وزراء الدولة العثمانية فيما بعد كما ألغى سلفه كامل باشا الجريدة الأولى، وذلك لأن الشاب تطلع إلى حرية قومه من خلال

[١٤٩] - ٢٥ تموز ١٨٧٩ كما ذكر كل من عائشة الدباغ ومحمد جمال طحان.

الأنهار التي كان يسودها في الصحف، ونادى بآراء غريبة على مثله فأرادت السلطة العثمانية أن توقف هذا التيار، وأن تحول دون جريانه، فسدت كل باب كان يفتحه، وأوصدت كل سبيل كان يلجه، لئلا يسير وراءه شباب غيره، فيصعب الرتق، وتفتح الأذهان لهذا اللون من التفكير، وقد سلخ الشاب خمس سنوات في الصحافة الحلبية يكتب في اللغتين حتى حسن إنشاؤه وسلم بيانه[١٥٠].

غير أنه استمر بعد تلك الفترة في الكتابة لعدد من الصحف العربية منها: صحف "المؤيد" و"المنار" و"العمران" و"القاهرة" و"الأهرام" المصرية، ومنها النجاح والمصباح اللبنانيتين، و"النحلة" العربية التي كانت تصدر في بريطانيا.

[١٥٠] سامي الدهان، م س ذ، ص ص ١٩- ٢٠.

أما الطور الثاني: فهو عمله بالعديد من المناصب الرسمية والوظائف الحرة في حلب وقد استمر فيها إلى أن بلغ الخامسة والأربعين من عمره، أي ما يوازي عشرين عاما، وهي المرحلة التي جلبت عليه الكثير من العداوات وألجأته في النهاية إلى النزوح.

قلنا أن الكواكبي تقلب خلال تلك الفترة في عدد من المناصب الرسمية (بالمعارف[١٥١] والمالية والأشغال العامة[١٥٢] والمطابع والمحاكم[١٥٣] والبلدية[١٥٤]) والوظائف الحرة (المحاماة والتجارة) وخلال عمله الرسمي قام بالعديد من الأعمال والإنجازات، كما اكتسب العديد من العداوات.

---

[١٥١] - تشكلت عام ١٨٨٢ لتخليص الأوقاف من المتسلطين عليها وإنفاق أموالها على مدارس المعارف: عائشة الدباغ، م س ذ، ص ٥٩.

[١٥٢] - تشكلت عام ١٨٨٤ لبناء الجسور والقناطر وتعبيد الطرق وغيرها: نفس المصدر، ص ص ٥٩- ٦٠.

[١٥٣] تشكلت محكمة البداية في حلب عام ١٨٧٨ للفصل في خصومات المدينة وإعادة المحاكمات التي تصدر من الأقضية التابعة، نفس المصدر، ص ٥٦.

[١٥٤] - تشكل مجلسها عام ١٨٦٦ للإشراف على النظافة العامة ومراقبة باعة المأكولات وتحديد امتداد الأبنية، والإنارة، نفس المصدر، ص ٥٨.

وقد أدت تلك المناصب التي تولاها الكواكبي في مراحله الأولى إلى اشتداد عوده، ووقوفه على أعمال الدولة، وارتقائه المناصب واحدا تلو الآخر، وكان فيها جميعا موضع الثقة والإعجاب لعلو ثقافته، وسمو نفسه، وسعة مداركه وحبه لبني وطنه، وسعيه في الإصلاح، واعتقاده بأن الموظف ملك للدولة والأمة، وهو أجير لها، يعمل لخيرها. على أن الثبات في مبادئه، والشجاعة في ثورته ضد الفساد والاستبداد، نبها أنظار السلطة إلى خطره، فاضطر للاستقالة وتفرغ للعمل الخاص في مكتب المحاماة، وخلال عمله بالمحاماة تحول مكتبه إلى ندوة لأعداء الوالي والمتظلمين منه، فكان يتولى تحرير شكاواهم في الوالي إلى السلطان يكتبها بالتركية بلهجة بارعة مثيرة، ولا زالت الشكاوى تترى، ولجان التحقيق تأتي لتحقق فيها حتى عزل الوالي الظالم المرتشي.

خلال مسيرة حياته تلك سار على نهج ذي معلمين، كان فيهما جريئا غير هياب، مندفعا غير متريث، صلبا لا يلين: الأول هو الوقوف في وجه الظلم متمثلا في تحالف الفساد والاستبداد بالكتابة الصحفية و/ أو القانونية، والثاني هو استثمار المناصب التي تولاها في الإصلاح والوقوف ضد الفساد والإفساد في مؤسسات الولاية، وكان هذان المسلكان كفيلين بتأليب العداوات عليه، سواء من قبل ولاة حلب (مثل جميل باشا أو عارف باشا أو عثمان باشا الأعرج الذي خلفه في منصبه) وحاشيتهم وأتباعهم، أو من قبل السلطان الذي كانت تأتيه الوشايات المضادة للكواكبي، أو من قبل المستفيدين من الأوضاع القائمة، أو المتضررين من بعض قراراته الإصلاحية، أو من قبل الحاسدين له ولأسرته من أمثال أبي الهدى الصيادي (١٢٦٥ - ١٣٢٧ هـ/ ١٨٤٩ - ١٩٠٩ م)[١٥٥]

[١٥٥] - سوري من حلب كان فقير المال والحسب، ولكنه كان أفاقا، دفعته المقادير إلى اسطنبول، وكان ماهرا ذكيا، قديرا على

أحد المقربين من السلطان، والذي انتزع من الأسرة نقابة الأشراف، ونتيجة لذلك فقد تعرض للمضايقة في معظم وظائفه والعزل من بعضها، والمراقبة في تحركاته واجتماعاته، وتلفيق تهمة الاتصال بدولة أجنبية والاتفاق على تسليم المدينة لها فكاد يتعرض للإعدام لولا ثورة أهالي حلب، كما تعرض للسجن مرتين عام ١٣٠٣ هـ/ ١٨٨٦م، ثم اغتصبت أراضي مزرعته من قبل جماعة من الأرمن بتحريض من الوالي عثمان باشا، حتى ضاقت به حلب وانقبضت نفسه، ففكر في وسيلة يتخلص بها من هذا الجو الذي أصبح خانقا لا يطاق، فكان أن نزح سرا إلى مصر[١٥٦].

التغلغل في أعماق نفوس الناس ومعرفة مواطن الضعف والقوة في كل منهم، استحوذ على عقل السلطان عبد الحميد وربط نسبه زورا وبهتانا بأعلى نسب، وأدخل في روع السلطان أنه قرشي هاشمي، علوي، وهو في الطريقة رفاعي، له الأتباع الكثيرون، وكان لا يطيق أن ينافسه منافس لدى السلطان، واستطاع أن ينتزع نقابة الأشراف من أسرة عبد الرحمن الكواكبي، وكان له أعين تأتي له بكل الأخبار، فيستغلها أمهر استغلال، لم يقف عند الدين والولاية والصوفية، بل امتد نفوذه إلى المسائل السياسية والإدارية والعسكرية، يلحلم فلا حد لحلمه ويبطش فلا حد لبطشه، تولى الدس لدى السلطان على كل من الكواكبي والأفغاني والنديم..وغيرهم، حوله طالع: عبد العزيز محمد الشناوي، م س ذ، الجزء الثالث، هامش صفحات ٦٨- ٧٠.

[١٥٦] لمزيد من التفاصيل حول العداوات والمظالم التي تعرض لها طالع سامي الدهان، م س ذ، ص ص ٢١ – ٢٨. وطالع أيضا: محمد عمارة، م س ذ، ص ص ٨٣- ٨٨.

أما الطور الثالث من حياته فيبدأ بنزوحه إلى مصر وتجواله في أرجاء العالم الإسلامي ثم عودته إلى مصر ووفاته بها، وهي المرحلة التي صدر فيها كتابيه: "أم القرى"، و"طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد"، فقد اتخذ من مصر موطنا له إلى أن توفي بعد أن مكث فيها عامين ونصف العام، وقد سارت فيها على ثلاث محاور:

- الأول: النشر، حيث نشر مقالاته حول الاستبداد على شكل مقالات في صحيفة "المؤيد" لصاحبها "علي يوسف" (١٢٨٠ - ١٣٣١ هـ/ ١٨٦٣ - ١٩١٣ م)، ونشر كتابه "أم القرى" عام ١٣١٨ هـ/ ١٩٠٠م، والذي كان قد ألفه في حلب، وعرضه على صديقه الشيخ "كامل الغزي" (١٢٧١ - ١٣٥١ هـ/ ١٨٥٣ - ١٩٣٣ م)، ثم إنه جمع مقالاته حول الاستبداد، وراجعها ونقحها ونشرها في كتابه "طبائع الاستبداد"

عام ١٣٢٠ هـ/ ١٩٠٢م. وقد أحدث الكتّابان في المابين[١٥٧] العثماني ضجة عظيمة، وصدرت إرادة السلطان بمنع دخولهما إلى الممالك العثمانية بيد أنهما رغما عن ذلك وصلا إلى حلب بشكل خفي.

- الثاني: مناقشة الشأن العام للسلطنة وأوضاع الحرية والاستبداد، وذلك من خلال اجتماعه مع عدد من الأدباء والكتّاب السوريين النازحين إلى مصر مثل: الشيخ رشيد رضا (١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ/ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م)، ومحمد كرد علي (١٢٩٣ - ١٣٧٢ هـ/ ١٨٧٦ - ١٩٥٣ م)، وإبراهيم سليم النجار (١٣٧٦ هـ/ ١٩٥٧ م)، وطاهر الجزائري (١٢٦٨ - ١٣٣٨ هـ/ ١٨٥٢ - ١٩٣٠ م)، وعبد القادر المغربي (١٣٧٥ هـ/ ١٩٥٦ م)، ورفيق العظم (١٢٨٤ - ١٣٤٣ هـ/ ١٨٦٧ - ١٩٢٥ م)، وعبد الحميد

[١٥٧] - مقر الإدارة والحكم العثماني ومسكن السلطان عبد الحميد، أنظر وصفا للقصر في: محمد حرب، رحلة جرجي زيدان إلى الآستانة عام ١٩٠٩، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٦٤٥، سبتمبر ٢٠٠٤، ص ص ٦٧ - ٧٤.

الزهراوي (١٢٧٢ - ١٣٣٤ هـ/ ١٨٥٥ - ١٩١٦ م)، وبعض الصحفيين..وكلهم ممن اشتهروا بالبلاغة والبيان والكتابة والفكر، ممن عملوا في مصر من خلال كتابة المقالات كصرخات في سبيل الحرية.

- طوافه خارج مصر بتكليف من الخديوي عباس الثاني (١٢٩١ - ١٣٦٣ هـ/ ١٨٧٤ - ١٩٤٤ م) الذي كان يتوق للخلافة، فأرسل في طلب الكواكبي - كما قيل - ليقوم بالدعاية والسعي لدى الشيوخ والعربان بتوقيع العرائض يبايعون فيها الخديو بالخلافة[١٥٨]، وقد شرع في سفره عام ١٣١٩ هـ/ ١٩٠١م فطاف بالجزيرة العربية، وسواحل المحيط الهندي، وشرق أفريقيا، والهند، والسواحل العربية، وعاد من هذه

[١٥٨] هذا ما ذكره سامي الدهان (صفحات ٢٩ -٣٠) من أن سبب طواف الكواكبي هو تكليف الخديوي عباس حلمي الثاني له بالدعوة إليه للخلافة، إلا أننا نرى أن هذا الأمر مخالف لشخصية الرجل الكاره لكل السلطات المستبدة، خاصة وأنه كان صديقا لرشيد رضا في مصر وجليسا له، وهو ألصق تلاميذ محمد عبده به، ونحن نعرف ما كان بين عبده والخديوي من جفاء، كما نراه مخالفا للنتائج التي قال الدهان نفسه أن الكواكبي قد انتهى إليها والتي توحي بأنه وكأنه كان يجمع معلومات عن أحوال البلاد التي زارها، لا أنه كان يجمع توقيعات لتأييد خلافة الخديو، إلا أن ما قد يبرر تلك المقولة هو أن الكواكبي قال في مقدمة كتابه طبائع الاستبداد ممتدحا الخديوي عباس: ..مغتنما عهد الحرية على عهد عزيزها حضرة سمي عم النبي (العباس الثاني) الناشر لواء الأمن على أكناف ملكه..) (الكواكبي، م س ذ، ص ٤٣٠)، كما قد يبرره أيضا ما ورد من قول الدهان بأن الخديو عباس أمر بدفن الكواكبي على نفقته الخاصة، وأن يعجل بدفنه، وأنه كان قد أرسل مندوبه لتشييعه..(سامي الدهان، م س ذ، ص ٣١).

الرحلة بمعلومات وافرة، عن حالة البلاد الزراعية والمعدنية، وقد دامت رحلته ستة أشهر عاد بعدها إلى مصر، وكانت في نفسه رحلة أخرى يتم بها معارفه ومشاهداته، وهي الرحلة إلى الغرب[١٥٩]، لكن هذه الأمنية لم تتحقق، ذلك أنه انتقل إلى ربه بعد ٣ أشهر من عودته إلى مصر (ربيع الأول ١٣٢٠ هـ/ يونية ١٩٠٢)، فخلال مقامه في مصر التف حوله جماعة من أدباء الأتراك يزعمون أنهم من المعارضين للسلطنة، وما هم في الحقيقة إلا جواسيس يرقبون حركاته وسكناته ويكتبون بها إلى المابين. وفي ليلة الخميس ٦ ربيع الأول ١٣٢٠ هـ/ ١٤ يونية ١٩٠٢ جلس في منتداه المعتاد مع أصدقائه السوريين، وشرب قهوة مرة وبعد نصف ساعة أحس بألم في معدته فقام في الحال، وقصد مع ابنه السيد كاظم إلى داره، وظل يقيء حتى قارب الليل منتصفه، فأصيب بنوبة قلبية ضعيفة،

[١٥٩] أو الرحلة إلى بلاد المغرب كما يقول أحمد أمين، م س ذ، ص ٢٥١.

عاودته بعد ساعة، وعندما ذهب ابنه يستدعي الطبيب عاد ليجد أباه قد فارق الحياة، وشاع في كثير من الأوساط أنه مات مسموما [١٦٠].

٣- أم القرى والنسب الفكري للكواكبي

٣-١: الكواكبي في كتابه "أم القرى"[١٦١]:

"أم القرى" هو أول ما نشر للكواكبي حينما قدم إلى مصر (١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م)، لكنه بحسب رواية صديقه كامل الغزي كان قد ألفه قبل سفره إلى مصر، وبحسب رواية رشيد رضا، فإنه قد نقحه ست مرات، وبالرغم من أن معظم المؤرخين يميلون إلى أن الكتاب هو قصة خيالية، إلا أن الكواكبي يقول كما روى رشيد رضا أن لهذه

[١٦٠] حول التفاصيل طالع: سامي الدهان، م س ذ، ص ص ٢٨- ٣٢.

[١٦١] طبع الكتاب في الأصل بعنوان: سجل مذكرات أم القرى أو مؤتمر النهضة الإسلامية المنعقد في مكة المكرمة سنة ١٣١٦، جامعه السيد الفراتي كاتب الجمعية- طالع الهامش رقم (١) ص ٥٥ من نفس المصدر السابق.

الجمعية أصلا وإنه كان قد توسع في السجل[١٦٢]. وأيا ما كان أمر تلك الجمعية حقيقيا أم خيالا، بعضه أم كله، فإن كتابه هذا كما وصفه أحمد أمين "أدل على الابتكار وأوضح في إظهار الشخصية، يقف فيه من المسلمين موقف الطبيب من المريض، يفحص داءه ويتعرف أسبابه ويصف علاجه في أسلوب قصصي جذاب"[١٦٣]، وقد مثل مثل لأعضاء تلك الجمعية بممثلين من بلدان العالم العربي والإسلامي يتناقشون فيما بينهم ويقلبون الرأي في تشخيص حالة المسلمين وتدارس أسبابها، ومن ثم يمكن وضع تصور لحلها، وقد انتهى المؤتمر إلى المقررات التالية: المسلمون في حالة فتور مستحكم عام، يجب تدارك هذا الفتور سريعا، وإلا فتنحل عصبيتهم كليا، سبب الفتور

[١٦٢] طالع سامي الدهان، م س ذ، ص ٥٥. وربما كانت بعض تلك المناقشات قد تمت في حلب، وأنه أضاف إليها، إلا أنها لم تحدث بالتأكيد في مكة لأنه لم يعرف أن الكواكبي قد سافر قبل سفره إلى مصر، إلا سفرته إلى الآستانة التي امتدت ستة أشهر.

[١٦٣] أحمد أمين، م س ذ، ص ٢٦٧.

تهاون الحكام، ثم العلماء، ثم الأمراء، جرثومة الداء الجهل المطلق، أضر فروع الجهل: الجهل في الدين، الدواء هو: أولا تنوير الأفكار بالتعليم، ثانيا إيجاد شوق للترقي في رؤوس الناشئة، وسيلة المداواة عقد الجمعيات التعليمية القانونية، المكلفون بالتدبير هم حكماء ونجباء الأمة من السراة والعلماء، الكفاءة لإزالة الفتور بالتدريج موجودة في العرب خاصة، يلزم تشكيل جمعية ذات مكانة ونفوذ في دائرة القانون الآتي البيان باسم (جمعية تعليم الموحدين)، وقد وضع الكواكبي قانونا لهذه الجمعية في كتابه على نحو مفصل[١٦٤].

٣-٢: مسارات الإصلاح والنهضة انطلاقا من أم القرى:

[١٦٤] - طالع قانون الجمعية في نفس المصدر السابق، ص ص ٣٧٦- ٣٨٦.

يمكننا اتخاذ ما انتهى إليه الكواكبي في نهاية كتاب أم القرى من أسباب ما أسماه بـ "الفتور العام" أو "الانحطاط"، منطلقا لرسم مسارات الإصلاح والتنوير والنهضة في الأمة في الماضي والحاضر، مع إضافتنا لها ما أدى إليه ذلك الفتور العام من "استعمار" وما سبقه من "تدخل القوى الاستعمارية" في شئون الدولة العثمانية، وسائر البلدان الإسلامية تدخلا أفضى إلى ذلك الاستعمار، وهو ما أسلمنا لاحقا إلى ما يمكن تسميته بـ "الاستقلال المتوهم" والذي يعني زوال الاستعمار في شكل الاحتلال العسكري، وبقاءه كـ "تأثير" يصل إلى حد التحكم أحيانا، أو بقاءه في شكل "تبن للنهج" يؤمم مسارات الإصلاح والتنوير والنهضة لا ليحل محلها، بل ليوهن منها ويجعل شعوب الأمة وبلدانها تحرث في المياه أو تقف "محلك سر" إن لم تتخذ وضع "للخلف در". هذه النتائج الخطيرة للفتور العام تعود فتغذي أسبابه وتعمق منها وهو ما يجعلنا نراوح

مكاننا منذ قرن أو يزيد على إصدار الكواكبي لكتابه شديد الأهمية، ويمكننا أن نصور للأمر بالرسم التالي:

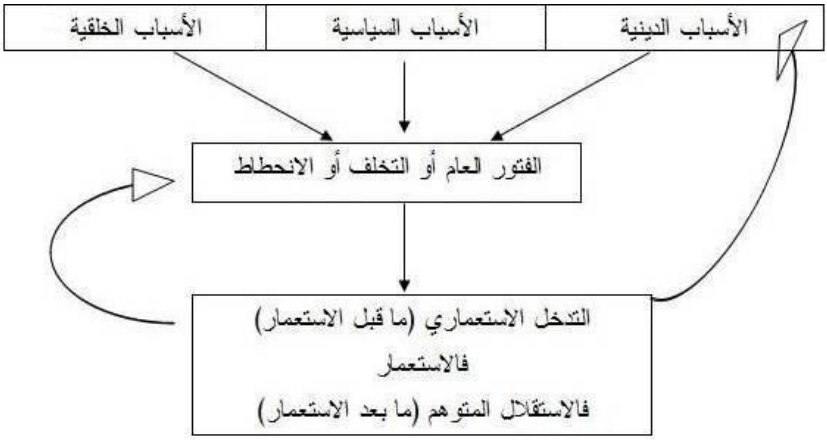

وانطلاقا من ذلك التحليل يمكننا أن نحدد مسارات الإصلاح والتنوير والنهضة التي سلكها المصلحون السابقون مجتمعة أو منفردة والتي ينبغي أن يسلكها اللاحقون بشكل تكاملي في أربعة مسارات:مسار الإصلاح الديني: ويعالج مجموعة

الأسباب الدينية، ومسار الإصلاح السياسي: ويعالج مجموعة الأسباب السياسية، ومسار التنوير والنهضة: يعالج مجموعة الأسباب الخلقية، ومسار التحرر الوطني: يعالج استلاب الإرادة في المراحل الاستعمارية المختلفة، أما من حيث تصنيف المناهج التي يسلكها أصحاب تلك المسارات فيمكننا أن نرصد: النهج الثوري، والنهج التدريجي أو الإصلاحي، أما من ناحية الأدوات، فيمكننا أن نرصد عددا من الأدوات التي استخدمت في الإصلاح والتنوير والنهضة والتحرر: التعليم، والإعلام، وإبداع مؤسسات جديدة، وإصلاح المؤسسات القائمة، والقيام على منتديات تداول الشأن العام، والأحزاب، والحركات الاجتماعية.

٣-٣: كواكبي واحد وقراءات متعددة؟

كان الكواكبي مصلحا إسلاميا من دعاة الإصلاح الديني والسياسي والتنوير، ورغم نزعته الثورية كما نراها في ثورته على الاستبداد والغيبوبة الدينية إذا جاز التعبير، وفي تطلعه إلى العدالة الاجتماعية، إلا أنه كان يميل نظريا وعقليا إلى المنهج التدريجي السلمي في ثورته تلك - كما سيأتي ذكره حين الحديث عن كتابه "طبائع الاستبداد"-، وقد استخدم في حياته أدوات: الإعلام، وإصلاح المؤسسات القائمة، كما استخدم منتديات تداول الشأن العام، ودعا إلى إنشاء الجمعيات التي تنشر الوعي وتنبه الأذهان وتربية الناشة بما يؤدي في النهاية إلى الخروج من نفق الفتور العام أو الانحطاط المظلم، ومن ثم فقد كان من بناة الوعي والإصلاحيين والتنويريين. كما نلاحظ أنه قد أغفل في حياته وكتاباته مسار التحرر الوطني ربما لأنه كان يرى معالجة الأسباب المؤدية للفتور العام، والذي أدى بدوره وكما حدث في زمانه إلى التدخل الاستعماري فالاستعمار، وربما

كان ذلك إعمالا منه للآية الكريمة "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم" ومن ثم فقد اهتم بتغيير الذات الجماعية (القوم) حتى يتغير ما ألم بها (أو بهم) من فتور، واستلاب إرادة. يدخل الكواكبي في زمرة المصلحين الإسلاميين من أمثال محمد عبده ورشيد رضا من ناحية الفكر الإصلاحي التنويري، وفي زمرة جمال الدين الأفغاني وعبد الله النديم (١٢٦١ - ١٣١٤ هـ/ ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م) من ناحية الروح الثائرة ضد الاستبداد والمتطلعة إلى العدالة الاجتماعية، ويمكننا أن نجد تلك الخلطة الكواكبية من الفكر الإصلاحي والروح الثورية لدى عدد من المفكرين المتأخرين عنه أمثال الشيخ "محمد الغزالي" (١٣٣٦ - ١٤١٦ هـ/ ١٩١٧ - ١٩٩٦ م)، والأستاذ "خالد محمد خالد" (١٣٣٩ - ١٢١٦ هـ/ ١٩٢٠ - ١٩٩٦ م) والشهيد "سيد قطب" (١٣٢٤ - ١٣٨٦ هـ/ ١٩٠٦ - ١٩٦٦ م)، وإن كان

الغزالي أشبههم بالكواكبي[١٦٥]. وقد أحمد أمين مقارنة ذكية بين الأفغاني والكواكبي نضعها في الجدول التالي[١٦٦]:

جمال الدين الأفغاني	عبد الرحمن الكواكبي
اكتوى من السياسة الأوروبية فصب عليها جام غضبه، واستغرقت حملته على السياسة الإنجليزية أكبر قسم في العروة الوثقى	واكتوى بالسياسة العثمانية فكانت موضع نقده
نظر إلى العوامل الخارجية للمسلمين فدعاهم إلى أن يناهضوها	نظر إلى نفس المسلمين فدعاهم إلى إصلاحها

[١٦٥] طالع ما كتبه الغزالي في كتابيه: الإسلام والاستبداد السياسي، والإسلام والأوضاع الاقتصادية، وما كتبه خالد محمد خالد في كتابه: مواطنون لا رعايا، وما كتبه سيد قطب في كتابه: العدالة الاجتماعية في الإسلام.

[١٦٦] نفس المصدر السابق ص ٢٧٨.

كانت معالجته للمسائل معالجة ثائر، تخرج من فمه الأقوال نارا حامية	معالجته معالجة طبيب يفحص المرض في هدوء ويكتب الدواء في أناة
غاضب، داع إلى السيف، حاد الذكاء والطبع	مشفق، داع إلى المدرسة، رزين الذكاء هادئ الطبع
إذا وضعت أمامهما عقبة تخطاها قبل الكواكبي	تخطاها الكواكبي بعده ولكن من خير نقطة تتخطى
كان مثل دوي المدفع	كان مثل خرير الماء يعمل في بطء حتى يفتت الصخر

وهي مقارنة تفرق بين: دوافع اختلاف النهج بين من اكتوى بالسياسات الأوروبية ومن اكتوى بالسياسات العثمانية (وظلم ذوي القربى أشد مرارة)، ومن ثم بين بؤرتي الاهتمام

بين العوامل الخارجية والداخلية أو بين نتائج الفتور العام وأسبابه، كما أنها تفرقة في النهج بين الثوري، والإصلاحي المشوب بروح الثورة.

وهذه التفرقة لم ترق لبعض دارسي الكواكبي كونه "أثار من القضايا، وأشار إلى حلول لا يمكن أن تعالج على النحو الذي أراده وحدده، بغير الثورة، والثورة الجارفة العميقة الجذور الحاسمة في التغيير، والجذرية في جانبي الهدم والبناء، وعظم الأهداف والحلول والاقتراحات التي خطها قلم الكواكبي - لا تتحقق - إلا بالثورة الشاملة التي تعيد بناء هذا المجتمع وترتيبه من جديد[١٦٧]. وإذا كنا نتفق معه على ثورية الفكر لدى لدى الكواكبي، إلا أن الكواكبي في وصفه للممارسة الثورية الواجبة يجعلها ثورية مشروطة طويلة الأجل معلومة الوجهة كما أشار لذلك مؤلفو كتاب "كيف تفقد الشعوب المناعة ضد

[١٦٧] محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ص ٢١٦- ٢١٧.

الاستبداد" حيث يقولون: بثلاث جمل اختصر الكواكبي الوصفة مثل قوانين الرياضيات في كتابه "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" في فصل مبحث السعي في رفع الاستبداد:

الشعور بالحاجة إلى التغيير ويتفق بهذا مع الفيلسوف إيمانويل كانت (١٧٢٤ - ١٨٠٤ م)

(١) الأمة التي لا تشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية ويجب أن يتم التغيير سلميا وبالتدريج ويتفق بهذا مع قانون الأنبياء في التغيير الاجتماعي: إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وليس بقتل الحكام أو الانقلابات العسكرية في الظلام

(٢) الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج

(٣) لابد من تصور البديل إذ يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل بالاستبداد ويتفق بهذا مع ديكارت الذي يرى في كتابه المقال على المنهج أنه يجب عدم هدم البيوت القديمة مهما كانت سيئة فلا يفعل هذا مهندس عاقل ويضع أصحابه تحت المطر والريح، بل لابد من تهيئة البيت الجديد فإذا انتقل إليه لم يرجع إلى القديم قط[١٦٨].

وحديثنا حول القراءتين لنهج الكواكبي، يأخذنا للحديث حول القراءات المتعددة للكواكبي من قبل دارسيه[١٦٩] من ناحية نسبته الإيديولوجية بشكل خاص انطلاقا من آرائه بعضها أو كلها، والتي يمكن أن نلمح فيها عدة اتجاهات تبدو متناقضة تناقضا عجيبا أحيانا:

---

[١٦٨] هشام علي حافظ، وجودت سعيد، وخالص جلبي، كيف تفقد الشعوب المناعة ضد الاستبداد، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، الطبعة الثانية، ٢٠٠٢، ص ص ٢٢٣- ٢٢٤.

[١٦٩] - حول أهم الدراسات التي تناولت الكواكبي طالع مقدمة محمد جمال طحان لـ: عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ص ٥٥- ٦٤.

١- الاتجاه الغالب هو الذي اعتبر الكواكبي من رواد دعاة القومية العربية والقائلين بهذا ينقسمون بين فريقين: فريق من العروبيين وفريق من غلاة الإسلاميين.

٢- اتجاه ثاني يعتبر الكواكبي من أوائل دعاة فصل الدين عن الدولة أي من دعاة العلمانية.

٣- اتجاه ثالث يعتبر الكواكبي داعية دولة دينية بالمعنى الكنسي الغربي.

٣- اتجاه رابع يرى الكواكبي من دعاة الإصلاح الإسلامي وإن اختلف في تفاصيل ذلك الإصلاح عن غيره مؤكدا فيه على أهمية الدور العربي في هذا الإصلاح.

وممن يمثلون الفريق الأول من الاتجاه الأول: الدكتور محمد عمارة في القديم، ففي كتابه: عبد الرحمن الكواكبي شهيد

الحرية ومجدد الإسلام[١٧٠] وفي فصله المعنون باسم: مع العروبة، والذي حاول فيه أن ينقض آراء القائلين بالرأي الثالث (كالدكتور بطرس غالي في كتابه: الكواكبي والجامعة الإسلامية ص ٣٣، وص ٧٩) والرابع (كمحمد رشيد رضا في مقالاته بالمنار نقلا عن سامي الدهان ص ٧٤) قائلا: فالذين حاولوا أن يصوروا الكواكبي داعية خلافة إسلامية، ودولة تقوم على أساس من عقيدة الدين الإسلامي، والجنسية فيه إنما تقوم على الإيمان بدين الإسلام[١٧١]، قد ظنوا أن ترديد الكواكبي لعبارات مثل "الجامعة الدينية" و"الرابطة الإسلامية" و"أهل القبلة"، وكذلك وصف كتابه هذا – يقصد

---

[١٧٠] - المصدر سبق ذكره، وقد ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب في عام ١٩٨٤، والتي غير الدكتور عمارة كما يبدو مقدمة طبعته الثالثة دون فصوله، ومن ثم اختلف تصنيفه لفكر الكواكبي طبقا لتغير زاوية نظره إليه وإليها وفقا لاختلاف مواقف عمارة الفكرية في مراحله المختلفة

[١٧١] - وهو تلازم لم يقل به الكواكبي نفسه، وربما ينقضه ما أورده الدكتور عمارة نفسه من تصنيف الكواكبي في أحد تيارات الجامعة الإسلامية ا"الذي رام تجديد حياة العالم الإسلامي، ولكن تحت قيادة العنصر العربي (وهو أمر يختلف عن الدعوة للقومية العربية كما عرفها العالم العربي بشدة في النصف الثاني من القرن العشرين) فكانت الجامعة الإسلامية عنده تيارا مناهضا للأتراك العثمانيين (أو بالأدق لقيادة الأتراك العثمانيين للخلافة الإسلامية نتيجة لما سبق ذكره من أوضاع لتلك الخلافة في ظل قيادتهم خاصة في عصور انحطاط الدولة العثمانية، أنظر في هذا: محمد عمارة، الجامعة الإسلامية والفكرة القومية ، م س ذ، ١٩٩٤، ص ٥٩.

أم القرى – لم يكتب مثله في الإصلاح الإسلامي، والحديث عن الكواكبي بأنه "رجل عظيم من رجالات الإصلاح الإسلامي" - وهاتين العبارتين من قول الشيخ محمد رشيد رضا أقرب أصدقائه وجلسائه في مصر – ظنوا في ذلك وأمثاله دليلا على أن الكواكبي إنما كان داعية دولة دينية بالمعنى الكنسي الغربي (وهو قول بطرس غالي وفهمه المناقض لحقيقة المراد من آراء الكواكبي)، وأن الغرض الأساسي من المؤتمر الذي صور مناقشاته ومحاوراته وجلساته في أم القرى إنما هو "تكوين جامعة إسلامية تربط بين البلاد الإسلامية" في دولة مركزية[١٧٢] – وهي حقيقة ما دعا إليه الكواكبي في كتابه وإن قرنه بالدعوة لإصلاح الدين والسياسة في تلك الجامعة وتسليم قيادتها للعرب، والمساواة في إطارها بين أصحاب العقائد والأديان المختلفة في الحقوق والواجبات-.

[١٧٢] - محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي...، م س ذ، ص ص ١٠٣-١٠٤.

ويدلل عمارة على عروبة الكواكبي متأولا آراءه بما لا يستقيم مع التأمل العميق لمجمل آراء الكواكبي ومواقفه المعلنة التي لا شك أنها تسلكه في الاتجاه الرابع، وبما أثبته عمارة نفسه في مقدمته الحديثة في رده على جان داية صاحب الاتجاه الثاني، حيث يقول: على أننا إذا فهمنا الحديث، أي الحديث عن "الجامعة الإسلامية" و"الرابطة الدينية" لا يمكن أن يستلزم الحديث عن الدولة الدينية بالمعنى الكهنوتي - ولا شك في ذلك - وإنما هو يعني ذلك الإيمان بوجود روابط معينة، وخيوط مشتركة، وقسط من الوحدة بين الذين يدينون بدين الإسلام، لا يرتقي بمستوى "الوحدة المركزية" في "الدولة الواحدة"[١٧٣].

ولئن كان الكواكبي لم يقصد جمع المؤمنين بالإسلام "وحدهم" في دولة مركزية واحدة دون سواهم من أصحاب

[١٧٣] - نفس المصدر، ص ١٠٥.

الديانات الأخرى، إلا أنه لم يكن يطرح بالتأكيد فكرة تفتيت الدولة المركزية الواحدة التي كانت تجمع مواطني تلك الدولة بمسلميهم وغيرهم من أصحاب العقائد الأخرى إلى دول أو دويلات عربية أم غير عربية، بل طرح إصلاحا لأحوال تلك الدولة المركزية إداريا وشوريا وجعل قيادتها في أيدي عربية لأنهم أصلح لقيادتها من وجهة نظره، ولا يتساوى هذا بالتأكيد مع ما آل إليه الفكر العروبي القومي في النصف الثاني من القرن العشرين.

ويمثل الفريق الثاني في الاتجاه الأول: الدكتور خالد بن إبراهيم بن عبد الله الدبيان في كتابه حول الجمعيات القومية العربية، الذي يقول أن "الرواد من المفكرين والدعاة الذين دعا بعضهم بدعوات لفتت نظر كثير من شباب العرب وقدحت في أذهانهم كثيرا من الأفكار مما كانت سببا من أسباب نشأة

الجمعيات القومية العربية - ورغم تأكيده على ملاحظة أن- المبادئ القومية التي دعا إليها بعض المفكرين قبل نشأة الجمعيات القومية تركزت حول المطالبة بالإصلاح، إصلاح الحكم، والقضاء على الفساد فيه وكانت تعني أيضا مطالبة العرب بمساواتهم مع الأتراك في الحقوق والواجبات، والمطالبة بقسط أوفر من الحرية السياسية والمدنية. ثم ينقل أقوالا لبعض أعضاء تلك الجمعيات تؤكد تأثير كتابات الكواكبي فيهم ومنها قول محمد عزة دروزة "أن ما قدمه الكواكبي من كتابات ومقالات كان لها أثر عظيم في أفكار ناشئة العرب ووعيهم ويقظتهم مما جعلهم يعدونه من أبرز رجال النهضة العربية وموقظيها. ثم يقول أن الكواكبي أبرز في أم القرى عدة قضايا فكرية هامة كانت سببا في تأسيس الجمعيات القومية العربية ويمكن حصرها بالنقاط التالية: تحقيق مطلب إقامة خلافة عربية قرشية، والطعن في حكم الأتراك،

والعداء بين العرب والأتراك، وفصل السياسة عن الدين، والحكم المركزي واللامركزي، أما الولاء والبراء عند الكواكبي: فقد اعتبره الدبيان ممن يقدمون الرابطة القومية على الرابطة الدينية، ومجاراة العرب للغرب، ويفضلون الحكم الأجنبي الكافر على حكم الأتراك، وممن نظروا لتأسيس تلك الجمعيات، وينتهي من كل ذلك إلى القول أنه "من خلال العرض السابق يلحظ أن الكواكبي قد وقع في مخالفات عقائدية، وذلك في تقريره لكثير من المسائل القومية"[١٧٤]. ولا أدري في الحقيقة ما هي المخالفة العقائدية في آراء الكواكبي، على الرغم من تأثره الواضح بالآراء السلفية التوحيدية التي يمثل الكاتب نتاجا متأخرا لها.

[١٧٤] - خالد بن إبراهيم بن عبد الله الذبيان، الجمعيات القومية العربية وموقفها من الإسلام والمسلمين في القرن الرابع عشر الهجري، الرياض، دار المسلم للنشر والتوزيع الطبعة الأولى، ٢٠٠٤، الجزء الأول، ص ص ٢٥٧- ٢٨٣.

ويمثل الاتجاه الثاني: جان داية في كتابه "الإمام الكواكبي: فصل الدين عن الدولة" حيث يقول:

"إن الكواكبي هو رائد القائلين بمبدأ فصل الدين عن الدولة على صعيد الأئمة والكتاب المسلمين..فلم يبرز أي كاتب مسلم قبله قال بضرورة الفصل بين السلطتين الدينية والسياسية، مما يرجح الاستنتاج بأن الكواكبي هو الذي شق هذه الطريق الطويلة الشاقة..وفي جريدة المقطم جاء تعبير الكواكبي عن فصل الدين عن الدولة وإيمانه به أكثر وضوحا وقوة مما هو عليه في جريدتيه- (الشهباء) و(اعتدال) وكتابيه (أم القرى) و(طبائع الاستبداد). وقد كفانا الدكتور عمارة مئونة الرد على تلك المقولة وإثبات عدم نسبة تلك المقالة إلى الكواكبي، والرد على الأدلة الأخرى التي ساقها داية تدليلا على رأيه[١٧٥].

[١٧٥] - محمد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ص ٧- ٦٢.

ويمثل الاتجاه الثالث: الدكتور بطرس بطرس غالي في كتابه" الكواكبي والجامعة الإسلامية" والذي شبه الكواكبي: ببعض قدامى الكتاب السياسيين في الغرب من أمثال بيير ديبوا الذي دعا إلى تكوين عصبة من الدول الأوروبية المسيحية للاستيلاء على الأراضي المقدسة في الشرق ومثل إيراسموس الذي دعا إلى قيام اتحاد بين دول أوروبا المسيحية ومثل سولي وزير هنري الرابع ملك فرنسا الذي اصطبغت دعوته بالصبغة الدينية"[١٧٦]، وهو ما رد عليه عمارة في معرض تدليله على عروبة الكواكبي دون دعوته لدولة دينية.

ويمثل الاتجاه الرابع: كل من محمد جمال طحان في مقدمته للأعمال الكاملة للكواكبي، ومحمد عمارة في مقدمته الحديثة لأعمال الكواكبي والشيخ رشيد رضا من معاصريه،

[١٧٦] -نفس المصدر، ص ١٠٤.

وسنكتفي هنا بإيراد ما قرره طحان في نهاية مقدمته[١٧٧] والذي استنتجه من استقرائه لمجمل ما كتبه الكواكبي من أن "منطلق الكواكبي الأساسي هو الإسلام، إنه مفكر متدين، ولأنه يدين بالإسلام، فقد شرحه مبينا اختلافه عن الإسلام الرسمي السائد، وميز بين المسلمين والإسلام والإسلامية التي عدها المنهج المشتق من الإسلام، وبهذا المعنى شكلت الإسلامية عنده المنطلق والمنهج والهدف. وقد حاول تعزيز انتماءه القومي والديني، من خلال وحدة سياسية عربية، وجامعة إسلامية يتولاها خليفة عربي، وهكذا فإن علاقة إسلام الكواكبي بعروبته علاقة تكامل وانسجام، لا علاقة تنافر وخصام[١٧٨]. وهو ما يؤكده أدونيس في مقدمة كتابه "الكواكبي" بقوله أن: النظرية التي يصدر عنها الكواكبي

[١٧٧] - حيث يمكن الرجوع هنا لآراء عمارة التي تؤكد إسلامية الكواكبي لمقدمته سالفة الذكر.
[١٧٨] - محمد جمال طحان في مقدمته لـ: عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ص٩٨- ٩٩.

للقضاء على الانحطاط، من جهة، ولتحقيق النهوض من جهة ثانية، هي ما يسميها بـ"الإسلامية"[١٧٩]. وقوله: أن النهضة عنده ليست عملية اقتباس، وليست مجرد عملية تحرر، إنها استمرار تفتح ضمن التاريخ الإسلامي- العربي، بهدي مبادئ الإسلامية واستمار في تعميق الوعي. والنهضة إذن هي في فكره وصل ما انقطع في ممارسة الإسلامية وصيرورتها، وليس الآخر الغربي إلا نموذجا تحريضيا، أعني أنه ليس مصدر معرفة للنهوض، ولا مقياس نهوض[١٨٠].

ولعل خير ما أختم به وأؤكد به في آن واحد حول نسبة الكواكبي ما قاله بنفسه في كتابه: طبائع الاستبداد بما لا يدع مجالا للبس من أن شأن المسلمين هو هم الليل والنهار الذي كان يشغله: "يا قوم وأعني منكم المسلمين..أيها المسلمون إني

---

[١٧٩] - أدونيس وخالدة سعيد (اختيار النصوص وتقديمها)، الكواكبي، سلسلة ديوان النهضة، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، ١٩٨٢، ص ١٠.

[١٨٠] - نفس المصدر، ص ص ١٨- ١٩.

نشأت وشبت وأنا أفكر في شأننا الاجتماعي عسى أهتدي لتشخيص دائنا فكنت أتقصى السبب بعد السبب، حتى إذا وقعت على ما أظنه عاما، أقول لعل هذا هو جرثومة الداء، فأتعمق فيه تمحيصا وأحلله تحليلا فيتكشف التحقيق عن أن ما قام في الفكر هو سبب من جملة أسباب، أو هو سبب فرعي لا أصلي، فأخيب وأعود إلى البحث والتنقيب، وطالما أمسيت وأصبحت أجهد الفكر في الاستقصاء، وكثيرا ما سعيت وسافرت لأستطلع آراء ذوي الآراء، عسى أهتدي إلى ما يشفي صدري من آلام بحث أتعبني به ربي...[١٨١]".

وهذا الحديث يسوقنا إلى الكتاب الذي نقدم له هنا والذي بث فيه الكواكبي همومه الحرَى تلك:

[١٨١] - عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ٥١٣.

٤- الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد

٤-١: الكتاب..بين الاقتباس والمدارسة:

ما كاد الكواكبي يصل إلى مصر حتى وقع في نفوس إخوانه موقعا حسنا فالتفوا حوله (...) فارتبط بهم بروابط الود والصداقة حتى إذا ما عرفه صديقه الشيخ رشيد رضا صاحب "المنار" بالأستاذ الشيخ علي يوسف تمكنت بين الرجلين أواصر الحب والتقدير، واتفقا من غير شك على خطة في النشر والتحبير، وفي ذات يوم صدرت "المؤيد" تحمل إلى قرائها فصولا غريبة في اللهجة والأسلوب والموضوع، لم يسبق لصحيفة عربية أن تطرقت إلى مثلها، فقد كانت مشبعة بالصراحة والحرية والجرأة، تحوم حول الاستبداد، فلفت الأنظار وتساءل القراء عن صاحب هذه المقالات تصدر في جريدة "المؤيد" على رغم اتصالها الشديد بالخديو عباس الثاني

وبالآستانة، ويقولون ترى من يكون صاحب "طبائع الاستبداد"؟ "واعتقد الجمهور لأول وهلة أنه من نتاج قلم وتفكير فقيد الشرق الشيخ محمد عبده، لولا الجفاء الذي كان مستحكما بين صاحب المؤيد وبينه". فلما عرفوا أنه عبد الرحمن الكواكبي وضعوه في الدرجة الأولى من رجال الفكر والقلم وأنزلوه منزلته وأعلوا قدره[١٨٢].

يقول حسن حنفي حول الكتاب إنه يعد "من المساهمات الأولى في رصد هذه الجذور التاريخية لأزمة الحرية والديمقراطية في الوجدان العربي (...) وهو من أجمل العناوين وأكثرها دلالة في الفكر العربي الحديث والمعاصر. يتجه مباشرة نحو الموضوع: الحرية والديمقراطية في صيغته النافية، والاستبداد والاستعباد. يجمع بين النظر والعمل، بين البحث عن طبائع الاستبداد والبحث عن مصارع الاستعباد أي

[١٨٢]- سامي الدهان، م س ذ، ص ٤٢.

طرق التخلص منه. وهو بحث في الماهيات أي في الجذور والطبائع أكثر منه بحثاً في الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية. هو بحث فلسفي وليس بحثاً اجتماعياً. محررها وليس مؤلفها الرحالة "ك" وليس المفكر والمصلح والعالم الكواكبي. فالرحالة هو الذي يستمد فكره من تجاربه ومشاهداته وليس من المصادر المدونة القديمة. والرمز "ك" يعنى أن أي رحالة قادر على الوصول إلى نفس النتائج بوصفها خبرة جماعية مشتركة، وربما حماية لنفسه وتسترا من حكام الطغيان، "وأنا المضطر للاكتتام حسب الزمان" . ويعترف هو بهذين المصدرين، "منها ما درسته ومنها ما اقتبسته". ولا يشير إلى مصدر الاقتباس بل يكتفي بذكر "المؤرخين المدققين"، "المدققين"، "المدققين السياسيين"، "العلماء الآثاريون"، "بعض الحكماء"، "أحد المحررين السياسيين"، "المحررين"، "أهل النظر في أحوال البشر"، "المتأخرون من أهل أوروبا"، "المتأخرون من

الشرقيين"،... إلخ، ولكن الكواكبي يعيد قراءة الوافد لإعادة توظيفه في تنظيره المباشر للواقع، وكأن الوافد الخارجي يصف الواقع المحلي، لا فرق بين واقع أوروبا وواقع الشرق. فالاستبداد واحد، لا فرق بين أباطرة أوروبا وقياصرتها وبين خلفاء بني عثمان. لا فرق بين الآخر والأنا. لا يقصد حكما بعينه بل قصد فقط تنبيه الغافلين عن الجذور التاريخية للداء الدفين[١٨٣].

أما الاقتباس فيشير إليه أحمد أمين بقوله: وقد اقتبس فيه كثيرا من أقوال "ألفيري". ولا أعرف كيف وصلت إليه، وألفيري "Alfieri Vittoria"، كاتب إيطالي عاش من سنة ١٧٤٩-١٨٠٣م، من بيت نبيل وقد ساح في أوربة نحو سبع

[١٨٣] حسن حنفي، الاستبداد في الفكر العربي المعاصر، الموقع الإلكتروني لمجلة الكتب وجهات نظر، عدد فبراير ٢٠٠٢: http://www.weghatnazar.com/article/article_details.asp?page=٩&id=٧٣&issue_id=٣٠

سنوات، ودرس كتب فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨ م) وروسو ومنتسكيو، وتشبع بآرائهم الحرة وتعشق الحرية وكره الاستبداد أشد الكره، ووجه أدبه للتغني بالحرية ومناهضة الاستبداد، ينطق بذلك أبطال رواياته، ويبثه في كتاباته، ولكن الكواكبي هضمها وعدلها بما يناسب البيئة الشرقية والعقلية الإسلامية، وزاد عليها من تجاربه وآرائه[١٨٤].

أما الدراسة: فإننا يمكننا أن نلاحظ في كتابي الكواكبي بعض الآراء التي لا تدع مجالا للشك في تأثره بأفكار الدعوة السلفية التي أطلقها محمد بن عبد الوهاب (١١١٥ - ١٢٠٦ هـ/ ١٧٠٣ - ١٧٩٢ م)، ولكن بالطريقة التي تنظر لمفهوم "التوحيد" باعتباره مفهوما تحريريا للإنسان من أسر المعتقدات التي تقربه من مساحة الوثنية أو من فكر الخرافة، واستلاب العقل، يقول الدكتور فتحي عثمان في كتابه "السلفية في

[١٨٤] أحمد أمين، م س ذ، ص ٢٥٤.

المجتمعات المعاصرة" بعد أن ذكر نقولا عن الكواكبي "ولهذا كله دلالته التي لا تخفى في إيمان الكواكبي بنهج السلفية في تفهم الإسلام واقتناعه بأن أقرب من يكون إليه عرب الجزيرة، وما وصلت الجزيرة لذلك إلا بالدعوة السلفية"، ويقول أيضا "وهكذا يقدم الكواكبي صورة حية جلية لبدع الشرك المعاصر، أعطاها من تفاصيل الواقع ما جعلها صورة حقيقية ناطقة معبرة، هي أبلغ في مخاطبة العقول والقلوب من أية تقريرات نظرية جافة، وقد كان هذا شأن الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله..[١٨٥].

ويبدو من الكتّاب أن الكواكبي قد اقتبس بعض أفكاره في هذا الكتّاب من ألفياري (١٧٤٩ - ١٨٠٣ م)[١٨٦] ومن غيره من الكتّاب الغربيين، كما درس غيره من المصادر الفكرية

[١٨٥] طالع: محمد فتحي عثمان، السلفية في المجتمعات المعاصرة، الكويت، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩٣، ص ص ٨٧- ٩٧.
[١٨٦] - طالع الكواكبي في: جمال محمد طحان، الأعمال الكاملة، م س ذ، ص ٥٢٩.

العربية والإسلامية والغربية مثل "الأمير" لمكيافيللي، و"روح القانون" لمونتسيكيو (١٦٨٩ - ١٧٥٥ م)[١٨٧]ومقدمة ابن خلدون (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ/ ١٣٣٢ - ١٤٠٦ م)[١٨٨]، كما قرأ كتابات أحمد جودت (١٢٣٨ - ١٣١٣ هـ/١٨٢٢ - ١٨٩٥ م) ونامق كمال (١٢٥٦ - ١٣٠٦ هـ/١٨٤٠ - ١٨٨٨ م) وسليمان الطرابلسي (١٢٢٧ - ١٣٥٩ هـ)، إضافة إلى كتابات رفاعة الطهطاوي (١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ/ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م) وخير الدين التونسي (١٢٣٧ - ١٣٠٨ هـ/ ١٨٢١ - ١٨٩٠ م)، وأحمد فارس الشدياق (١٢١٩ - ١٣٠٦ هـ/ ١٨٠٤ - ١٨٨٨ م)، وسليم البستاني (١٢٥٦ - ١٣٠٢ هـ/ ١٨٤٨ - ١٨٨٤ م)[١٨٩]، إضافة إلى ذلك فقد استقى الكواكبي آراءه من معايشته

---

[١٨٧] - نفس المصدر، ص ٤٥٧.

[١٨٨] - نفس المصدر، ص ٤٣٩ فكرة عمر الحضارات وص ٤٦٣ في انتقاد ابن خلدون لخروج الحسين بن علي على يزيد.

[١٨٩] - الكواكبي، مقدمة "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، نفس المصدر، ص ص ٤٣٣- ٤٣٥.

للاستبداد واستقرائه للأحوال تحت وطأته، ومناقشتها مع الآخرين في جلسات تداول الشأن العام، ثم من خلال التفكر في أحوال المستبدين والمستبد بهم، وفي آثار الاستبداد في واقع الحياة العملية، حتى خرج إلينا من خلاصة الدراسة والاقتباس والمعايشة والمناقشة والتفكر بهذا السفر الفريد في "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد".

ولابد هنا من الإشارة إلى النسخة التي نعتمد عليها في دراسته، وهي النسخة التي ضمها سفر "الأعمال الكاملة للكواكبي" والتي درسها وحققها محمد جمال طحان والتي صدرت عن "مركز دراسات الوحدة العربية"، والتي طبعت في طبعات ثلاث ما بين عام ١٩٩٥ وعام ٢٠٠٧، حيث أنه حققها على كل ما صدر من طبعات سابقة للكتاب وأضاف عليها ما أضافه الكواكبي ونقحه قبل موته بخط يده. حيث

يشير طحان أن بعض الطبعات السابقة أخطاء طباعية، أو كان الكلام في بعض أبحاثها ناقصا زاد عليه الكواكبي بعد ذلك[١٩٠].

٤-٢: كيف بحث الكواكبي في الاستبداد؟

الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد كان وكأنه يعيد طرح السؤال وصياغة الإجابة التي طرحها في كتابه الأول "أم القرى" حيث يقول أنه وجد "سراة القوم" في مصر "كسائر الباحثين كل يذهب مذهبا في سبب الانحطاط وفي ما هو الداء، وحيث إني قد تمحص عندي أن أصل هذا الداء هو الاستبداد السياسي ودواؤه دفعه بالشورى الدستورية، وقد استقر فكري على ذلك، كما أن لكل نبأ مستقرا، بعد ثلاثين عاما...بحثا أظنه كاد يشمل كل ما يخطر على البال من سبب

[١٩٠] - راجع ما قاله طحان حول الطبعات المختلفة لطبائع الاستبداد وملاحظاته عليها، في مقدمته لـ: عبد الرحمن الكواكبي، م س ذ، ص ص ٤٩- ٥٢.

يتوهم فيه الباحث عند النظرة الأولى، أنه ظفر بأصل الداء أو بأهم أصوله، ولكن لا يلبث أن يكشف له التدقيق أنه لم يظفر بشيء، أو أن ذلك فرع لأصل، أو هو نتيجة لا وسيلة[١٩١].

إذا فقد كان الشاغل هو هو..السؤال عن أسباب الداء ووصفة الدواء، وكان تشخيصه لأسباب الداء مختلفا من حيث ترتيب الأولويات و ترتيب النتائج على الأسباب، وكانت وصفته للدواء هنا تعديلا على وصفته السابقة التي وردت في "أم القرى" من باب تغير وصف الداء، فدعونا نرى التغير في الوصف والوصفة لنعيد رسمه وفقا لطبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد.

[١٩١]- عبد الرحمن الكواكبي، نفس المصدر، ص ٤٣٠.

في مقدمة كتابه يحدد الكواكبي عناصر دراسته للاستبداد حيث يقول: إني أرى أن المتكلم في الاستبداد عليه أن يلاحظ تعريف وتشخيص ما هو الاستبداد؟ ما سببه؟ ما أعراضه؟ ما سيره؟ ما أنذاره*؟ ما دواؤه؟[١٩٢]. ووفقا لهذه العناصر يمكننا أن نرى أهم أفكار الكتاب الذي جاء في أسلوب الاقتضاب، وجاء هذا الاقتضاب كثافة وعمقا في المعنى يجعل من مهمة الغوص في بحاره مهمة غاية في الصعوبة، إذ لا يعرف المرء ما يأخذ منه وما يدع**.

تعريف الاستبداد: الاستبداد عنده "صفة للحكومة المطلقة العنان فعلا أو حكما التي تتصرف في شئون الرعية كما تشاء

* يقصد هنا عواقبه المنذرة بالوقوع، أو التي توشك أن تقع.

[١٩٢] - نفس المصدر، ص ٤٣٥، ومن الملاحظ أن الكواكبي لم يحرص في تبويبه لكتابه على السير وفق هذه العناصر، ولكننا نجتهد في استلال المعاني ووضعها وفق هذا التصنيف

** وإذا كان الكواكبي قد استعمل الاقتضاب في العبارات، فإنه استطرد في الوصف وأسهب في العرض بطريقة أشبه بالخواطر تحت كل عنوان من عناوين فصوله، دون ترتيب منطقي متسلسل للكلام، تنقسم فيه أفكار الفصل على أفكار وعناصر فرعية محددة وواضحة، وهو ما يزيد في صعوبة استخلاص المعاني في شكل عناصر محددة كما نحاول أن نفعل.

بلا خشية حساب ولا عقاب محققين[١٩٣]. **ومن أسبابه** كون الحكومة غير مكلفة بتطبيق تصرفها على شريعة، أو على إرادة الأمة. أو أنها تملك بنفوذها إبطال قوة القيد بما تهوى، كما أنه ينتج عن غفلة الأمة أو التمكن من إغفالها، ويستمر الاستبداد بسبب جهالة الأمة، وبقوة الجنود المنظمة. كما ينتج عن استبداد الناس بعضهم ببعض فالمستبدون يتولاهم مستبد، والأحرار يتولاهم الأحرار، ف (كما تكونوا يول عليكم)[١٩٤].

سير الاستبداد وأنذاره: وهو القسم الذي استغرق معظم صفحات الكتاب، وتحدث فيه الكواكبي عن علاقات التساند بين الاستبداد والانحراف في الدين، وبين الجهل والاستبداد السياسي، وعلاقة التنافر بين الاستبداد والعلم،

[١٩٣] نفس المصدر ص ٤٣٧.
[١٩٤] مستقاة من نفس المصدر، ص ص ٤٣٧- ٤٤١.

وآثار الاستبداد على المجد والأخلاق والترقي وعلاقته المتشابكة مع المال، ومن ذلك:

الاستبداد والمجد: المجد هو إحراز مقام الحب والاحترام في القلوب، وهو لا ينال إلا بنوع من البذل في سبيل الجماعة وبتعبير الشرقيين في سبيل الله أو سبيل الدين، وبتعبير الغربيين في سبيل المدنية أو سبيل الإنسانية، أما التمجد فهو أن يصير الإنسان مستبدا صغيرا في كنف المستبد الأعظم. والمستبدون يعتمدون غالبا على العريقين في خدمة الاستبداد الوارثين من آبائهم وأجدادهم الأخلاق المرضية للمستبدين وهو ما أسماه بيوت الظلم والإمارة، وهي مطمح نظر المستبد في الاستعانة وموضع ثقته[١٩٥].

[١٩٥] طالع فيه نفس المصدر من ص ٤٦٣- ٤٧٢.

الاستبداد والمال: فعلاقة الاستبداد بالمال أن "الاستبداد يجعل المال في أيدي الناس عرضة لسلب المستبد وأعوانه وعماله غصبا، أو بحجة باطلة، وعرضة أيضا لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في أمان الإدارة الاستبدادية، ومن طبائع الاستبداد أن الأغنياء أعداؤه فكرا وأوتاده عملا، فهم ربائط المستبد يذلهم فيثنون ويستدرهم فيحنون، ولهذا يكثر الذل في الأمم التي يكثر أغنياؤها*. أما التمول (أي ادخار المال) فقد تطبع الإنسان عليه لدواعي الحاجة المحققة أو المتوهمة، ويشتد حرص التمول القبيح في عهد الحكومات المستبدة حيث يسهل فيها تحصيل الثروة بالسرقة من بيت المال، وبالتعدي على الحقوق العامة، وبغصب ما في أيدي الضعفاء[١٩٦].

* هذا ارتباط ليس من الارتباطات الشرطية فكم شهدنا من أمم كثر أغنياؤها ولم يكثر الذل فيها، فهو ارتباط تعسفي مبالغ فيه من قبل الكواكبي.

[١٩٦] نفس المصدر، ص ص ٤٧٣- ٤٨٣.

الاستبداد والأخلاق: فالأخلاق هي أثمار بذرها الوراثة، وتربتها التربية، وسقياها العلم، والاستبداد يستولي على العقول الضعيفة للعامة فضلا عن الأجسام فيفسدها كما يريد، فأسير الاستبداد لا نظام في حياته ولا نظام في أخلاقه، وأسير الاستبداد العريق يرث شر الخصال وتربى على أشرها، كما أن من طبيعة الاستبداد ألفة بعض الأخلاق الرديئة، حتى الأخيار من الناس فإن الاستبداد يرغمهم على ألفة الرياء والنفاق ولبئس السيئتان[١٩٧].

الاستبداد والتربية: فالإنسان في نشأته يكون كالغصن الرطب فهو مستقيم بطبعه، وأهواء التربية تميل به إلى يمين الخير أو شمال الشر، والتربية والاستبداد عاملان متعاكسان فكل ما تبنيه التربية مع ضعفها يهدمه الاستبداد بقوته، والتربية علم وعمل وليس من شأن الأمم

[١٩٧] نفس المصدر، ص ص ٤٨٤- ٤٩٤.

المملوكة شؤونها أن يوجد فيها من يعلم التربية ولا من يعلمها، والتربية غير مقصودة ولا مقدورة في ظلال الاستبداد إلا ما قد يكون بالتخويف من القوة القاهرة، وهذا النوع يستلزم انخلاع القلوب لا تزكية النفوس[١٩٨].

[١٩٨] نفس المصدر، ص ص ٤٩٥- ٥٠٤.

الاستبداد والترقي: الاستبداد يقلب السير من الترقي إلى الانحطاط، ومن التقدم إلى التأخر، ويلازم الأمة ملازمة الغريم الشحيح*، وقد أجمع الحكماء على أن أهم ما يجب عمله على الآخذين بيد الأمم، الذين فيهم نسمة من مروءة وشرارة حمية أن يسعوا في رفع الضغط على العقول الذي يسببه الاستبداد لينطلق سبيلها في النمو فتمزق غيوم

* والمتأمل لحال أمم العالم الثالث بعد استقلالها الظاهري عن الاستعمار وعلاقة نصيب كل أمة منها من الحرية أو الاستبداد، وعلاقة ذلك بالترقي والانحطاط بمعناه العام والواسع، أو التقدم والتأخر حتى بالمعنى الاقتصادي والعلمي يلاحظ ما يؤكد تلك المقولة وهذا الارتباط الشرطي، ولعل في المقارنة بين بلدان كماليزيا، والهند بل وحتى تركيا مثلا في مقابل دولة كبيرة في الشرق كمصر ونصيب كل منها بعد نصف قرن من الاستقلال من التقدم والتأخر.

الأوهام التي تمطر المخاوف[١٩٩]، ويمكننا مما عرضنا له رسم خريطة تشخيص الداء:

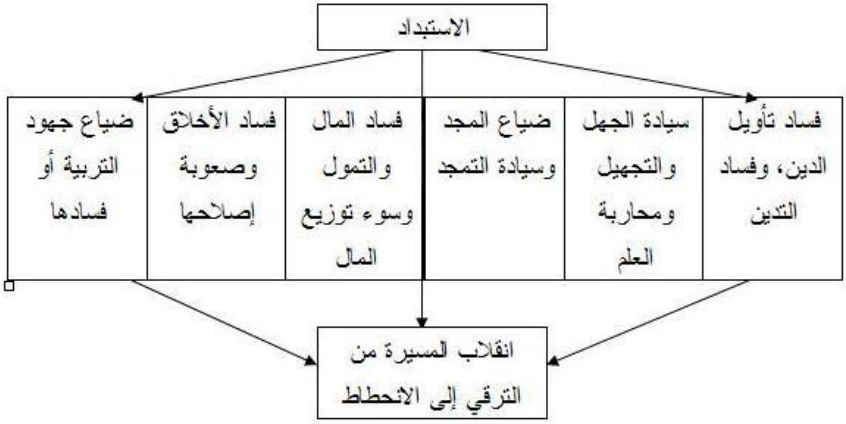

دواء الاستبداد: وله ثلاثة شروط:

١- الأمة التي لا يشعر كلها أو أكثرها بآلام الاستبداد لا تستحق الحرية.

٢- الاستبداد لا يقاوم بالشدة إنما يقاوم باللين والتدرج.

[١٩٩] نفس المصدر، ص ص ٥٠٥- ٥٢٣.

٣- يجب قبل مقاومة الاستبداد تهيئة ماذا يستبدل به الاستبداد.

ويلزم للدواء أولا تنبيه حس الأمة بآلام الاستبداد، ثم يلزم حملها على البحث في القواعد الأساسية السياسية المناسبة لها بحيث يشغل ذلك أفكار كل طبقاتها، والأولى أن يبقى ذلك تحت مخض العقول سنين بل عشرات السنين حتى ينضج تماما، وحتى يحصل ظهور التلهف الحقيقي على نوال الحرية في الطبقات العليا والتمني في الطبقات السفلى[٢٠٠].

٤-٣: أثر الكتاب:

كان للكواكبي الفضل الأكبر في وضع قضية الاستبداد من خلال هذا الكتاب على أجندة البحث في الفكر العربي والإسلامي، وهو أمر لم يسبقه إليه أحد في العصر الحديث،

[٢٠٠] نفس المصدر، ص ص ٥٢٤- ٥٣٤.

باستثناء ما أشار إليه فاروق أبو زيد[٢٠١] من سبق كتاب "الحاكم والمحكوم" لسعيد أفندي البستاني والذي نشر عام ١٢٩٨ هـ/ ١٨٨١ م، والذي كان قد نشره أولا كمقالات متتابعة في صحيفة "مصر" التي كان يصدرها عوني اسحاق شقيق الكاتب السوري أديب اسحاق، وإن كان الكتاب قد فقد فإن المقالات قد بقيت، وفيها كشف البستاني عن الفرق بين الحكومات المطلقة أو الحكومات الاستبدادية..وبين الحكومات المقيدة أو الحكومات الديمقراطية...وتعرض لدراسة موضوع الاستبداد وشرح مفهومه وكشف نواقصه وثغراته..وهو بذلك يسبق الكواكبي في التصدي لموضوع الاستبداد ونقده، حيث توصل البستاني إلى أكثر الاجتهادات الفكرية التي جاء بها الكواكبي، ويؤكد أبو زيد من ثم "تأثر الكواكبي بالبستاني إلى الدرجة التي أخذ عنه

[٢٠١] - فاروق أبو زيد، عصر التنوير العربي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى، ١٩٧٨ ص ص ٩٣- ٩٤.

أفكاره"، كما يشير أبو زيد أيضا إلى سبق رفاعة الطهطاوي بدوره للبستاني في تصنيفه لأنواع الحكومات في مقال للطهطاوي بعنوان "تمهيد" نشره بصحيفة "الوقائع المصرية" عام ١٢٥٨ هـ/ ١٨٤٢م[٢٠٢]. إلا أن كل ذلك لا يمنع من تفرد الكواكبي بتحليله المتعمق للاستبداد وآثاره بطريقة متميزة وغير مسبوقة، وهو ما أدى إلى ترجمة كتابه إلى اللغة الفارسية والتي قام بها "عبد الحسين الحلي" كما ترجمه المستشرق الروسي ليفين إلى اللغة الروسية [٢٠٣].

وإذا كان الكواكبي قد قرئ قراءات متعددة في المجمل العام لفكره فقد أتى تأثير الكاتب وكتابه "طبائع الاستبداد" في اتجاهين مختلفين وبطريقتين رئيسيتين:

---

[٢٠٢] - نفس المصدر، ص ١٠١.

[٢٠٣] - سعد زغلول الكواكبي، عبد الرحمن الكواكبي (السيرة الذاتية)، بيروت، بيسان للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ص ١١٨.

أما الاتجاهين: فهما الاتجاه العروبي القومي، والاتجاه الإسلامي

وأما الطريقتين: فطريقة عملية وأخرى نظرية

أما الاتجاه العروبي القومي: والمبني على قراءة الكواكبي كداعية للقومية العربية وهي القراءة التي تبناها اتجاهان متضادان: الاتجاه العروبي القومي، والاتجاه الإسلامي المتشدد، وقد أخذ في الأغلب الطريقة العملية والتي تدعمت بمساهمات نظرية أخرى من أمثال ساطع الحصري (١٢٩٧ - ١٣٨٨ هـ/ ١٨٨٠ - ١٩٦٨م) وغيره من دعاة القومية العربية في زمان الكواكبي وما تلاه، والتي رصدها "خالد الذبيان" في كتابه سابق الذكر، ومن قبله "محمد محمد حسين" في كتابه: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، وقد نقل الذبيان عن "محمد كرد علي" قوله بأن للكواكبي وكتاباته الفضل بتنبيهه

الأفكار، ووصف شقاء الأمة، فأبدع بدعوته بدعة حسنة لم يسبق إليها، فأودى بحياته ليؤسس للعرب دولة ترعاهم، وتوفر على حمل النور إليهم"، كما نقل قول "محمد عزة دروزة" (١٣٠٥ - ١٤٠٤ هـ/ ١٨٨٧ - ١٩٨٤ م) السابق ذكره[٢٠٤]، ونقل تأثر الجمعيات القومية بكتابي "الكواكبي" ومنهما "طبائع الاستبداد" والذي ركز فيه "الكواكبي" على مفهوم الحرية، "والذي أكثرت الجمعيات القومية في المطالبة به، حتى أصبح من الشعارات التي نادت به، وأكد أعضاء الجمعيات القومية في المؤتمر العربي الأول أن من أماني العرب أن تكون ..صحافتهم مطلقة، وأقلام كتابهم غير مقيدة، ومدارسهم تضاء بالكهرباء الوطنية السورية"[٢٠٥].

[٢٠٤] - خالد بن إبراهيم بن عبد الله الذبيان، م س ذ، ص ص ٢٥٨- ٢٦٠.
[٢٠٥] - نفس المصدر، ص ص ٢٦٣- ٢٦٤.

أما الاتجاه الإسلامي: فقد خلط في تأثره بالكتاب بين الطريقتين العملية والنظرية، أما العملي منه فقد بدا في تأثر الإمام النائيني (١٢٧٣ - ١٣٥٥ هـ/ ١٨٥٧ - ١٩٣٦ م) أحد المرجعيات الدينية الإصلاحية في إيران بكتاب الكواكبي حول طبائع الاستبداد أثناء انخراطه في الحركة الدستورية بإيران، وهو ما دفعه فيما بعد إلى تأليف كتاب حول الاستبداد والحكم الشوري الدستوري كعلاج له، حيث كان كتاب "طبائع الاستبداد" قد ترجم بعد نشر الطبعة الأولى منه بثلاث سنوات إلى اللغة الفارسية على يد "عبد الحسين الحلي" والذي كان معتمدا من قبل "آية الله النائيني" وصاحبه "الخراساني" (١٢٥٥ - ١٣٢٩ هـ/ ١٨٣٩ - ١٩١١ م) الذي تأثر به فقام بثورته على الأسرة القاجارية عام ١٣٢٣ هـ/ ١٩٠٥ م، لكن الكتاب كان قد نشر رسميا

بطهران عام ١٣٢٥ هـ/ ١٩٠٧ م[٢٠٦]. أما المظهر الثاني للتأثر العملي فيبدو في وضع الإمام حسن البنا مؤسس جماعة الإخوان المسلمين لكتابي الكواكبي ضمن المنهج الثقافي للإخوان.

من هذين المظهرين العمليين يأتي التأثير النظري للكتاب الذي يمكننا أن نرصده من خلال كتابين تناولا نفس القضية على الأرضية الإسلامية في بلدين مختلفين، وهو ما لم يكن ليحدث لولا تأثر صاحبيهما بكتاب الكواكبي بشكل مباشر أو غير مباشر، ربما لتشابه صاحبيهما مع الكواكبي في الروح الأبية التي ترفض الضيم، وفي النظرة النقدية لأوضاع المسلمين الدينية ولفهمهم لدينهم مما أوقعهم فريسة الاستبداد، وهذان الكتابان هما: كتاب "تنبيه الأمة وتنزيه الملة" للإمام النائيني، وهو معاصر للكواكبي، وقد صدر كتابه ذلك عام ١٣٢٥هـ/

[٢٠٦] - سعد زغلول الكواكبي، م س ذ، ص ص ١١٧- ١١٨.

١٩٠٧ م، أي بعد صدور كتاب الكواكبي بخمسة أعوام، وكتاب: "الإسلام والاستبداد السياسي" للشيخ محمد الغزالي، والذي صدر في نهاية الأربعينيات من القرن العشرين، ويمكننا أن نقارن بين هذه الكتب الثلاثة وبحثها في الاستبداد من خلال النقاط الأربع التالية:

- **الكتاب بين التأثر والتأثير:**

- أما الكواكبي: فقد هضم المصادر الغربية والتركية والعربية في كتابه وقدمها على الأرضية الإسلامية، وتدارس ما توصل إليه في جلسات تداول الشأن العام، وبدا فيه متأثرا بما عايشه من الاستبداد في ولاية حلب من ولايات الدولة العثمانية.
- أما النائيني: فقد هضم كتاب الكواكبي وضم إليه ما استفاده من مصادر مذهبية وفلسفية، وتداول الأمر مع رفقائه في الحركة الدستورية الإيرانية، إضافة إلى

تأثره بما عايشه من استبداد الشاهانية الإيرانية ومالأتها للأطماع الغربية في بلاده[٢٠٧].

- أما الغزالي: فقد قرأ كتابي الكواكبي ضمن المنهج الثقافي الذي وضعه الإمام حسن البنا لجماعة الإخوان المسلمين وتأثر بهما، وبخاصة بكتاب طبائع الاستبداد، وقد ألقى كتابه حول الاستبداد بحثا على معتقلي الإخوان في الطور، وبدا فيه متأثرا بمطالعته لأحوال الأمم الغربية ومنفعلا باحتلال الغرب لبلاده إضافة إلى ما عايشه من استبداد الحكم الملكي في مصر[٢٠٨].

- **أسلوب معالجة قضية الاستبداد:**

- الكواكبي: عالجها بأسلوب الكاتب الصحفي ذو الاطلاع الواسع على مجريات عصره وأدبياته الغربية منها مع ثقافة إسلامية عميقة، وتمتع فيه بنظرات عميقة تجعله من رواد علم الاجتماع السياسي، فتناول القضية

---

٢٠٧ - طالع التفصيل في: آية الله المحقق النائيني، تنبيه الأمة وتنزيه المله، تعريب عبد الحسن آل نجف، حققه وكتب المدخل إليه عبد الكريم آل نجف، قم، مؤسسة أحسن الحديث، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ

٢٠٨ - طالع التفصيل في: محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، القاهرة، دار الكتاب العربي، ب ت

في عمومها وشمولها دون التقيد بمذهب ودون التركيز فقط على الجوانب السياسية دون غيرها، وإن بدا فيه انتماؤه الإسلامي الذي لا لبس فيه.

- النائيني: عالجها بأسلوب الفقيه المذهبي فقصر المعالجة على أوضاع بلاده وأهل مذهبه وتناول الموضوع من زاوية أكثر ضيقا من زاوية تناول الكواكبي للأمر، حيث ركز فيه على إثبات مشروعية الحكم الشوري الدستوري من وجهة النظر الإمامية إزاء المشككين في مشروعيتها.
- الغزالي: عالجها بأسلوب الداعية المهموم بقضايا أمته، وتناول الموضوع في عموميته دون التقيد بمذهب أو جغرافيا، وإن كان تناوله على أرضية إسلامية أكثر من زميليه كما يكشف عن ذلك عنوان الكتاب وطرق استدلاله على الآراء، وبدا فيه أقرب إلى روح الكواكبي الثورية ونظراته العميقة من النائيني، وعرج من موضوع الاستبداد إلى قضية الحرية في الإسلام

وانعكاساتها في موضوعات شتى، وإن كان أقل شمولا أيضا في تناول الموضوع من الكواكبي.

- **كيف قدم الحل لمشكلة الاستبداد؟**

- الكواكبي: حرص على تقديم الحل مفصلا ومحدد الخطوات، وإن كان صعب المنال.
- النائيني: حرص أيضا على تقديم حل لمشكلة الاستبداد في خاتمة الكتاب، فوضع ما أسماه منابع الاستبداد وقواه الملعونة في أربعة أسباب: الجهل وعدم إطلاع الشعب على حقوقه ووظائف الدولة واعتبره الأصل والمنشأ، وقوة الاستبداد الديني، واعتبره أخطر من باقي القوى وأصعب في العلاج إلى حد الامتناع، والتزلف للسلطان وإظهار الخضوع له وهو ما أسماه الكواكبي بالتمجد، وإلقاء الخلاف بين الشعب وتفريق كلمته، والإرهاب والتخويف والتعذيب، ورسوخ رذيلة الاستبداد إزاء الضعفاء في جبلة الأقوياء، ومصادرة إمكانات البلاد المالية والعسكرية وتكريسها

للقضاء على نفس الشعب، ثم حاول أن يطرح علاجا لمنابع الاستبداد تلك وإن بدا فيه لا يقدم حلولا محددة المعالم في نقاط، فبدا كلامه أقرب إلى الكلام العام، وإن بدا في كتابه عامة في شرحه للحكومة الدستورية أقرب إلى تقديم الحل العملي المفصل من ذلك الكلام العام في الفصل الختامي.

- الغزالي: لم يقدم حلا منفصلا لمشكلة الاستبداد وإن بدا الحل مبثوثا هنا وهناك في كتابه، وركز فيه على أن الحل في العودة إلى الإسلام الصافي الخالي من الشوائب التي علقت بفهمه طوال عهود الاستبداد، كما ركز في الفصل المعنون بـ: مكمن الداء على الأسباب الأخلاقية للاستبداد كالكذب والطمع والنفاق والكبرياء، والرياء بين السادة والأتباع، والتبذير من أقوات الشعوب، وهو ما يتوافق مع تصوره للحل.

- **حول علاقة الاستبداد بالاستعمار:**

- الكواكبي: مر على الأمر مرور الكرام في فصل الاستبداد والترقي.
- النائيني: أشار إلى الاستعمار كنتيجة حتمية للاستبداد في فصله المعنون بـ: وظيفة المسلمين السياسية في عصر الغيبة.
- الغزالي: حمل الكتاب رؤى نقدية للغرب في استعماره لبلدان الشرق بشكل واضح وبتركيز كبير في أماكن عدة من كتابه.

كتاب

الإسلام دين الفطرة والحرية

للشيخ "عبد العزيز جاويش"

١٩٠٥

"زارني ذات يوم وأنا في أكسفورد من بلاد الانجليز لفيف من نجباء طلبة العلم في كليتها الجامعة، فما كاد يستوي بهم المجلس حتى أخذنا نتحادث في أمر الشرق والشرقيين وما لهم من الأخلاق والعادات والأحوال التي تباين في كثير من الوجوه ما عليه أهل أوروبا حتى أفضى بنا المقام إلى الكلام في الإسلام فوجدت من خلال حديث القوم أنهم لا يكادون يفقهون للإسلام معنى سوى أنه الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات، وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح بن مريم، وما زادوني فيهم بصيرة، فلطالما قابلت من أمثالهم ما أوقفني على مبلغ علم معظم القوم بهذا الدين الحنيف. فأخذت إذ ذاك أبين لأولئك الأفاضل، أصول الدين الإسلامي وقواعده وحكم بعض تكاليفه.."[٢٠٩] بهذه الحكاية استفتح عبد العزيز جاويش (١٨٧٦ - ١٩٢٩م/

[٢٠٩] - عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة، تقديم فتحي رضوان، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٧، ص ٥٣.

١٢٩٣ - ١٣٤٧هـ) كتابه "الإسلام دين الفطرة"، وهي الحكاية التي تضعنا أمام ملمح من حياة الشيخ جاويش ومرحلة من مراحل تلك الحياة الحافلة، كما أن الحكاية تنم عن بعض ملامح العصر الذي عاش فيه والظروف التي وضع فيها كتابه هذا والذي بدا فيه متأثرا في آرائه وتوجهاته فيه بأستاذه في الإصلاح الإسلامي الشيخ محمد عبده (١٨٤٩ - ١٩٠٥م/ ١٢٦٥ - ١٣٢٢هـ)، وفي السطور التالية نفصل في كل دلالات الحكاية وموضعها من حياة الشيخ جاويش والظروف والملابسات التي مرت بها حياته تلك، وفي أي طور من أطوار تلك الحياة جاء الكتاب، كما سنحاول رسم ملامح ذلك الكتاب وما فيه من آراء وأفكار.

حياة جاويش في حياة وطنه وأمته

مرت حياة جاويش بحياة الوطن والأمة خلال ثلاثة وخمسين عاما، وخلال تلك الفترة شهد الوطن المصري، والأمة ممثلة في الدولة العثمانية تقلبات خطيرة، كما شهدت حياة جاويش الكثير من التقلبات والأدوار اشتبك خلالها مع أحداث وطنه وأمته وكان له منها وفيها مواقف، وعليه فسوف نسبر أغوار حياة صاحب الكتاب[٢١٠] (جاويش) في مراحلها المختلفة وعلاقتها بمراحل حياة الوطن والأمة.

---

[٢١٠] - هناك العديد من الكتب والمقالات وفصول الكتب التي دونت عن حياة الشيخ عبد العزيز جاويش والتي يمكن الرجوع إليها للاستزادة، فمن فصول الكتب:

- محمد عبد المنعم خفاجي، قصص من التاريخ، القاهرة، المطبعة المنيرية، الطبعة الأولى، ١٩٥٦، ص ٤٩ - ص ٨٧.
- عباس محمود العقاد، رجال عرفتهم، القاهرة، دار الهلال، الطبعة الأولى، ١٩٦٣، ص ١٧٥ - ص ١٨٠.
- جمال الدين الشيال، أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي، دار المعارف بمصر، ١٩٦٥، ص ٢٥٨ - ص ٢٧٠.
- نقولا يوسف، أعلام من الإسكندرية، منشأة المعارف بالإسكندرية، ١٩٦٩، ص ٢٤٩ - ص ٢٥٠.
- فتحي رضوان، مشهورون منسيون، القاهرة، دار أخبار اليوم، سلسلة كتاب اليوم العدد ٢٧، أكتوبر ١٩٧٠، ص ٢٥ - ص ٥٤،
- فتحي رضوان، دور العمائم في تاريخ مصر الحديث، القاهرة، الزهراء للإعلام العربي، الطبعة الأولى، أبريل ١٩٨٦، ص ١٠٧ - ص ١٢٩.

ومن الكتب: - حسن الشيخة، عبد العزيز جاويش، القاهرة، المؤسسة العربية للطباعة والنشر، الألف كتاب، عدد ٣٥٧، ١٩٦١.

- أنور الجندي، عبد العزيز جاويش من رواد التربية والصحافة والاجتماع، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، سلسلة أعلام العرب عدد ٤٤، ب ت.
- حسين فوزي النجار، الشيخ عبد العزيز جاويش معلما ومربيا ١٨٧٦ – ١٩٢٩، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة المكتبة الثقافية، العدد ٤٤٢، ١٩٨٨.

ويمكننا أن نتناول حياة عبد العزيز جاويش من خلال خمس مراحل:

- المرحلة الأولى من مولده عام ١٨٧٦م/١٢٩٣هـ حتى قدومه إلى القاهرة عام ١٨٩٢م/١٣٠٩هـ
- المرحلة الثانية تنتهي بتوليه رئاسة تحرير جريدة اللواء عام ١٩٠٨م/ ١٣٢٦هـ
- المرحلة الثالثة تنتهي بخروجه من مصر عام ١٩١٢م/ ١٣٣٠هـ
- المرحلة الرابعة تنتهي بعودته إلى مصر متخفيا عام ١٩٢٣م/١٣٤١هـ
- المرحلة الخامسة تنتهي بوفاته عام ١٩٢٩م/١٣٤٧هـ

المرحلة الأولى: ميلاد في رحم المسألة المصرية (١٨٧٦ - ١٨٩٢)

ولد عبد العزيز جاويش في ٣١ أكتوبر ١٨٧٦م (١٣ شوال ١٢٩٣هـ) بالإسكندرية، لأسرة قدمت من بنغازي بليبيا وكانت تعمل بالتجارة في سوق المغاربة، وقد قيل أن جده حسن جاويش قد مضى من جنوب تونس[٢١١] مع غيره متنقلين بالتجارة حتى بلغوا "بنغازي" فاستقروا فيها وأصهروا إلى أهلها حيث ولد بها والده خليل جاويش سنة ١٨٣٤ الذي قدم الإسكندرية فاستقر بها وتزوج منها وأنجب ولده عبد العزيز وإخوته (محمد وأحمد وعبد اللطيف) الذين اختارهم للتجارة بينما اختار عبد العزيز طريق العلم حيث حفظ القرآن وتعلم أصول اللغة العربية وأخذ من الثقافة الإسلامية ولما أراد أهله أن يثنوه عن مواصلة مسيرة التعليم

[٢١١] - هناك خلاف بين من كتبوا عن جاويش عن مكان ولادته وأصل أسرته، إذ أشار أغلب من كتبوا إلى أنه قد ولد بالإسكندرية (خفاجي، الشيال، نقولا، الجندي، الشيخة، النجار) بينما أشار فتحي رضوان منفردا في كتابيه إلى أن ولادته كانت في بنغازي بليبيا عام ١٨٧٢ إلا أنه عاد وصحح تلك المعلومة في مقدمته لطبعة الزهراء لكتاب جاويش "الإسلام دين الفطرة"، إلا أنه أكد في تلك المصادر جميعا أن أسرته تنتمي لهذا البلد (ليبيا)، ونفى في كتابه "دور العمائم.." الأصل التونسي للأسرة قائلا: "قد كان الذائع بيننا أن الشيخ "تونسي" ولم نعرف أنه ليبي إلا حينما أرخ له المؤرخون قريبا" (المصدر سابق الذكر، ص ١١٣)، إلا أن رضون لم يذكر هؤلاء المؤرخون ومن هم وأين كتبوا تصحيح هذا الخطأ الشائع.

أقام في مسجد الشيخ إبراهيم الذي كان يتعلم فيه إلى أن سمح له والده بالسفر إلى القاهرة ليجاور في الأزهر الشريف فسافر في صحبة صديق صباه حسن منصور - أحد أساتذة دارالعلوم فيما بعد - فوصل القاهرة عام ١٨٩٢م/١٣٠٩هـ حيث بدأ حياته الجديدة[٢١٢].

هذا هو الدور الأول من حياة جاويش، فماذا كانت الصورة في حياة الوطن؟

في نفس تلك الفترة تجمعت عوامل عدة تداخلت فيها سياسات الدول الأوروبية تجاه مصر باعتبارها جزءا من الدولة العثمانية وباعتبار مكانها الجغرافي، كما تداخت فيها بعض عوامل التغير الداخلي السياسية والاقتصادية والاجتماعية لتصنع صورة مستقبل مصر في الفترات التي

---

[٢١٢] - أنور الجندي، م س ذ، ص ص ٣٦ - ٣٩.

تلت ذلك والتي تمثل تصاعد دور جاويش في التفاعل مع الواقع المصري والعثماني على كل من الصعيد السياسي والاجتماعي والتعليمي، وتتمثل مفردات تلك العوامل المتداخلة في تلك المرحلة في التالي:

- تلاحق الأحداث عام ١٨٧٦م/١٢٩٣هـ في تصاعد أزمة الديون المصرية التي تورط فيها الخديو إسماعيل (١٨٦٣ - ١٨٧٩م/١٢٧٩ - ١٢٩٦هـ) وورط فيها البلاد: و"مسألة الديون هي الجانب المظلم من تاريخ إسماعيل، لأنها المأساة التي انتهت بتصدع بناء الاستقلال، وتدخل الدول في شئون البلاد المالية والسياسية"[٢١٣]، وقد توالت الأحداث في هذا الملف وتصاعد تدخل بريطانيا وفرنسا في شئون مصر، إلى أن انتهى الأمر بخلع الخديو إسماعيل في ٢٦ يونيو

[٢١٣] - عبد الرحمن الرافعي، عصر إسماعيل، الجزء الثاني، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨٧، ص ٣٣.

١٨٧٩م/٧ رجب ١٢٩٦هـ وتولية ابنه توفيق بناء على فرمان من الدولة العلية بإيعاز من الدولتين.

- دخول الحياة النيابية في مصر إلى طور جديد بانتخاب الهيئة النيابية الثالثة، وذلك بعد أن مضى على الحياة النيابية عشرة أعوام منذ تأسيس "مجلس شورى النواب" عام ١٨٦٦م/١٢٨٢هـ، تخللها عامين من توقف العمل "عامي ١٨٧٤ و١٨٧٥، وبانتخاب تلك الهيئة الثالثة "دخلت الحياة النيابية عصرا جديدا يمتاز بظهور روح النهضة والمعارضة في نفوس النواب، وبدت هذه الروح في مناقشاتهم وأعمالهم ومواقفهم، وأخذت مظاهر الحياة والنشاط ترتسم في أفق المجلس بعد أن كان يخيم عليه في الأدوار السابقة شيء من الخمول والجمود"[٢١٤].

- نشوء الصحافة العربية في مصر: كانت صحيفة "وادي النيل" التي أنشأها أبو السعود أفندي عام ١٨٦٦ هي

[٢١٤] - نفس المصدر، ص ١٣٨.

أول الصحف السياسية غير الرسمية، كما كانت جريدة "الوطن" لميخائيل عبد السيد عام ١٨٧٧ أول جريدة قبطية[٢١٥]، وفي عام ١٨٧٥ صدرت جريدة الأهرام كأحد أهم الصحف السورية السياسية الصادرة في مصر لصاحبيها سليم وبشارة تقلا، وتلتها جريدة المحروسة لصاحبيها أديب إسحق وسليم نقاش عام ١٨٧٦، وبعد الاحتلال البريطاني لمصر وصدور قانون المطبوعات عام ١٨٨١ انقسمت الصحف العربية الصادرة إلى أقسام تحزب بعضها للدولة العثمانية على الإنجليز، والبعض لفرنسا على الإنجليز، والبعض الآخر أخذ جانب الإنجليز، وأول الصحف التي أخذت جانبهم بمصر جريدة "الزمان" ثم "المقطم"[٢١٦] فامتعض الوطنيون منها، فأنشأوا جريدة

[٢١٥] - جرجي زيدان، تاريخ آداب اللغة العربية، الجزء الرابع، مراجعة وتعليق شوقي ضيف، القاهرة، دار الهلال، ب ت، ص ص ٥١ – ٥٥.

[٢١٦] - أنشأها كل من فارس نمر ويعقوب صروف وهما لبنانيين من أصول أرثوذكسية، تعلما تعليما أمريكيا في لبنان وتحولا إلى البروتستانتية وقدما إلى مصر وأسسا مجلة المقتطف عام ١٨٧٦ في لبنان، ثم انتقلا إلى مصر عام ١٨٨٢ وأعادا إصدار المجلة، وأضافا إليها جريدة "المقطم" عام ١٨٨٩، حول نمر وصروف طالع المصدر السابق، ص ص ٢٠٣ – ٢٠٧، ثم ٢١٣ – ٢١٦.

المؤيد في العام التالي لمحررها الشيخ علي يوسف، و(كان) ظهور المؤيد خطوة كبيرة في الصحافة الوطنية لأنها أول الجرائد الوطنية الكبرى في هذا الدور من أدوار الصحافة، وهي التي مهدت السبيل لغيرها من الجرائد الوطنية الإسلامية[٢١٧].

- الأفغاني ويقظة الوعي: عندما ولد جاويش كان قد مضى على إقامة الأفغاني في مصر خمسة أعوام، وقد "تعرف إليه في بادئ الأمر طائفة من طلبة العلم، ثم اختلف إليه كثير من الموظفين والأعيان، ثم انتشر عنه ما تخالفت آراء الناس فيه من أفكار وعقائد، فكان ذلك داعيا إلى رغبة الناس في الاجتماع به لتعرف ما عنده، وكانت مدرسته بيته..فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية، وكان يحضر دروسه كثير من طلبة العلم، ويتردد على مجالسه كثير من العلماء وغيرهم، وهو في جميع أوقات اجتماعه بالناس، لا يسأم من الحديث

[٢١٧] - جرجي زيدان، مصدر سابق، ص ص ٥٦ – ٥٨.

فيما ينير العقل، ويطهر العقيدة، أو يذهب بالنفس إلى معالي الأمور، أو يلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة مما يمس مصلحة البلاد وسكانها (..) فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد"[٢١٨]، والشيخ عبد العزيز جاويش ما هو إلا نبت غير مباشر لمدرسة الأفغاني خاصة في رؤاه وآرائه في التجديد الإسلامي كما سنرى.

- الثورة العرابية والاحتلال البريطاني: ظلت الروح الوطنية المصرية تتصاعد، فاصطدمت بروح متشربة بالاستبداد في الحكم، وقوى استعمارية متربصة تنتظر وتختلق المبررات لتنفيذ سياساتها، وهو ما تجلى في مشهد الثورة العرابية التي بدأت أحداثها بداية عام ١٨٨١ والتي انتهت أحداثها بالاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢، وإذا كان المقام ليس مقام الخوض في

[٢١٨] - محمد عبده، الثائر الإسلامي جمال الدين الأفغاني ورسالة الرد على الدهريين، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٩، ص ص ٨- ٩.

تفاصيل حوادث الثورة والاحتلال إلا أن المتيقن أن المسألة المصرية كانت "أول مسألة حيوية للدولة العلية والخلافة العثمانية"[٢١٩].

وهو ما يدعونا لإلقاء الضوء على: الملامح العامة للصورة الأكبر من حياة الأمة ممثلة في الدولة العلية في الفترة الأولى من حياة جاويش:

- السلطان عبد الحميد والمسألة الشرقية: كان القسم الأكبر من حياة جاويش موازيا لفترة تولي السلطان عبد الحميد الثاني للحكم ما بين عامي ١٨٧٦ و١٩٠٩، وهي فترة اختلف حكم المؤرخون عليها، إلا أن القدر المتيقن حول تلك الفترة، أنها كانت فترة إنفاذ ما سمي بـ "المسألة الشرقية" و"هي مسئلة النزاع القائم بين بعض دول أوروبا

[٢١٩] - عبد الرازق عيسى وعبير حسن، المؤلفات الكاملة لمصطفى كامل، الجزء الأول المسألة الشرقية، القاهرة، العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠١، ص ٣٣٩، ويمكن مطالعة عرض لأحداث الثورة والاحتلال في نفس المصدر، ص ص ٢٨٣، ٣٤٠.

وبين الدولة العلية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطانها، وبعبارة أخرى هي مسئلة وجود الدولة العلية نفسها"[٢٢٠]، وكان السلطان عبد الحميد قد تولى "العرش في ظروف متناهية في ظلامها وقسوتها" إذ "ندر أن تولى سلطان من سلاطين آل عثمان الحكم وسط صعاب أكثر خطورة على مركزه من الأخطار التي تعرض لها عبد الحميد الثاني من يمين ويسار"[٢٢١]، "فقد تسابقت الروسيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا على اقتسام الولايات العثمانية (..) فكان على الدولة أن تواجه خمس دول أوروبية كبرى وقفت موقفا عدائيا منها" كما تسابقت تلك الدول في إثارة رعايا الدولة العثمانية عليها بهدف إضعافها في تلك المواجهة "ولولا أصالة الدولة وعراقتها وشموخها لأصبحت

---

[٢٢٠] - نفس المصدر، ص ٩٧.

[٢٢١] - عبد العزيز محمد الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، الجزء الثاني، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ٢٠٠٤، ص ٣٠٧.

هباء منثورا وطويت صفحتها في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن وتكتلات أوروبية أكثر من قرنين من الزمان (..) ونتيجة لهذا الزحف الاستعماري الضاري، ونتيجة للضعف الشديد الذي انتاب الدولة، وهو ضعف لم يكن عبد الحميد مسئولا عنه لأنه ورث العرش كما ورث هذا المرض، غدت ممتلكات الدولة نهبا بين الدول الأوروبية الكبرى[٢٢٢].

المرحلة الثانية: نضوج بين احتلال ووطنية (١٨٩٢ - ١٩٠٨)

[٢٢٢] - نفس المصدر، ص ص ٣٠٣ - ٣٠٤.

حينما وصل جاويش إلى القاهرة عام ١٨٩٢ وجد أمامه مجالا واسعا لمطامحه وتطلعاته الثقافية والوطنية، فقد كانت جريدة "المؤيد" مجالا مفتوحا للمثقفين، يردون مورد الشيخ علي يوسف، وفي القاهرة أيضا التحق بالأزهر لكن لم يطل مكثه فيه إلا عامين، حيث التحق بمدرسة دار العلوم التي تخرج منها عام ١٨٩٧م/١٣١٥هـ بدرجة عالية أهلته للبعثة إلى الغرب بعد فترة قصيرة من التدريس في مدرسة الزراعة[٢٢٣]. حيث سافر إلى بريطانيا وأمضى ثلاث سنوات في جامعة برودود[٢٢٤] تلقى فيها دراسات تربوية منوعة[٢٢٥]، عاد منها عام ١٩٠١م/١٣١٩هـ حيث عين مفتشا للكتاتيب في وزارة المعارف، وقد أصدر خلال فترة عمله تلك كتابين أولهما "غنية

---

٢٢٣ - أنور الجندي، م س ذ، ص ص ٤١-٤٦.

٢٢٤ - يبدو أن هناك خطأ شائع بين جميع من كتبوا عن حياة جاويش في كتابة اسم الجامعة التي سافر إليها حيث كتبوها جميعا "بروورود" حتى فتحي رضوان في كتابيه، إلا أنه في مقدمة كتاب "الإسلام دين الفطرة" كتب اسم الجامعة كما دوناها في المتن.

٢٢٥ - نفس المصدر، ص ٤٧.

المؤدبين" وثانيهما "مرشد المترجم" وقد دل صدور هذين الكتابين عنه عقب عودته من لندن، وقبل أن يطول عهده بالتعليم والتدريس، على مدى امتلاء نفسه بالرغبة في أن يحدث تغييرا في وطنه، وعلى نفاذ صبره من عجز وسائل التربية في مدارس مصر"[٢٢٦]، والتحق بعد عودته بندوة الشيخ محمد عبده في منزله بعين شمس والتي كانت تضم عشرات من تلاميذه، غير أن عمله بالتربية والتعليم في مصر لم يطل حتى اختير ليعمل مدرسا للغة العربية في جامعة أكسفورد[٢٢٧] بتوصية من المستشرق مرجليوث، حيث أمضى هناك خمسة أعوام (١٩٠٢- ١٩٠٦م/١٣٢٠ - ١٣٢٤هـ)[٢٢٨]. وخلال فترة عمله بأكسفورد اختير عضوا في مؤتمر

[٢٢٦] - فتحي رضوان، من مقدمة كتاب عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة، م س ذ، ص ١٥.

[٢٢٧] - يذكر رضوان في كتابه "دور العمائم.."أن جاويش قد ذهب إلى جامعة كمبريدج، غير أنه يذكر في كتابه الآخر وفي مقدمته لكتابنا هذاتصحيح هذا الخطأ، وأن الجامعة التي سافر إليها كانت جامعة أكسفورد كما يذكر جاويش نفسه في مقدمة كتابه هذا، وقد حقق محمد عبد المنعم خفاجي هذا الأمر في كتابه سابق الذكر فطالعه، ص ص ٥٨ – ٥٩.

[٢٢٨] - أنور الجندي، م س ذ، ص ٥٠.

المستشرقين الذي عقد في الجزائر عام ١٩٠٥م/١٣٢٣هـ وقد قام المسيو فولرس الألماني الذي كان يوما مديرا لدار الكتب المصرية فألقى خطابا عن اللغة الفصحى واللغات العامية تطرق فيه إلى الاستنتاج بأن القرآن الكريم ليس بفصيح، بل إنه أول كتاب كتب بالغة العامية. فما لبث جاويش أن طلب الرد على فولرس فأعطيت له الكلمة في جلسة ٢٢ أبريل سنة ١٩٠٥م/ ١٨ صفر ١٣٢٣هـ فأخذ يفند المقدمات التي بنى عليها فولرس كلامه فأبان فسادها بالمرة من الوجهة اللغوية، ثم تكلم عن تاريخ جمع القرآن وتوزيع نسخه في البلاد الإسلامية وإعجازه وبلاغته "التي لولاها لما آمن به العرب (..) وقد بهر جاويش السامعين بحديثه الذي وصفه محمد فريد – أحد شهود المؤتمر – ببلاغة العبارة وجزالة المعنى "فصفق له الحضور مرارا وشهدوا له بقوة الحجة ومتانة البرهان". "فلما انتهى المؤتمر تحدث محمد فريد إلى مصطفى كامل طويلا عن

الشيخ عبد العزيز، ومواهبه الفائقة، وشخصيته الفريدة، فأحبه مصطفى على البعد"[٢٢٩] ومن ثم راسله الأخير وهو في باريس لزيارته في بريطانيا فتم اللقاء عام ١٩٠٦ والذي حضره كل من الدكتور محجوب ثابت ومحمود أبو النصر وفؤاد المنشاوي، وعرض عليه خلال اللقاء تولي تحرير اللواء واعتزامه إصدار صحيفتين أخريين بالإنجليزية والفرنسية[٢٣٠]، وبعد أن عاد جاويش من أكسفورد عام ١٩٠٦ عين مفتشا في وزارة المعارف عاما وبضع عام حتى استقال في أواخر أبريل ١٩٠٨ ليرأس تحرير اللواء[٢٣١]. وكما نرى فقد تراوحت حياته

[٢٢٩] - فتحي رضوان، م س ذ، ص ص ١٧ – ١٨. وفي كتابه دور العمائم في تاريخ مصر الحديث يروي فتحي رضوان رواية أخرى، إذ يقول أن محمد فريد حينما التقى جاويش عقب كلمته عرض عليه "أن يترك وظيفته ويلحق بركب المجاهدين، الذي يتزعمه ويشق له الطريق مصطفى كامل ولم يتردد الرجل في أن يقبل العرض، وسافر مع محمد فريد إلى لندن حيث قابلا مصطفى كامل"، طالع الكتاب في طبعته الأولى، الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦، ص ص ١٢٠ – ١٢١.

[٢٣٠] - أنور الجندي، م س ذ، ص ٦٢، يذكر جاويش تاريخا لهذا اللقاء عام ١٩٠٥ غير أن الأرجح أن اللقاء تم خلال زيارة مصطفى كامل لبريطانيا في يوليو من عام ١٩٠٦ بعد صدور أحكام دنشواي، وما يؤكد ذلك أن صور الصحيفتين كان أوائل عام ١٩٠٧، وعودة جاويش كانت في نهايات ١٩٠٦.

[٢٣١] - فتحي رضوان، ص ص ٥٥ – ٥٧.

في تلك الفترة بين التعلم والتعليم الذي أصبح أحد أهم المحاور التي ركز عليها في حياته.

ولكن ماذا كانت صورة الوطن والأمة في نفس تلك الفترة؟ خلال تلك الفترة من عمر جاويش تبدت ملامح صورة الوطن في عدة عناصر:

أولا: نشوء الحركة الوطنية:

كان مصطفى كامل هو باعث الحركة الوطنية بعد هزيمة عرابي، وقد بدأ وعيه الوطني يبرز منذ عام ١٨٩٠ لكنه كرس حياته من أجل إحياء روح الوطنية والاستقلال والنهضة في نفوس الأمة، ومن أجل الدعوة والدفاع عن قضية بلاده بعد حصوله على شهادة الحقوق متخذا من الخطابة والكتابة في الداخل والخارج ومن بعض المشروعات التي تحقق أفكاره وسيلة، فأسس جريدة اللواء عام ١٩٠٠

وأول مدرسة أهلية عام ١٨٩٩، ونادي المدارس العليا عام ١٩٠٦ ثم أسس الحزب الوطني رسميا عام ١٩٠٧. وفي المقابل كان الخديو عباس حلمي الثاني الذي تولى الحكم في يناير من عام ١٨٩٢ ميالا في بداية حكمه إلى دعم الحركة الوطنية ماليا ومعنويا، لكن علاقته بالحركة الوطنية وزعيمها مصطفى كامل انتابها الفتور بداية من عام ١٨٩٨ إلى أن قطعت تماما عقب الاتفاق الودي بين انجلترا وفرنسا عام ١٩٠٤، وذلك نتيجة "لعدم ثبات الخديو على خطة واحدة في موقفه من الاحتلال واستماعه إلى الوشايات والدسائس"[٢٣٢].

ثانيا: الاحتلال وسياسته التعليمية:

كما شهدت تلك الفترة ذروة نشاط الاحتلال البريطاني في عهد اللورد كرومر ومثلت سياسات الاحتلال أكبر استفزاز

[٢٣٢] - عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٨٤، ص ص ٣٤٢- ٣٤٥.

للوطنيين في مصر، وذلك بأن "تم استيلاء الانكليز على الإدارات المصرية وملئها بالموظفين الانكليز الذين يقبضون المرتبات العالية وسلمت أغلب الوظائف الباقية إلى أناس لا آراء لهم أو رجال لا يعرفون لهم أوطانا ورفت ويرفت على الدوام بلا إشفاق ولا مبالاة كل كاره للاحتلال"[٢٣٣]. وقد نالت تلك السياسات جميع الوزارات ومن ثم جميع جوانب الحياة المصرية، لكن أخطر الميادين التي أفسدوا فيها كان هو ميدان التعليم إذ أصبحت "نظارة المعارف هي الميدان الذي يرى فيه الإنسان أكثر مما يرى في غيره جهاد الانكليز ضد كل ما كان من شأنه سعادة بلادنا أو مجدها"، وقد ارتكزت السياسة التعليمية البريطانية في مصر على أسس من أهمها:نجلزة الإدارة المصرية، والتقتير في تعليم المصريين، وقصر الغرض من التعليم على الإعداد للوظائف، ونشر الثقافة

---

[٢٣٣] - يواقيم رزق مرقص، م س ذ، ص ٨٣.

الإنجليزية في مصر، وتشكيل المناهج التعليمية لتلائم أغراض الاحتلال التعليمية[٢٣٤]، كل ذلك جعل التعليم هو "الميدان الذي تصارعت فيه القوى الوطنية مع سلطات الاحتلال، (..) فاتجه الشعب المصري بغريزته نحو تعليم نفسه وبدأ الأفراد والجماعات يتسابقون لإنشاء المدارس الوطنية الأهلية ليعوضوا النقص والتقتير الذي قصده الاحتلال وقد تناولت هذه الجهود الوطنية جميع مراحل التعليم وتنوعت حتى فاقت الجهود الحكومية في هذا الميدان"[٢٣٥].

ثالثا: صحف وأحزاب ومواقف:

خلال تلك الفترة من حياة الوطن أدى الموقف من الاحتلال والقصر ومن قضية الهوية والانتماء والإصلاح الإسلامي إلى فرز الاتجاهات داخل النخبة المصرية، وقد

[٢٣٤] - جرجس سلامة، أثر الاحتلال البريطاني في التعليم القومي في مصر (١٨٨٢ – ١٩٢٢)، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٦٦، ص ٤.

[٢٣٥] - نفس المصدر، ص ٣٨٩.

عبرت تلك الاتجاهات عن نفسها بإصدار الصحف وتأسيس الأحزاب، فعلى صعيد إصدار الصحف:

- صدرت خلال تلك الفترة صحف: "الأستاذ" للسيد عبد الله النديم ١٨٩٢ صحيفة مناهضة للاحتلال على طول الخط، والتي ما لبثت أن تعطلت، ثم "المنار" للسيد رشيد رضا عام ١٨٩٨ صحيفة تضع الإصلاح الإسلامي في أولوية اهتماماتها، ثم "اللواء" للزعيم مصطفى كامل عام ١٩٠٠ معبرة عن الحركة الوطنية المناهضة للاحتلال نحط ثابت، ثم "الجريدة" لأحمد لطفي السيد عام ١٩٠٧ المهادنة للاحتلال[٢٣٦]. أما على صعيد الأحزاب فقد ظهرت في تلك الفترة ثلاثة أحزاب فـ"في العام الأخير من عهد كرومر حدثت ظاهرة غريبة في تاريخ الصحافة المصرية، وهذه الظاهرة هي نشأة الأحزاب السياسية في داخل

[٢٣٦] - عبد اللطيف حمزة، قصة الصحافة العربية في مصر، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٢، ص ١٠٠.

الصحف الوطنية (..) وقد تم تأليف هذه الأحزاب بين أكتوبر ١٩٠٦ وسبتمبر ١٩٠٧ بالترتيب التالي:

أولا حزب الأمة وقد نشأ في داخل الجريدة

ثانيا حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية وقد نشأ داخل المؤيد

ثالثا الحزب الوطني وقد نشأ داخل اللواء[٢٣٧].

خلال تلك الفترة أيضا برز الفرز في المواقف من قضية بدت حينا من الزمان على الأقل شعبيا وكأنها من المسلمات، وهو ما عرف حينئذ بـ "الجامعة الإسلامية"، لكن تلك الدعوة التي بدت واحدة في العنوان، لم تكن واحدة في المعنى لدى الداعين لها والمؤمنين بها ولا حتى

[٢٣٧] - نفس المصدر، ص ١٠٩.

المناوئين لها، وإذا كنا لسنا بصدد التأريخ لتلك الحركة، إلا أننا نذكر:

- أن مقصد السلطان عبد الحميد منها كان الحفاظ على كيان الدولة أمام الهجمة الأوروبية، وأمام دعاوى التفكيك الداخلي للدولة[٢٣٨].
- أما الأفغاني فإذا كانت الخلافة وضرورة التمسك بها كنظام ديني وسياسي من بين دعائم فكرته، إلا أنه كان يرى صعوبة خضوع شعوب العالم الأمة الإسلامية لحاكم واحد، فاكتفى بالدعوة إلى قيام روابط محكمة بينها، ويكون لها هدف واحد، قوامها القرآن، وأساسها العدالة والشورى، واختيار خيرة الناس لتولي الأمر، وفي تصور الأفغاني، تأخذ هذه الروابط المحكمة شكل حلف إسلامي بين الدول الإسلامية تتزعمها أكبرها وأقواها[٢٣٩].

---

[٢٣٨] - طالع حول الموضوع: عبد العزيز محمد الشناوي، مصدر سابق، الجزء الثاني، ص ص ٤٤ – ٧٠.
[٢٣٩] - نفس المصدر، ص ص ٥٢- ٥٣.

- أما الشيخ علي يوسف وحزب الإصلاح: فكان ارتباطه بفكرة الوحدة الإسلامية في شكل خلافة راسخا وثابتا من الناحية الدينية فهي عنده "موجودة بوجود العقيدة"، أما من الناحية السياسية فقد أيد الدولة العثمانية باعتبار أن خلافة آل عثمان "أخف الضررين وأهون الشرين مراعاة للمصلحة العامة"، خاصة قبل تولي الاتحاد والترقي، فلما تولى الأخير دعا الحزب من خلال المؤيد إلى "حزب اللامركزية" الذي تأسس في القاهرة، وأصبحت مصر في نظر الحزب بديلا للخلافة العثمانية"[٢٤٠].
- بينما الحزب الوطني: فبقدر ماكان ارتباطه بالدعوة الوطنية كان تمسكه بالجامعة الإسلامية والخلافة العثمانية، في مواجهة الاحتلال، وهو ما عبر عنه جاويش لاحقا في جريدة العلم عام ١٩١٠ كاشفا عن هدف الارتباط "بين أجزاء العالم الإسلامي ممثلة في

[٢٤٠] - نصر الدين عبد الحميد نصر، م س ذ، ص ص ٦٨ – ٧٠.

وحدة الدولة العثمانية، هذا الهدف الذي يتلخص في استنهاض همم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى مجاراة الأمم الراقية في أعمالها ومساعيها، واستنفارهم إلى الاستزادة من نور العلم وتثقيف النفس، وتساءل عما إذا كانت وطنية الحزب الوطني تتعارض مع نهضة المسلمين وحثهم على النهوض بأنفسهم إلى حيث النباهة والرفعة والعلم الصحيح[٢٤١].

- أما حزب الأمة فقد كان يدعو إلى ما أسماه بـ "المصرية"، أما فكرة أن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين فقد اعتبرها "قاعدة استعمارية تنفع كل أمة مستعمرة تطمع في توسيع أملاكها ونشر نفوذها كل يوم فيما حواليها من البلاد" أو أنها "إهدار من الأمم الإسلامية لشخصيتها وعدم اعتراف بما بينها من فروق

[٢٤١] - أنور الجندي، م س ذ، ص ٨٤.

في الأخلاق والعادات، وفي الألسنة واللغات، وفي المنافع والمواطن"[٢٤٢].

في الدولة العثمانية: انتهاء العصر الحميدي:

كان الوضع العام في الدولة العثمانية ينتقل من سيء إلى أسوأ على مستوى استقرار الدولة وسيادتها على أقاليمها، ومنع تفككها وانهيارها، وظل السلطان عبد الحميد يناور وسط كل تلك المؤامرات التي كانت تحيق به في الداخل، والحروب والمعاهدات التي كانت تفرض عليه ٣٣ عاما، لكن تيار الأحداث وحجم المؤامرات كانت أكبر منه ومن قدراته على مقاومتها، فلم يلبث أن "حدث في ١٣ أبريل ١٩٠٩م/٢٣ ربيع أول ١٣٢٧هـ في استانبول اضطراب كبير قتل فيه

[٢٤٢] - حول موقف حزب الأمة من الفكرة، طالع نصر الدين عبد الحميد نصر، مصدر سابق، ص ص ٧٧ – ٨٢.

بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي، وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في عاصمة الدولة نتيجة تدبير أوروبي مع رجال الاتحاد والترقي تحرك على إثره عسكر الاتحاد والترقي من سلانيك ودخل استانبول وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية"[٢٤٣]، وكانت هذه بداية النهاية لدولة الخلافة العثمانية.

المرحلة الثالثة: في خضم الحياة السياسية المصرية (١٩٠٨ - ١٩١٢):

كانت وفاة الزعيم مصطفى كامل (١٠ فبراير ١٩٠٨م/٨ محرم ١٣٢٦هـ) بصفته رئيسا لتحرير "اللواء"، إيذانا بميلاد نجم عبد العزيز جاويش كاتبا صحفيا مشاغبا عمل كرئيس

[٢٤٣] محمد حرب عبد الحميد، مقدمة كتاب: مذكرات السلطان عبد الحميد، القاهرة، دار ألأنصار، ١٩٧٨، ص ص ٤ - ٥.

تحرير لصحف الحزب الوطني "اللواء" والعلم" و"الشعب" فدخل من خلالها معترك الحياة السياسية المصرية إذ ترك منصبه في وزارة المعارف بالرغم من ترغيب سعد زغلول وزير المعارف في ذلك الوقت له في البقاء رغبة منه "في أن يخدم أمته حرا"، ولأنه "رأى معاول الهدم تهدم في بنية هذه الأمة"[٢٤٤]، وافتتح جاويش بمقاله الأول في "اللواء" يوم ٣ مايو ١٩٠٨م/٢ ربيع ثاني ١٣٢٦هـ مرحلة جديدة في حياته قال عنها: "باسمك الله قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ومطيتها الدهان والتلبيس، في أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس، بزيوف الفلوس وتباع الذمم والسرائر بالابتسام وهز الرؤس، وبيمنك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة، حياة الصراحة في القول، حياة الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن

---

[٢٤٤] - أنور الجندي، م س ذ، ص ٦٥.

البلاد العزيزة، بعد أن قضيت في سابقتها ثماني حجج، بلغت بها ذلك المقام الذي كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه، استقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبريا في ميدانها، فإما إلى الصدر، وإما إلى القبر"[٢٤٥].

وقد امتازت هذه الفترة من حياة جاويش بالمعارك التي خاضها، والمحاكمات والاعتقالات التي تعرض لها، كما تميزت بجهوده وآرائه في التعليم والإصلاح الاجتماعي والتجديد الإسلامي، وسوف نرجئ الحديث عن التعليم والإصلاح الاجتماعي وتجديد الفكر الإسلامي إلى القسم الثاني من تلك المقدمة، حيث خاض الشيخ جاويش خلال رئاسته لتحرير اللواء عددا من المعارك الصحفية، وحوكم وسجن أكثر من مرة، من تلك المعارك ما يلي:

---

[٢٤٥] - نفس المصدر، ص ٦٨.

معركة "مذبحة الكاملين": استفتح جاويش هذا النضال في نفس الشهر الذي تولى فيه "اللواء" بثلاثة مقالات عنيفة حول المذبحة التي ارتكبتها القوات الانجليزية في السودان في منطقة الكاملين والتي حكم فيها في محكمة عسكرية مستعجلة على سبعين من أنصار الزعيم السوداني "عبد القادر إمام" بالإعدام شنقا، فثارت ثائرة جاويش وتذكر حادثة دنشواي، ورأى حادثة الكاملين أقبح وأمعن في الظلم، ومن ثم فقد قدم أحد أعضاء مجلس العموم البريطاني سؤالا عما إذا كانت الحكومة المصرية تنوي محاكمة جاويش، ومن ثم حوكم في الثامن من يوليو فبرأته محكمة عابدين في محكمة الاستئناف.

معركة "ظلموك يا سعد": تلا ذلك حملته على سعد زغلول وقت توليه نظارة المعارف وذلك بعد نشر المعتمد

البريطاني تقريره السنوي الذي انتقد فيه الهجوم على دنلوب ممثل السياسة التعليمية للاحتلال متعللا بأن للنظارة ناظرا مستقلا هو سعد زغلول، فكان نشر هذا التقرير إيذانا بحملة في سلسلة مقالات حملت عنوان "ظلموك يا سعد" وكان يعني منها أن الانجليز اتخذوا من اسم سعد وشخصه ستارا يسدلونه على أعمال النظارة، وهذا هو موطن ظلمهم له ولماضيه.

معركة "ذكرى دنشواي": وفي ٢٨ يونيو ١٩٠٩م/١٠ جمادى الثاني ١٣٢٧هـ كتب جاويش مقالا في ذكرى دنشواي شن فيه هجوما على المحاكمة وهيئتها، واعتبرت الحكومة أن فيه قذفا في حق كل من بطرس غالي رئيس المحكمة وفتحي زغلول عضو المحكمة، ومن ثم أحيل للتحقيق

بمقتضى قانون المطبوعات الجديد الذي صدر في مارس من نفس العام، وصدر حكم عليه في أغسطس بالحبس ٣ أشهر.

معركة "ديوان وطنيتي": ففي عام ١٩١٠م/١٣٢٨هـ صدر ديوان وطنيتي للشيخ "علي الغاياتي" وبه مقدمتان إحداهما للشيخ جاويش والأخرى لمحمد فريد تقريظا للديوان، الذي أهدى منه صاحبه نسخة إلى الشيخ علي يوسف صاحب "المؤيد" والذي ما لبث أن كتب في يوليو مقالا يستعدي فيه النيابة على صاحب الديوان، وبالفعل فقد حقق مع جاويش وقدم للمحاكمة ليقضي بالسجن ٣ أشهر مع النفاذ في أغسطس من نفس العام[٢٤٦].

[٢٤٦] - للمزيد حول معارك جاويش طالع: فتحي رضوان، م س ذ، ص ص ١٩ – ٣٧.

هذا وقد دخل جاويش خلال تلك الفترة أيضا في عدد من المساجلات الصحفية مع صحف: المقطم، والجريدة، والمؤيد والمنار في مواقف عدة[٢٤٧].

معركة "الحرب الطرابلسية" والتضييق على جاويش: كان عام ١٩١١ بالنسبة لجاويش عاما من الاضطهاد والترصد، ولمحت فيه لأول مرة كلمة النفي أو الإبعاد. وكانت معركة طرابلس بين الإيطاليين والدولة العثمانية وهي المعركة التي حاربها جاويش بكل قطرة دم في جسده، لم تكفه الكتابات النارية في الصحف ولكنه كان يعمل بهمة يجمع الأموال ويهرب الأسلحة والمجاهدين وكان قد أعد وسائل كفيلة بذلك بواسطة أخوته أحمد وعبد اللطيف التجار في منطقة الضبعة غربي الإسكندرية، (..) وفي أكثر من إشارة بجريدة العلم تكشف عن مراقبة جاويش ومصاحبة رجال البوليس السياسي له

[٢٤٧] - طالع حول تلك المساجلات: أنور الجندي، م س ذ، ص ص ١٠٢ – ١١٥.

مصاحبة الظل (..) ثم تطور الأمر فبدأ الهمس بعزم الحكومة على نفي جاويش بحجة الخوف من أن يحدث فتنة لا تقوى الحكومة على إطفاء لهيبها، كل هذه النذر كانت إرهاصات الهجرة، التي لم تقع إلا في فبراير ١٩١٢م/ صفر ١٣٣٠هـ، عندما بلغت الأمور غايتها من التضييق والتآمر[٢٤٨].

اتهامين ومناقشة: خلال تلك الفترة أيضا من حياة جاويش والمليئة بصخب وغبار المعارك السياسية التي خاضها اتهم اتهامين لابد من تمحيصهما والوقوف عليهما:

- التعصب الديني ضد الأقباط: وهو الاتهام الذي بني على أساس مقاله "الإسلام غريب في بلاده" والذي جاء ردا على حملة جريدة الوطن وهي الصحيفة المعروفة بموالاتها للاحتلال،

[٢٤٨] - لتفاصيل أكثر حول ظروف التضييق طالع نفس المصدر، ص ص ١١٦ – ١٢٠.

وهي تهمة علق عليها الأستاذ فتحي رضوان قائلا "أن نشأة الشيخ ومصادر ثقافته ومعارفه تحول بينه وبين أن يكون هذا الكاتب الأحمق الذي تعبث به آفات التعصب الضيق"، وقد علق جاويش على الحملة قائلا: هاهو ذا جورست يريد أن يقدم لقومه قبل سفره إلى لوندرة ما يثبت لها مهارته، حتى إذا حط بها الرجل، وخلا إلى أولي الأمر فيها قال هأنذا قد نلت ما لم ينله سلفي، ونجحت فيما فشل فيه أستاذي إذ حاول اللورد – كرومر – مرارا التفريق بين عنصري الأمة، وطعن المسلمين بالأقباط والأقباط بالمسلمين، فلم ينجح ولم يفلح، ولكني تمكنت بإشارة صغيرة مني إلى فريق من صغار الموظفين أن أوجد الفكرة التي كان اللورد يجد وراءها ولا يصل"، إذا فقد كان هذا مصدر حدته وشدته في مقاله، وقد مضت الفتنة

وانطفأت بحمد الله "حينما أدرك الذين من خلفها أنه لا طائل من تحتها"، فكما قال جاويش في مقاله المتهم به "عشنا في هذه البلاد دهرا طويلا فكنا كما شاء لنا الإسلام إخوانا في الوطنية شركاء في المرافق الحيوية نتجاور ونتزاور، ونتشاور ونتسامر، ونتعاشر ونتناصر"[٢٤٩].

- العمل السري والتحريض على العنف: راج أيضا عن الشيخ جاويش أنه من المنخرطين في العمل السري للحزب الوطني، وأنه من المحرضين على العنف والثورة، لكن تلك الاتهامات بقيت مجرد تهم وشبهات، إذ لم يثبت اتهامه في قضية من قضايا العنف ببينات مبينات، وإن كانت قد حامت حوله الشبهات "تحريضا" في قضايا كقضية مقتل بطرس باشا غالي، أو محاولة اغتيال الخديو عباس لاحقا، أو محاولة

[٢٤٩] - حول تفاصيل الاتهام بالتعصب والرد عليه، راجع: فتحي رضوان، م س ذ، ص ص ٣١ – ٣٧.

اغتيال سعد زغلول، إلا أنه لم تتوافر لكل جهات الاتهام تلك أية بينة تثبت تورطه في أي منها، وإذا كان مشاركا في النضال السري للحزب الوطني إلا أن تلك لم تكن تهمة يتهم بها المرء وإنما شرف له في ظل وجود احتلال عسكري جاثم على أرض بلاده ومقدراتها[٢٥٠].

وفي تلك الفترة بدت ملامح من الصورة العامة في مصر كما يلي:

عملت الحكومة على التضييق على الحركة الوطنية خلال تلك الفترة بمعاونة الاحتلال، وذلك في ظل حالة الوفاق بين الاحتلال وبين الخديو وفي ظل خلاف الأخير مع الحركة الوطنية في ظل رئاسة محمد فريد لها، ورئاسة جاويش لتحرير صحفها، وقد تجلى التضييق في إعادة العمل

[٢٥٠] - حول الحزب الوطني والنضال السري راجع: عصام ضياء الدين السيد علي الصغير، الحزب الوطني والنضال السري ١٩٠٧ – ١٩١٥، القاهرة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧.

بقانون المطبوعات، وزاد التضييق بعد مقتل رئيس الوزراء بطرس باشا غالي على يد أحد شباب الحزب الوطني وهو إبراهيم ناصف الورداني، ومن ثم محاولة جر المجتمع المصري إلى فتنة وطنية تساعد في المزيد من تضييق الخناق:

- إعادة العمل بقانون المطبوعات: حيث أصدر مجلس الوزراء في ٢٥ مارس سنة ١٩٠٩م/٤ ربيع أول ١٣٢٧هـ قرارا بإعادة العمل بقانون المطبوعات القديم الصادر في ٢٦ نوفمبر سنة ١٨٨١م/٥ محرم ١٢٩٩ هـ إبان الثورة العرابية، وكان قد بطل العمل به منذ زمن بعيد، (..) وقد اجتمعت اللجنة الإدارية للحزب الوطني يوم صدور هذا القرار وقررت الاحتجاج عليه، وإبلاغ الاحتجاج إلى الخديو، (..) وكان هذا القانون يخول وزارة الداخلية حق إنذار الصحف، وتعطيلها

مؤقتا أو نهائيا، دون محاكمة أو دفاع، فكان بعثه وإعادة العمل به قضاء على حرية الصحافة، وكان صدور القرار أول مظاهر تحالف الخديو والوزارة والاحتلال على الحركة الوطنية[٢٥١]. وقد أثار قرار مجلس الوزراء سخط الرأي العام على وزارة بطرس ياشا، وانهالت رسائل الاحتجاج وبرقياته وقرارات الهيئات والجماعات بالاحتجاج على إعادة قانون المطبوعات وقامت مظاهرات الاحتجاج على تقييد حرية الصحافة[٢٥٢]. وكانت محاكمة الشيخ جاويش حول مقاله عن ذكرى دنشواي في يونيو ١٩٠٩ ثم إنذار جريدة اللواء إعمالا لقانون المطبوعات بحجة أنه نشر مقالة عن شاب هندي يدعة دنجرا حكم عليه بالإعدام لاتهامه بقتل السير كرزون ويلي، مما عد تحريضا على ارتكاب الجرائم وإخلالا بالأمن والنظام

[٢٥١] - عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد رمز الإخلاص والتضحية (تاريخ مصر القومي من سنة ١٩٠٨ إلى سنة ١٩١٩)، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٨٤، ص ص ١١٨ – ١١٩.

[٢٥٢] - نفس المصدر، ص ص ١٢١ – ١٢٢.

العام، فكان الحكم على الشيخ جاويش وإنذار جريدة اللواء في يوم واحد اضطهادا متعمدا للحركة الوطنية[٢٥٣].

- مقتل بطرس باشا غالي: ففي يوم ٢٠ فبراير سنة ١٩١٠م/١١ صفر ١٣٢٨هـ أطلق الورداني رصاصات على غالي فأودت بحياته، وكان الدافع الذي ذكره هو "ما عده خيانة من تصرفات بطرس باشا غالي، وأخصها توقيعه اتفاقية السودان سنة ١٨٩٩، ورياسة المحكمة المخصوصة في حادثة دنشواي، وإعادة قانون المطبوعات، ثم سعيه في إنفاذ مشروع مد امتياز القناة" و"كانت هذه الحادثة أولى حوادث القتل السياسي، (..) ولو لم يكن بطرس باشا قبطيا لوقعت الجريمة، مهما تكن ديانة المعتدى عليه ولكن وقوع الجناية على رئيس وزراء قبطي جعل فريق من الأقباط ينسبونها إلى التعصب الديني، ورددت

[٢٥٣] - نفس المصدر، ص ص ١٢٣ – ١٢٤.

الصحافة البريطانية"[٢٥٤] تلك المقولة، "ومما لا شك فيه أن الاغتيال لم يكن فيه فكرة التعصب الديني، بل ولا أثر لها فيه على الإطلاق، بل كان سياسيا بالدرجة الأولى حسب اعتراف المعتمد البريطاني"[٢٥٥].

- الخلاف بين المسلمين والأقباط: ففي "خلال غيبة الزعيم – محمد فريد – في سجنه، حدثت فتنة الخلاف بين المسلمين والأقباط، وانعقد المؤتمر القبطي بأسيوط في شهر مارس سنة ١٩١١، ثم المؤتمر المصري بمصر الجديدة في أبريل- مايو ردا عليه (..)، وقد قيل وقت انعقاد المؤتمرين أن يد السيد إلدون جورست المعتمد البريطاني، لم تكن بعيدة عن الدعوة إليهما، ومما يؤيد ذلك أن الوزارة كانت مؤيدة عقد المؤتمر المصري ردا على المؤتمر القبطي (..) ولو لم يكن الاحتلال مغتبطا بهذه الحركة، أو راضيا عنها، لما فكرت الوزارة في

---

[٢٥٤] - نفس المصدر، ص ص ١٧٧ – ١٧٨.

[٢٥٥] - عصام ضياء الدين السيد علي الصغير، م س ذ، ص ١٨١.

تأييدها، ومما يؤيد ذلك ان جميع مواضيع المؤتمر المصري، بله المؤتمر القبطي، قد خلت من أي معارضة للاحتلال، أو انتقاد لسياسته، أو مطالبة له بتحقيق وعوده"[٢٥٦].

أما ملامح الصورة في الدولة العثمانية فقد بدت كما يلي:

خلال تلك الفترة كان قد وصل الصدام بين المطالبين بالدستور وعلى رأسهم جمعية الاتحاد والترقي وبين السلطان عبد الحميد الثاني إلى الحافة التي انتهت بخلعه وتولية السلطان محمد رشاد الذي تولى منصبه في ٢٧ أبريل عام ١٩٠٩م/٧ ربيع ثاني ١٣٢٧هـ، وعلى الرغم من موقف الحزب الوطني الثابت من قضيتي الوطنية المصرية جنبا إلى جنب مع الجامعة الإسلامية، إلا أن موقفهم كان لا يقل

[٢٥٦] - عبد الرحمن الرافعي، محمد فريد، م س ذ، ص ٢٧٣، وحول وقائع هذين المؤتمرين طالع: طارق البشري، الجماعة الوطنية العزلة والاندماج، القاهرة، دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، العدد ٦٥٢، أبريل ٢٠٠٥، ص ص ٢٩ – ٦٩، حيث يرى البشري أن أعمال المؤتمر المصري تجنب الاستقطاب القبطي الإسلامي، وقدم مناقشة هادئة للقضايا الخلافية، كما قدم مشروعا للنهضة المصرية.

ثباتا من قضية "الدستور" سواء على المستوى العثماني أو المصري، وهو ما حدا بالحزب الوطني ممثلا في زعيمه الثاني محمد فريد ورئيس تحرير جريدتها "اللواء" إلى الاحتفاء بانتصار الدستور، حيث يقول الأول "خلع عبد الحميد سنة ١٩٠٩ فبويع بالخلافة الإسلامية الخليفة الشوري العادل أمير المؤمنين محمد رشاد الخامس" (..) ومنذ ارتقاء جلالته على العرش تسلم حزب الاتحاد والترقي إدارة الحكومة العثمانية (..) وبدأ أعماله وإصلاحاته بهمة لا تعرف الكلل ولا الملل، كان أول ما ابتدأ في تنفيذه من الوسائل النافعة تعميم المساواة بين أفراد الأمة بوضعهم جميعا في مستوى واحد أمام قانون واحد"[٢٥٧]. أما جاويش فقد كان مع إيمانه بالحق القومي "يتابع بقوة تطور

[٢٥٧] - محمد فريد، تاريخ الدولة العلية، القاهرة، مكتبة الآداب، ١٩٩٧، ص ص ٤١٢ – ٤١٤، زاد محمد فريد في الطبعة الثالثة من هذا الكتاب والتي نشرت عام ١٩١٢ من صفحة ٤٠٦ إلى صفحة ٤١٥، وهي الطبعة التي أخذت منها طبعة ١٩٩٧ التي ننقل عنها.

الدولة العثمانية خاصة بعد أن صدر الدستور عام ١٩٠٨ وبدأ حكم جديد قوامه إطلاق حرية الصحافة العثمانية وإصدار الدستور، وهو في عرضه لذلك يذكر مصر ويطالب لها بمثل ما حققت تركيا"[٢٥٨].

المرحلة الرابعة: استمرار النضال في المهجر (١٩١٢ - ١٩٢٣)

بين تركيا وألمانيا قضى جاويش الأعوام الأحد عشر التالية من عمره، واصل فيها نضاله في سبيل قضايا أمته دون كلل، فحينما غادر مصر في مارس ١٩١٢ اتجه إلى تركيا "وله معرفة وثيقة إذ ذاك بالرجال البارزين من الاتحاديين طلعت، أنور، عصمت وغيرهم"، وهناك أنشأ جريدة

[٢٥٨] - أنور الجندي، م س ذ، ص ٨٤.

"الهلال العثماني" "التي أصبحت دارها موئلا للعاملين في المجال السياسي والدعاة إلى الحرية، والمقاومين للنفوذ البريطاني الفرنسي" وجعل هدفها "الدفاع عن حقوق مصر في الحرية والاستقلال ومناهضة الانجليز في كل مكان"[٢٥٩]. ولما نفضت تركيا يدها من ليبيا وتركت المجاهدين يلاقون مصيرهم وحدهم أمام الغزو الإيطالي، أبى أن يوقف جهاده، وتعاون مع أنور باشا في مساعدة الليبيين ومدهم بالمال والسلاح، ولاتساع نطاق صلاته بزعماء العالم الإسلامي استطاع أن يؤسس "جمعية خدام الكعبة" والتي اعتبرتها جريدة التيمس حزبا سياسيا أشد خطرا على مصالح بريطانيا من الحزب الوطني المصري، وفي فبراير سنة ١٩١٤ أسندت الحكومة التركية إلى الشيخ وإلى شكيب أرسلان أمر تأسيس جامعة في المدينة

---

[٢٥٩] - نفس المصدر، ص ص ١٢١ – ١٢٢.

المنورة، وقد أنابه الخليفة محمد الخامس لوضع حجر أساسها في فبراير سنة ١٩١٤، ومن هناك أذاع بيانا بأن الجامعة ستضم كليات للطب والهندسة والمساحات الزراعية يتبعها ما يلزم من مستشفى ومعامل للتحليل، ودعا المسلمين إلى دعم المشروع بمالهم، وعهد إليه السلطان في نفس العام بتجديد كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس، فقال عن المشروع إن الكلية ستقوم على تدريس العلوم الشرعية والحقوق والفنون المختلفة واللغات المتنوعة لتخرج أخصائيين في هذه العلوم قادرين على الدفاع عن التعاليم الدينية، ويصلحون للنهوض بأعباء الوظائف الشرعية وتبعات الأعمال العلمية". ولما وقعت الحرب العالمية في أغسطس سنة ١٩١٤، ودخلت تركيا الحرب في صف ألمانيا بداية من ٥ نوفمبر من العام نفسه اتصل بالساسة الألمان ليجد ما يعين على إخراج الاحتلال البريطاني من

مصر، وقد أصدر مجلة "العالم الإسلامي" بالألمانية والعربية معا عام ١٩١٦، وقد أصبح مكتب المجلة في برلين ناديا سياسيا للمصريين والعرب والمسلمين والشرقيين، وكان يتردد عليه كبار الساسة الألمان[٢٦٠]. كانت هزيمة تركيا وإعلان الهدنة من أسوأ ما مر بجاويش من أحداث، فاضطر هو ورجال الحزب الوطني للهرب من تركيا عام ١٩١٨ متجها إلى ألمانيا عن طريق سويسرا، وهناك عاش هو حياة فاسية حيث اضطر للاحتطاب في الغابات وعاش بين ألمانيا وسويسرا من أجل تحقيق ما يمكن تحقيقه من مؤتمر الصلح[٢٦١].

ثم قامت الثورة التركية بقيادة مصطفى كمال لرد الزحف اليوناني على تركيا، واستدعى كمال أتاتورك الشيخ جاويش

---

[٢٦٠] - فتحي رضوان، م س ذ، ص ص ٤٣ – ٤٦.

[٢٦١] - أنور الجندي، م س ذ، ص ١٣٠.

ليرأس هيئة للبحث والدراسة والفتوى الإسلامية اسمها "تدقيقات وتأليفات إسلامية" حيث وصل الشيخ إلى أنقرة في ١٧ ديسمبر ١٩٢٢م/٢٨ ربيع الثاني ١٣٤١هـ، وأخذ في إعداد ما يلزم لهذه الهيئة من المراجع، وأعد لها مكانا، ووضع لها برنامجا، ولكنه لم يلبث أن اختلف مع كمال أتاتورك، حينما اتضحت نيته في إنهاء الخلافة الإسلامية وفي إقامة حكم علماني لا ديني في تركيا، وأدرك الأتراك أن الشيخ لا يقرهم على أفكارهم ولا يؤيد سياستهم فأصبحت حياته في خطر فدبر له بعض الأصدقاء سبل العودة سرا إلى مصر في ديسمبر من عام ١٩٢٣ بعد أن رفضت وزارة يحي إبراهيم باشا أن تأذن له بالعودة إلى بلاده[٢٦٢].

[٢٦٢] - فتحي رضوان، م س ذ، ص ص ٤٦- ٤٧.

المرحلة الخامسة: بالتعليم تنتهي الرحلة كما بدأت (١٩٢٣ - ١٩٢٩)

لدى عودته متخفيا نشر جاويش بيانا في الصحف بعد عدة أيام بعنوان "تجديد العهد" كشف فيه عن وجوده في مصر التي كانت تستعد لمعركة الانتخابات الأولى بعد إعلان الدستور وعودة سعد زغلول من منفاه، وكان الحزب الوطني قد نزل المعركة فعلا وقد احتجز دائرة الجمرك في الإسكندرية لجاويش منازلا لمحمد سعيد باشا وزير الداخلية في وزارة مصطفى فهمي، وقد هاجمته الصحف الوفدية، وبدا موقفه في الانتخابات قاسيا لتأييد الوفد لمحمد سعيد باشا، وكانت الشقة قد بعدت بين جاويش وبين الشعب، ومن ثم خرج من المعركة الانتخابية مهزوما، وكان ذلك ختام الموقف السياسي كله بالنسبة لجاويش، هنالك

اتجه جاويش إلى العمل الصحفي فكتب في جريدتي الأخبار واللواء المصري، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى وقع الاعتداء على سعد زغلول رئيس الحكومة يوم ١٢ يوليو، وألقي القبض على جاويش ولفيف من أعضاء الحزب الوطني، وظل مسجونا حتى ٥ أغسطس ١٩٢٤م/٥ محرم ١٣٤٣هـ. عندما أفرج عنه، ولم تلبث الدولة أن رأت عام ١٩٢٥ الانتفاع بخبرته التعليمية والتربوية، فأوكلت إليه مهمة مدير التعليم الأولي وفق خطة لمحو الأمية وتوسيع نطاق التعليم. وخلال تلك الفترة من حياته في مصر شارك جاويش في تأسيس جمعية "الشبان المسلمين" في ديسمبر من عام ١٩٢٧ مع عدد رجال الحزب الوطني القدامى وبعض الشباب الغيور على دينه وذلك ضمن تحرك أوسع يتخذ وسائل عدة كان يستهدف الوقوف في وجه موجة الإلحاد والإباحية التي

كانت تموج بها مصر آنذاك، وقد اختير جاويش وكيلا للجمعية، كما ساهم جاويش بجهوده في تلك الفترة أيضا في دعم أنشطة جمعية المواساة الإسلامية والتي كان قد سبق وأسسها منذ زمن طويل، إضافة إلى ذلك واصل جاويش خلال تلك الفترة نضاله النقابي، حيث عمل وكيلا لنقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال[٢٦٣]. وقد مضى جاويش يعمل في تلك المجالات "حتى انقطع الزيت وانطفأت الشمعة فجر يوم الجمعة ٢٥ يناير عام ١٩٢٩م/١٥ شعبان ١٣٤٧هـ"[٢٦٤].

[٢٦٣] - طالع جانبا من مظاهر تلك الموجة ورد الفعل عليها في: حسن البنا، مذكرات الدعوة والداعية، القاهرة، دار الشهاب، ب ت، ص ص ٤٩ – ٥٤، وبينما يشير محمد عبد المنعم خفاجي إلى أن الشيخ جاويش كان وكيلا للجمعية التي أنشئت في ٩ ديسمبر ١٩٢٧(طالع المصدر سابق الذكر، ص ٧٤ – ٧٥) ، فإن عصمت نصار يشير إلى أن الغرض من إنشائها كان هو تنمية الآداب، والأخلاق الاجتماعية الإسلامية، وإنارة الأذهان بالمعارف، وإزالة الخلافات بين الفرق الإسلامية، وتشجيع الرياضة، والفتوة، أنظر: عصمت نصار، الفكر المصري الحديث بين النقض والنقد، القاهرة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦، ص ١٧١.

[٢٦٤] - أنور الجندي، ص ص ١٤٤ – ١٥٤.

النسب الفكري للشيخ جاويش

الشيخ عبد العزيز جاويش كان في تكوينه نتاجا لتزاوج ثلاث من الثنائيات:

- أولا: ثنائية تعليم الأزهر ودار العلوم
- ثانيا: ثنائية التعليم الإسلامي والتعليم الغربي
- ثالثا: ثنائية مدرسة الإصلاح والتجديد ورائدها محمد عبده، ومدرسة الحزب الوطني في الوطنية (الاستقلال والنهضة) ممثلة في زعمائها (مصطفى كامل ومحمد فريد)

كان الشيخ جاويش طوال حياته مفكرا وحركيا في آن واحد، وكان في أعماله وأفكاره نتاجا لتلك الثنائيات المتزاوجة في تفاعلاتها مع المكون الذاتي، والتي أثمرت جهودا وأعمالا وأفكارا في التعليم والتربية والإصلاح الاجتماعي والنضال السياسي، وإذا كنا قد أشرنا في

الصفحات السابقة إلى جهوده في المجال السياسي الوطني، فإننا في الصفحات التالية نسرد ملامح جهوده وآرائه الفكرية في مجالات التعليم والتربية والإصلاح الاجتماعي وتجديد الفكر الإسلامي، وإجمالا فإننا يمكن أن نضع التأثير والتأثر في حياة وفكر جاويش في الشكل التالي:

تزاوج تعليم الأزهر ودار العلوم	تزاوج التعليم الإسلامي والتعليم الغربي	تزاوج مدرسة محمد عبده ومدرسة الحزب الوطني

الشيخ عبد العزيز جاويش التجديد والإصلاح

والوطنية

التعليم والإصلاح الاجتماعي	النضال السياسي	تجديد الفكر الإسلامي
الدعوة لتطوير أساليب التربية ونشر التعليم في جميع فئات الشعب، وتطوير التعليم الأزهري والأزهريين، والعمل على تكاتف فئات الشعب من	كان في نضاله طوال حياته متشبثا بالوطنية والاستقلال، ومعاديا لا يهادن في عداوته للاحتلال وأعوانه، ومتمسكا بالدستور والحياة النيابية،	كان الشيخ جاويش في صلته بالفكر الإسلامي مفكرا ومجددا وحركيا على منهج شيخه محمد عبده في الذود عن الدين ضد انتقادات

خلال الجمعيات (جمعية المواساة الإسلامية)، والنقابات (نقابات العمال ونقابات التعاون الزراعي، ونقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال)،	ومتمسكا بالانتماء للأمة الإسلامية ممثلة في الدولة العثمانية مع العمل على تجديد دمائها بعلاج سلبيات الحكم والإدارة فيها	الغربيين والمتغربين ومجليا لحقائق الدين في وجه المفاهيم والسلوكيات السلبية التي التصقت بأتباعه[٢٦٥]، وداعية من خلال مجلاته ومقالاته ومن

[٢٦٥] - من أمثلة هذا الدور المزدوج في كتابه ما استهل به حديثه حول تعدد الزوجات (ص ١٢٠ من عبد العزيز جاويش، م س ذ) حيث قال: "تقدم لنا التلميح إلى ما حشا به الأوربيون كتبهم من الطعن في الإسلام، متمسكين بما أباحته الشريعة من إباحة تزوج أكثر من واحدة ولو كانوا يعرفون العربية، ويفقهون كتاب الله وقواعده، ما استطاعوا أن يلصقوا بالإسلام ما ليس من شيمه. إن النقائص التي مثلت بالإسلام في أعين غير أهله، إنما نشأت من اعتبار أعمال الخلف الصالح، ميزانا لتقدر به قوانين الشرع ونواميسه، فمن قائل بسد باب الاجتهاد، ومن إمام أو خليفة قضت عليه أغراضه البهيمية أن ينتهك حرمات الله ثم يحارب الله فينسب إليه ما ليس من دينه في شيء، ومن عالم اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، فأفتى بما يطابق أهواء ملك أو أمير تذرعا إلى الزلفى منه، ومن أحمق أرعن لم يرض من اليسر ما رضي الله لعباده فشط بالناس واعتسف بهم، حتى ضاقت نفوسهم، وأيقنوا العجز من احتمال تكاليف الدين فنقطعوا عنه ظانين بالدين الظنون".

وإصلاح أحوال السجون ومحاربة المخدرات والمسكرات		خلال جهوده في إنشاء نادي دار العلوم[٢٦٦]، وجمعية الشبان المسلمين

كانت التربية والتعليم هي الخيط المتصل في مسيرة اهتمام جاويش في مراحل العطاء لديه، بينما كان الإصلاح الاجتماعي خيطا ثانيا ومكملا لديه لأدوات النهضة بعد التعليم.

أما النضال السياسي فقد كان هو الوقود الذي كانت ثوابته التي لا فصال فيها: (١) الاستقلال والوطنية ومعاداة

[٢٦٦] - طاهر الطناحي، الشيخ عبد العزيز جاويش، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مجلة منبر الإسلام، العدد ٧ السنة ٢١، رجب ١٣٨٢، ديسمبر ١٩٦٣، ص ١٠٩.

الاحتلال (٢) التمسك بالدستور والحياة النيابية كتعبير عن حرية الأمة إزاء حكامها (٣) التمسك بالهوية والوحدة[٢٦٧] الإسلامية.

أما الفكر الإسلامي فرغم أنه لم يتفرغ للعمل به إلا أن إنتاجه القليل في هذا المجال ينم على أنه لو فعل لما قل مكانة عن أستاذه الإمام، وقد كان في فكره هذا: يذود عن الإسلام إزاء أعدائه، وينتقد المفرطين (بكسر الراء)، ويثور على المفرطين (بالراء المكسورة والمشددة)، ويجلو ويبين حقائق الدين للباحثين، ويجدد فهم الدين والعمل به على خطى الإمام.

مجمل الإنتاج الفكري للشيخ جاويش:

[٢٦٧] - طالع في ذلك ما جاء في مقدمة فتحي رضوان لطبعة الزهراء من كتاب الإسلام دين الفطرة، ص ص ٢٢ – ٢٤، وطالع أيضا كتاب: خبير بأطوار الأمم الشرقية، خواطر خواطر في التربية النفسية والاجتماع عن المرأة المصرية والشئون العامة، ب ن، ١٩٣٠، ص ص ٦١ – ٦٣.

لم يعن أحد ممن كتبوا عن الشيخ عبد العزيز جاويش بحصر مؤلفاته[٢٦٨] أو جمع كتاباته سواء منها المقال أو الدراسة أو الكتاب، حيث ذكروا بعضها في معرض حديثهم حول حياة جاويش، وقد كانت محاور كتابات جاويش هي محاور حياته التي ذكرناها سابقا:

المحور	بيانه
السياسي	مقالات بصحف: اللواء (١٩٠٨- ١٩٠٩) والعلم (١٩٠٩ - ١٩١١) والشعب (١٩١٠) والأخبار (١٩٢٣ - ١٩٢٤) والهلال العثماني (١٩١٢ - ١٩١٤) والحق يعلو (؟[٢٦٩])
التربوي والتعليمي	مقالات: بصحف اللواء والعلم والأخبار ومجلة الهداية (١٩١٠ - ١٩١٤)

[٢٦٨] - باستثناء أنور الجندي في نهاية كتابه في إطار ذكره لمصادر بحثه، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠.

[٢٦٩] - ذكر أنور الجندي أنها أنشئت في عهد وزارة شوكت (التركية) ولم يحدد لها تاريخا للبدء أو التوقف، طالع ص ١٢٧.

	كتب: غنية المؤدبين (١٩٠٣) ومرشد المعلمين (١٩٠٦)، و"مرشد المترجمين"[٢٧٠]
الإصلاح الاجتماعي	مقالات بالصحف السابق ذكرها ومجلة الهداية كتاب: أثر الخمر في نظر أرقى الأمم المسيحية وغيرها (١٩٢٣م - ١٣٤١هـ)[٢٧١]
تجديد الفكر الإسلامي	كتاب: الإسلام دين الفطرة (١٩٥٢) مقالات بمجلة الهداية (١٩١٠ - ١٩١٤)، ومجلة العالم الإسلامي (١٩١٦ - ١٩١٧) وكتاب: إجابتي على الكنيسة الإنجليكية[٢٧٢]
عام	كتاب: خواطر خواطر في التربية النفيسة والاجتماع وأبحاث عن المرأة المصرية

[٢٧٠] - طاهر الطناحي، المصدر السابق، ص ١٠٩، حيث ذكر أنه ألفه باللغتين العربية والإنجليزية بالاشتراك مع آخرين.
[٢٧١] - ذكره أنور الجندي في متن كتابه دون تحديد تاريخ صدوره، ص ١٩٤، كما ذكره محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه سابق الذكر، وذكر فيه أنه ألفه في لندن، م س ذ، ص ٧٩.
[٢٧٢] - ذكر محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه، ص ٧٩ أن جاويش قد ألفه باللغة التركية فترة هجرته دون ذكر تاريخ محدد.

	والشئون العامة بقلم خبير بأطوار الأمم الشرقية، وهو يجمع مقالات الشيخ عبد العزيز جاويش التي كتبها في صحيفة اللواء أعوام ١٩٠٨ و١٩٠٩[٢٧٣]

وسوف نضرب صفحا عن الحديث حول الجانب السياسي في حياته، والذي حاز نصيب الأسد من حديثنا السابق، وسوف نتعرض للمحاور الثلاث الأخرى.

أولا: التربية والتعليم في فكر وأعمال جاويش:

اهتم جاويش بالتربية والتعليم خلال جميع مراحل حياته ففي المرحلة الثانية من حياته عني بتأليف كتابين والمشاركة

[٢٧٣] - كتب الأستاذ أنور الجندي بقلمه على نسخة هذا الكتاب الموجودة بدار الكتب في ١٩٦٤/٧/٢٥ بأن: مؤلف هذا الكتاب هو الشيخ عبد العزيز جاويش، وإن كان ضمير الغائب الذي يعود إلى الشيخ جاويش المستخدم من قبل جامع الكتاب والذي يلقبه فيه بالأستاذ يوحي بأن جامع تلك المقالات هو شخص آخر غير الشيخ جاويش، وإن كانت المقالات تعود إليه، حيث أن أول تلك المقالات هو مقاله الأول باللواء والذي سبقت الإشارة إليه.

في ثالث وكانت كتابته في هذا المجال من بين الكتابات الرائدة في مجالي التربية والتعليم بشكل يتوافق مع العلوم الحديثة ويتواءم مع منطلقاته الوطنية والإسلامية، ويعد كتابيه الأبرز في هذا المجال: "غنية المؤدبين" و"مرشد المعلمين"

أ. غنية المؤدبين: وقد نشر هذا الكتاب عام ١٩٠٣م/ ١٣٢١هـ وجاء في ١٨٠ صفحة، وهو كتاب متخصص في تربية النشء لكنه كتب بأسلوب يناسب المبتدئين، وكتابه هذا هو أول كتاب ألف بالعربية في العصر الحديث في تربية النشء كما يشير جاويش في مقدمته: "لما كانت اللغة العربية لم يوضع بها في فن التربية وأسايبها شيء على النسق الحديث وقد اشتدت حاجة المؤدبين في هذا الزمن إلى كتاب يهتدون بهديه في هذا الفن أردت إجابة لمكالب هذه

الحاجة الشديدة أن أضع عجالة صغيرة تكون بحول الله مرجعا لمدرسي فن التربية ولقطة لطالبيه وجمعت في هذه العجالة كل ما تدعو الحاجة إليه في تعليم الناشئة ولم أخرج عن دائرة مسائل التربية العلمية إلا بشذرات قليلة ألممت فيها بنبذة في تاريخ التربية وشيء قليل من علم النفس، وهنا يجمل بي أن أقول أنني جافيت بكتابتي هذه مضاجع الإتقان حتى لا يحرم مبتدئ أو قاصر عن الانتفاع بها فجاءت بحمد الله دانية القطوف لمن رغب في ثمراتها"[٢٧٤].وكما قال في مقدمة كتابه التالي المسمى بـ "مرشد المعلمين"، فإن "غنية المؤدبين" "لم يكن في الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء، ولذا جاء غير واف بجميع المباحث الضرورية"[٢٧٥]. ولكنه جاء مستوفى بما يناسب جمهوره المستهدف منه.

[٢٧٤] - عبد العزيز شاويش، غنية المؤدبين في الطرق الحديثة للتربية والتعليم، القاهرة، مطبعة الشعب، ١٩٠٣، ص ص أ – ب.
[٢٧٥] - عبد العزيز شاويش الإسكندري، كتاب مرشد المعلمين، القاهرة، مطبعة الواعظ، ١٩٠٦، جزء أول، ص ٢.

ب. مرشد المعلمين: وقد نشر هذا الكتاب عام ١٩٠٦م/ ١٣٢٤هـ في ٢٨٥ صفحة، وكتب على غلافه أنه من تأليف "حضرة الأستاذ الشيخ عبد العزيز شاويش الاسكندري مدرس اللغة العربية بكلية أكسفورد" أي أنه نشر فور عودة جاويش من عمله في أكسفورد في ذلك العام. وعن سبب تأليفه يقول جاويش: دعاني إلى وضع هذه العجالة ما رأيته من حاجة المعلمين الشديدة إلى ما يهتدون بنبراسه من كتب التربية العملية فإن ما سبق لي وضعه في هذا الفن لم يكن في الحقيقة إلا لطائفة المؤدبين من الفقهاء والعرفاء ولذا جاء غير واف بجميع المباحث الضرورية فأبت الحاجة إلا أن ألبي طلبها بهذه العجالة التي أرجو أن يهتدي بها جميع أساتذة المدارس الابتدائية، وقد ضربت صفحا عن البحث عن النفس وقواها والعقل على اختلاف أطواره في هذه العجالة حتى لا يفوتنا شيء من المباحث العملية التي هي المقصودة بالذات

من هذا الكتيب والله المستعان"[٢٧٦]. وقد جاء الكتاب "العجالة" تفصيلا لمباحث "التربية العملية" بشكل أكثر تخصصا للمعلمين، على عكس كتابه الأول الذي كان لطائفة المؤدبين.

وفي المرحلة الثالثة من حياة جاويش واصل اهتمامه بالتربية والتعليم ف "أنشأ المدرسة الإعدادية بدرب الليل قسم الدرب الأحمر ودعا المواطنين إلى إرسال أبنائهم إليها وكان يعلم فيها بنفسه، وقد رأى أن يفتتحها في خلال أجازات الصيف حتى لا تضيع أوقات الشباب فيما لا ينفع. كما أنشأ في القاهرة ما أطلق عليه جمعية تشجيع التعليم الحر، ودعا في المؤتمر الوطني (١٢ يناير ١٩١٠م/ غرة المحرم ١٣٢٨هـ) إلى إنشاء مدارس البساتين (رياض الأطفال) وقال إن هذه المدارس هي التي تبني

---

[٢٧٦] - نفس الموضع.

التعليم في مصر"[٢٧٧]. وقد كتب العديد من المقالات حول التربية والتعليم في صحف اللواء والعلم والشعب ومجلة الهداية، فتكلم فيها عن التربية كأساس للتعليم وتكلم عن تعليم البنات ودعا إلى التوسع في التعليم الزراعي والصناعي ومدارس النسيج وطاف بمصر يدعو لجمع الصدقات والأموال لتوجه في خير مصارفها في سبيل العلم، وأمكنه إصدار قانون الشركة الأهلية وهدفه تسهيل التعليم على الأهالي بنين وبنات، مع تحسن التربية حتى تكون للأخلاق واقية"[٢٧٨]، وفي مؤتمر الحزب الوطني في فبراير ١٩١١ ألقى جاويش خطابا جامعا في إصلاح التعليم بدأه بالحديث عما تردى فيه التعليم من تخلف في أساليب التربية وفي مستوى التعليم، وما يجب أن يكون عليه

---

[٢٧٧] - نفس المصدر، ص ص ١٦٧ – ١٦٨.

[٢٧٨] - نفس المصدر، ص ص ١٦٩ – ١٧٤.

لإصلاح حاله"[٢٧٩]، كما وجه الشيخ جاويش جزءا من اهتمامه إلى التعليم في الأزهر، وخاض من أجله معركة ضخمة، وألف لجنة الاتحاد الأزهري قاوم فيها الحكومة لموقفها العدائي من إصلاح أحوال التعليم في الأزهر، ودافع جاويش عن مطالب تطوير نظم التعليم، حيث طالب بإدخال جميع العلوم العصرية في الأزهر، وإلحاق مدرسة المعلمين بالناصرية ومدرسة القضاء الشرعي به لأن هذا المعهد (الأزهر) يجب أن يكون مصير التربية والتعليم إلى رجاله، كما كان يلتقي بالشباب المتطلع من الأزهر موجها إياه للعمل، ولدراسة الفرنسية عن طريق المدرسة الإعدادية الليلية التي أنشأها، التي أمها عدد كبير منهم من علماء وطلبة حتى بلغ عددهم نحو أربعمائة طالب، كما أعد مشروعا لإرسال بعثات منهم إلى أوروبا، حيث شارك مع

---

[٢٧٩] - حسين فوزي النجار، م س ذ، ص ص ١٠٣ – ١٠٤.

إسماعيل شيمي وفؤاد حسيب (من رجال الحزب الوطني) في إعداد الإرسالية، وقد سافرت البعثة الأولى التي تكونت من ثلاثة طلاب أزهريين في ١٦ فبراير ١٩١١م/١٧ صفر ١٣٢٩هـ وكانت على حساب الأمة مباشرة، وسافر جاويش معها إلى مونيلييه[٢٨٠] لكن اضطراره للهجرة عام ١٩١٢ حال دون أن يتابع رعاية تلك البعثة، كما اهتم جاويش بترقية تعليم البنات "فمدارس البنات القائمة غير كافية الأمة حاجاتها ولا وافية بشيء من مطالب المرأة باعتبارها نصف الأمة عليها من الفروض والتكاليف العمومية ما لا يقل عما على الرجل[٢٨١]. أما في المرحلة الخامسة والأخيرة من حياته فقد عاد إلى العمل بالتعليم، وشارك خلال تلك الفترة في

---

[٢٨٠] - نفس المصدر، ص ص ١٧٥ – ١٨٢.

[٢٨١] - حسن فوزي النجار، م س ذ، ص ١٠٤.

مؤتمر التعليم الأولي الإجباري الذي أقامته نقابة المعلمين العليا في شهر يوليو من عام ١٩٢٥، حيث ألقى محاضرة في جلسته الأخيرة كان عنوانها: "التطور الحديث في التعليم الأولي"، كما شارك في مناقشة أعمال المؤتمر وصياغة قراراته[٢٨٢].

ثانيا: الإصلاح الاجتماعي في فكر وأعمال جاويش

أولى جاويش الإصلاح الاجتماعي اهتماما بالغا وصرف همه إليه بالفكر والعمل معا خلال بعض مراحل حياته (١٩٠٨ - ١٩١٢) و(١٩٢٣ - ١٩٢٩)، ففي الفترة من ١٩٠٨ إلى ١٩١٢ أنشأ جمعية المواساة الإسلامية التي كانت تعول مائتين من الأسر (..) ورافق عمر لطفي

[٢٨٢] - حول أعمال المؤتمر أنظر: أحمد شفيق باشا، أعمالي بعد مذكراتي، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ص ١٤١ – ١٥٤.

في توسيع مشروع نقابات العمال والنقابات الزراعية، وشارك في إنشاء شركات التعاون المنزلي والتعاون المالي، ودعا إلى ترابط رؤوس الأموال الصغيرة وإنشاء مصرف وطني، ووجه عناية كبيرة إلى المسجونين وتهذيبهم، واهتم بمحاربة أذى الخمر ومضار المسكرات، كما أولى اهتمامه الكبير لأمر الأسرة والبيت والمرأة، فأفسح للمرأة مجالا في مجلة "الهداية" والتي حوت فصولا متعددة عن الإصلاح الاجتماعي ذات طابع علمي كان يوقع عليها باسم "الاجتماعي"[٢٨٣]. وقد شارك جاويش خلال تلك الفترة في المحاضرات التي دارت في نادي دار العلوم[٢٨٤] في إطار المناقشات العامة التي دارت حول مسألة إنشاء بنك وطني والتي دعت إليها الحركة الوطنية آنذاك لتحرير الاقتصاد

---

[٢٨٣] - نفس المصدر، ص ص ١٩١ – ١٩٨.

[٢٨٤] - ألقيت المحاضرات في الفترة من ١٢ ربيع أول ١٣٢٦ ، إلى ٢٩ ربيع أول ١٣٢٦ (١٩١٢)، ويمكن مطالعة بعضا مما جاء في تلك المحاضرات في: جمال البنا، الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية، القاهرة، دار الفكر الإسلامي، ١٩٨٦، ص ص ٧ – ٤٧.

الوطني من قبضة البنوك الأجنبية، حيث ألقى المحاضرة الأولى في سلسلة تلك المحاضرات[٢٨٥].

ثالثا: في الفكر الإسلامي على خطى الإمام:

كان الشيخ عبد العزيز جاويش في هذا الباب سواء أكان في علمه أو في إرشاده إلى الإصلاح عن طريق الدين "مقتديا في ذلك بالإمام محمد عبده صاحب المدرسة العليا في تفهم الدين على حقيقته، وفي إصلاح حال المسلمين بواسطته، وفي تفسير كتاب الله العزيز، فكيف تم للشيخ الاقتداء بالإمام؟ يحدثنا في ذلك السيد رشيد رضا في الجزء الأول من مؤلفه (تاريخ الأستاذ الإمام) بقوله: وكان يحضر دروس التفسير غير هؤلاء – منهم الشيخ عبد العزيز جاويش بعد مجيئه من أوربا والشيخ مصطفى العناني

[٢٨٥] - محمد عبد المنعم خفاجي، م س ذ، ص ٧٤.

وقد كلماني بأن أقدمهما إليه، وأذكر له رغبتهما في الانضمام في سلك مريديه ففعلت.."وبعد أن تمت صلة الشيخ بالإمام، أخذ بتأثره في كل شيء في تفسير كتاب الله، وفي البحث الديني، وفي اتجاهاته الإصلاحية، وقد سلك لذلك سبيله، سبيل التأليف والخطابة فكان فيهما مرشدا ومعلما، وعالما كبيرا"[٢٨٦].

مجلة الهداية ..أجل أعماله في الفكر الإسلامي:

بدأ الشيخ عبد العزيز جاويش كتاباته في مجال الفكر الإسلامي منذ عام ١٩٠٥، حيث ألف في ذلك العام كتابه "الإسلام دين الفطرة" وهو ما سيأتي الحديث عنه لاحقا، لكن أكثر أعماله في هذا المجال نشرت بمجلة "الهداية" (١٩١٠ - ١٩١٤)، التي كانت تهدف أساسا

[٢٨٦] - حسن الشيخة، م س ذ، ص ٥٨.

للدفاع عن الإسلام، وقد صور جاويش في مقدمتها هدفه منها قائلا "أصبح كثير من المسلمين في تفريطهم في هذا الدين القيم شيعا، فمنهم من غرتهم زخارف المدنية، وغرتهم منها حال صرفتهم عنه، فلم يبق منهم إلا السمة والرسم (..) نشأوا في حجر التفرنج، ودرجوا فيه، ومنه خرجوا يعبدون كل ما يخشونه أو يرجونه ومنهم من أنستهم دينهم النشأة الفاسدة والبيئة الجاحدة، ومن أجل هؤلاء جميعا أخذ يعمل في هذا المجال "يهيب بالمسلمين داعيا إياهم إلى السبيل القويم"[٢٨٧]. وقد صدرت المجلة في المحرم من عام ١٣٢٨ هـ - فبراير ١٩١٠م، وكان إنشاء "مجلة الهداية في نظر البعض محاولة لمنافسة مجلة المنار التي كان يصدرها رشيد"[٢٨٨] رضا، وذلك لما كان بين جاويش

[٢٨٧] - مجلة الهداية، الجزء الأول، السنة الأولى، محرم ١٣٢٨ هـ فبراير ١٩١٠م، ص ٢.
[٢٨٨] - أنور الجندي، م س ذ، ص ١١٤.

ورضا من اختلاف في الرؤى في الموقف من الدولة العثمانية ومن الحركة العربية في الشام، وقد احتوت المجلة على عدد من الأبواب الثابتة تتناول شئون التعليم والإصلاح الاجتماعي، وأحوال العالم الإسلامي، وبابا في اللغة والأدب، لكن أهم أبواب المجلة كان باب التفسير الذي أسماه "أسرار القرآن"، والذي حرص فيه جاويش أن يقوم بتفسير القرآن على نحو عصري سلفي على النحو الذي بدأه الشيخ محمد عبده واستمع إليه جاويش في الرواق العباسي سنة ١٩٠١، وهو في كثير من عروضه للإسلام والقرآن يستشهد به ويردد اسمه مسبوقة بعبارة وقال "أستاذنا"[٢٨٩]، ويؤكد على نفس المعنى حسن الشيخة الذي عاصر صدور المجلة وداوم على قراءة باب التفسير فيها قائلا: كنا (في دار العلوم) نتلقى درسا أسبوعيا في

[٢٨٩] - نفس المصدر، ص ٢٠٣.

تفسير القرآن، ولكنه كان على الطريقة المدونة في كتب التفاسير، ولما طهرت مجلة الهداية رأينا بها طريقة جديدة في التفسير، تساءلنا وقتئذ عن هذه الطريقة الحديثة الجذابة الخلابة، وكيف استطاع الشيخ أن يجعلها طريقته في هذا الركن الأكبر من أركان الدين الإسلامي، فكان جواب أساتذتنا بالمدرسة أن سبب استطاعته هذه هو أنه تأثر بالأستاذ الإمام في تفسير القرآن، وسار على طريقته في أن القرآن الكريم هو الأساس والغراس لمعرفة أسرار الحياة كلها وأنه الأصل الذي يرجع إليه في كل إصلاح"[٢٩٠].

ففي تمهيده لهذا الباب من "أسرار القرآن" يقول: جاء القرآن الكريم بلسان عربي مبين فلم تكن معانيه ومقاصده لتخفى على العرب الذين نزل بلغتهم سوى ما سماه الله تعالى المتشابه الذي أريدت منه مرام ومقاصد شريفة

[٢٩٠] - حسن الشيخة، م س ذ، ص ص ٦٤ – ٦٥.

سامية، ولقد وضع في سبيل بيان كتاب الله الكريم كثير من المؤلفات نحا أصحابها فيها مناحي متغايرة، فمنهم المعتسف المتكلف، ومنهم الراجع في بيان كثير من أبواب القرآن إلى الموضوعات من الإسرائيليات وغيرها، ومنهم المنهمك في حمل كتاب الله على ما علمه أو علمه من المسائل الفلسفية، ومنهم من حملوه فوق طاقته وأثقلوه بالنكت البلاغية والدقائق اللسانية التي وضعها علماء النحو حتى صوروا كتاب الله كأنه رموزا أو ألغازا عميت على الناس فلا سبيل لهم إلى إدراكها وتعرف أسرارها إلا بقراءة ما تدفقت به بطون التفاسير من الأقوال والتشكيكات والمذاهب والتخريجات، ولذا صار من المتعسر أن يجدوا شرحا موجزا سهل المنال يرجعون إليه، هنالك أصبح الناس يستظهرون ألفاظ الكتاب الكريم أو يصونون المصاحف في خزائنهم دون الفقه منها ولا انتفاع بكنوزها،

والله جلت قدرته ما أنزل القرآن إلا ليكون هدى للناس وبينات يرجعون إليها في سبيل التماس أسباب السعادة الدنيوية والأخروية، لذلك عزمت مستعينا بمن بيده مقاليد الأمور على أن آتي على تفسير ما استعجم على كثير من المفسرين معتمدا في ذلك على ما يفيده القرآن نفسه أو ما تفسره به السنة الصحيحة كما أنني سآخذ من كلام جملة من أجلة العلماء ما يزيد الكتاب الكريم إيضاحا وبيانا مجتنبا كل ما يربك الأذهان ويبعد آيات الله عن الأفهام، وقلما تكلمت فيما له علاقة بقواعد العربية ومسائلها فإن كتاب الله أظهر من لأن يتوقف فهمه على المماحكات الصناعية والتصاريف الإعرابية".[٢٩١]

ومن بين أعمال جاويش المهمة في الفكر الإسلامي عددا من المحاضرات منها محاضرته في المؤتمر المصري المنعقد في

[٢٩١] - مجلة الهداية، م س ذ، ص ص ٦ – ٧.

أبريل - مايو ١٩١١ بعنوان "وجوب مراعاة أحوال الزمان والمكان في تطبيق أحكام الشريعة الغراء" أشار فيها إلى وجوب الاجتهاد بما يلائم ظرفي الزمان والمكان ويفيد درك المصالح في إطار ما لايخالف ما أمر الله به ورسوله، ووجوب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية التي قررها نفر من أهل العلم دون رعاية المصلحة العامة وأشار إلى نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قطع اليد في حالة الحرب استثناء وعدم انفاذ عمر حد القطع عام المجاعة وغير ذلك من سوابق التشريع الإسلامي، ثم عرض أمثلة للاجتهادات المطلوبة في زمانه، ومنها أن عدة المطلقة يؤخذ في تحديدها بقولها، والواجب عند الريبة الإحالة إلى طبيبة مختصة، ومنها وجوب التيسير في التطبيق بسبب إعسار الزوج، ومنها الطلاق ثلاثا ووجوب وقوعه

طلقة واحدة[٢٩٢]. ومن أمثلة تلك المحاضرات أيضا، محاضرته في نادي دار العلوم حول الربا[٢٩٣]، والتي على الرغم مما قد يبدو في المحصلة النهائية لها من أن الشيخ جاويش لم يقل في النهاية بحل الربا كما كان يتمنى البعض، إلا أنه تمتع فيها بنظر ثاقب في تحليله إن على المستوى الاجتماعي وإن على المستوى الشرعي، كما أنه قدم فيها الحل الذي يراه مناسبا للمعضلة المطروحة (وهي معضلة إيجاد بديل للبنوك الأجنبية وآثارها التخريبية على الاقتصاد الوطني)، كما يمكن أن نكتشف فيها من تحليله ذلك عقلية فقهية أصولية تمتلك فقه الشرع وفقه الواقع، وأريحية في تقديم الحل المتناسب مع الشرع وتبريره، أما في الأسلوب فكأننا حينما نقرأ محاضراته تلك إنما نقرأ

---

[٢٩٢] - طارق البشري، م س ذ، ص ص ٥٥ – ٥٦، وطالع بعض ما قاله جاويش في المحاضرة بشكل أكثر تفصيلا في: حسن الشيخة، م س ذ، ص ص ٦٨ - ٧٢، والمحاضرة تكشف عن علم معمق للشيخ جاويش بأصول الفقه، ومقاصد الشريعة.

[٢٩٣] - طالع نص المحاضرة في: جمال البنا، الربا وعلاقته بالممارسات المصرفية والبنوك الإسلامية، القاهرة، دار الفكر الإسلامي، ١٩٨٦، ص ص ١٠ – ١٧.

للإمام محمد عبده من قبله أو للشيخ محمد الغزالي من بعده فقها وبصيرة وجزالة في الأسلوب وروحا ناقدة جريئة فيما تراه صوابا وحقا.

جاويش يجلو دين الفطرة

كان مما آمن به جاويش وعمل على تحقيقه في كتاباته الإسلامية أن من الحق "على كل مسلم نوُر في قلبه الإيمان" أن يفند "ما يأتي به الطاعنون فيه (أي في الدين الإسلامي) من الشبه التي تغوي ضعاف اليقين فقد طمى سيلها وسكت عن تفنيدها الذين من أخص خصائصهم أن يفندوها (..) حتى كثر سواد الطاعنين، من القساوسة والرهابين، ولم يعد يعوز السفيه إلا أن يؤتى دواة وقلما" ومن ثم فقد جعل من أغراض "الهداية" "رد تلك الشبه

وإدحاض ما يكيلونه من الأكاذيب، وبيان أن الإسلام دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها".[٢٩٤] وكما يبدو من قول الشيخ جاويش، فقد كانت إثارة الشبهات والطعن في الإسلام والقرآن سمة من سمات عصر الهجمة الاستعمارية على العالم الإسلامي، وفي هذا الصدد إما أن يتحول الرد إلى ما يشبه المناظرة كما شهدنا في كتاب الإمام محمد عبده "الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" والذي كان في الرد على فرح أنطون وهانوتو ونشره رشيد رضا بعد وفاة أستاذه، أو أن يكون الكتاب تبيانا وجلاءا لما خفي على أهل العصر من المسلمين - ومن غيرهم - من خصائص الإسلام وذلك في معرض الرد على تهمة أو فرية أو شبهة، ومن باب ذلك كتاب "تحرير المرأة" لقاسم أمين أو "الإسلام دين المدنية" لمحمد فريد وجدي، أو

---

[٢٩٤] - حسن الشيخة، م س ذ، ص ص ٢ – ٣.

"الإسلام دين الفطرة" لشيخنا عبد العزيز جاويش والذي عني فيه بوضع عنوان شامل لتبيانه وجلائه لمفردات خصائص الإسلام التي تأتي دائما في معرض التشكيك والتجريح والتعريض بالإسلام والقرآن والنبي والرسالة كما سيأتي بيانه، وكان جاويش قد ألف كتابه "الإسلام دين الفطرة" هذا وهو في بلاد الإنجليز يقوم بتدريس اللغة العربية في جامعة أكسفورد، وقد اشتق اسمه من قول أحد طلابه في المحاورة التي أثبتها في أول كتابه: "يخيل إلي أيها الشيخ أن هذا الدين لا ينافي الفطرة في شيء"[٢٩٥]، ويشير حسن الشيخة أن الكتاب "كان هو المؤلف الذي قدمه الشيخ إلى مؤتمر المستشرقين في مدينة الجزائر، لما دعته الحكومة المصرية وهو في إنجلترا ليمثلها في هذا المؤتمر،

[٢٩٥] - عبد العزيز جاويش، الإسلام دين الفطرة، م س ذ، ص ٥٣.

سنة ١٩٠٥"[٢٩٦]، لكن الكتاب لم يطبع في مصر إلا بعد وفاة الشيخ، إذ طبعه ابنه "ناصر جاويش" طبعة أولى ضمن سلسلة كتب الهلال عام ١٩٥٢، ثم أعادت الزهراء للإعلام العربي طبعه عام ١٩٨٧ بمقدمة جديدة للأستاذ فتحي رضوان[٢٩٧]، والكتاب كما يصفه حسن الشيخة "كله فلسفة علمية تكشف عن وجوه كثيرة من مرامي الدين الإسلامي التي يتم بها إصلاح العقيدة، ومعرفة مرامي الإصلاح من أسرار هذا الدين"، وقد ألفه الشيخ جاويس على طريقة الإمام محمد عبده في البحث الديني، وقد استشهد فيه كثيرا بآرائه[٢٩٨].

بنقسم كتاب الإسلام دين الفطرة إلى قسمين، القسم الأول منه يتناول بعض السمات المهمة في الإسلام التي

---

[٢٩٦] - وهو ما أكده كل من حسن الشيخة، مصدر سابق، ص ٦٤، وطاهر الطناحي في مقاله بمنبر الإسلام، م س ذ، ص ١٠٩.

[٢٩٧] - وهي الطبعة التي استعنت بها في تقديم هذا الكتاب، وهي المقدمة التي تتشابه مع كتابات فتحي رضوان عن جاويش والتي سبق ذكرها.

[٢٩٨] - حسن الشيخة، م س ذ، ص ٥٩.

تجعل منه دينا يتوافق مع الفطرة، أما القسم الثاني فيتناول أثر القرآن في تحرير الفكر البشري. والكتاب يبدو لمن يقرأه وكأنه كتابين أدمجا سويا حتى أنه اشتهر لدى البعض باسم: الإسلام دين الفطرة والحرية، وما يدعونا لهذا القول هو اختلاف طريقة تناول الموضوعين الأساسيين للكتاب: الفطرة والحرية، ففي القسم الأول من الكتاب، يتناول جاويش الموضوع على طريقة من يرصع قطعا من الفسيفساء ليصنع منها لوحة متكاملة من قطع صغيرة من الزجاج الملون، أما القسم الثاني الذي يتناول أثر القرآن في تحرير الفكر البشري، فهو موضوع متكامل يتكون من نقاط متسلسلة مرتبة، لكن قد ينظر لهذا القسم الثاني كحلقة متممة لجزئيات القسم الأول في إتمامها لمعنى موافقة الإسلام للفطرة بمقتضى تحرير كتابه للعقل البشري، وأن مجافاتها للقسم الأول تبدو فقط من استطالة البحث فيها

بما لا يعهد في جزئيات القسم الأول، ويميل الباحث لهذا الرأي.

يتناول القسم الأول من الكتاب قضايا:

الفطرة والتوحيد: وتناول فيها مزجا بين العقل والنقل كيف أن الفطرة السليمة تقتضي التوحيد، أو التوحيد هو مقتضى الفطرة والمنطق السليم، ف"كل إنسان يشعر بفطرته أن ثمة واحدا قد نظم هذا العالم ودبره، لا يمكن أن يشابه الممكنات في شيء من صفاتها، فليس بجسم ولا عرض ولا محدود ولا متحيز، ولا يستطاع إدراكه إلا بآثاره الشاخصة، وهو غير قابل للحلول ولا للصعود ولا للنزول"، وبين كيف أن أفكار وقضايا السواد الأعظم من العامة إما خيالية أو وهمية أو شعرية فلا يكادون يبنون شيئا من

مذاهبهم ومعتقداتهم على نظر صحيح وفكر سليم، ومن هنا نشأت الأديان الوثنية في كل أمة"، وأن العامة يتعشقون سماع الخزعبلات وسير من لا قيمة لهم في سوق الفضائل والمكرمات، وأن عقول المسلمين قد أصبها من المس ما أصاب عامة غيرهم، وانتهى إلى أن "السبيل الذي جاء به الشرع الإسلامي في الإيمان بالله (..) هو السبيل التي يصل إليها الإنسان بفطرته متى خلي وشأنه غير مضلل ببعض الأباطيل ولا مدفوع إلى غير تلك السبيل"[٢٩٩].

النبوة والمعجزات والفطرة: ويتناول كيف أن معجزة النبي الخاتم جاءت لتتواءم مع النضوج الفطري للبشرية، إذ "ظهر النبي في أمة أمية دينها الوثنية (..) فلما جاءهم الرسول بالحق الواضح اختلفوا، فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه، وكان معاندو اليهود والمشركين يسألون الرسول

[٢٩٩] - عبد العزيز جاويش، م س ذ، ص ص ٥٥ – ٥٩.

عليه الصلاة والسلام أن يثبت دعواه النبوة بشيء من المعجزات الخارقة للعادة، فكان يرجع بهم إلى الجواب عما هو من حدود وظيفة الرسل، إذ لا علاقة عقلية بين دعوى الرسالة والقدرة على شق الأرض ونحوه من المعجزات"، وقد جاء القرآن في غير موضع يؤذن في أرباب العقول بالتدبر وألا يشطوا في مطالبهم ولا يعتسفوا في اقتراحاتهم، بل أوجب عليهم أن يسلكوا الجادة الموصلة إلى ما يريدون من الغايات، ومن البين أن القرآن هو المعجزة الخالدة الأبدية التي جاء بها ذلك النبي (..) حجة بالغة بين يديه نورا مبينا (..) ولذلك نرى القوم كلما اشرأبت نفوسهم إلى نزول إحدى المعجزات أمرهم الله بتدبر آيات القرآن الكريم"[٣٠٠].

[٣٠٠] - نفس المصدر، ص ص ٦٠ – ٦٣.

القرآن والفطرة البشرية: وتناول فيه سوء التأويل المناقض للفطرة الذي وقع فيه بعض مفسرو القرآن حيث "نزل القرآن الكريم ليؤدي ما قصد منه حسب الفطرة البشرية والسنة الإلهية من الهداية من الضلالة والشفاء من الجهالة، وما زال القرآن إماما يتبع وفيصلا يحكم في النوازل، حتى ساد الجهل وأخذ من المسلمين مأخذه، فاستعملوا آيات من القرآن في غير ما وضعت له، فاتخذوها للتطبيب والفتك بالأعداء وكشف عالم الغيب وقضاء الحاجات وحل الطلسمات وتسخير الجن وتوسيع الرزق، وليتهم وقفوا عند ذلك الحد، بل تراهم تطرقوا واجترءوا على القرآن ومنزله، فأولوا القرآن طبقا لأهوائهم وأخرجو كثيرا من آياته عن معانيها التي تفهم من لغته وأسلوبه وسياقه[٣٠١]"، وعرض بعد ذلك لأربعة نماذج من ذلك

[٣٠١] - نفس المصدر، ص ٦٤.

التأويل الفاسد وناقشها، واعتبر أصحاب التأويل الفاسد ذلك "افتأتوا على النبي وصالح أتباعه، وبرزوا للعالم فيما شاءوا من القحة والدعارة مدعين أنهم أعلم بما في غضون كتاب الله ممن أنزل عليه ذلك الكتاب، فتجلوا للقرآن أعداء في ثياب أصدقاء يلزمونه بما ينكره ويحملونه ما لا يحتمله ويفسرونه طبقا لأهوائهم، ويكلفونه من التأويل ما يكاد يخرجه عن الغرض الذي أنزل لأجله"[٣٠٢]، وعرض في ذلك إلى صنفين:

- أولهم من قال "إن القرآن لم يترك فنا من الفنون العلمية إلا أتى بشيء من مسائله، فجعلوه كتاب جغرافيا وتاريخ وطبيعة ورياضة وهلم جرا، وادعوا أنه أتى من كل فن بطرف، فحملوا من التأويل ما ينبو عنه، ثم ذيلوا القرآن بأشياء أملاها عليهم جهلهم، ووسوست لهم

---

٣٠٢ - نفس المصدر، ص ٧٠.

بها شياطينهم فشوهوه وألبسوه غير لباسه، وصبغوه صبغة أبرزت القرآن والدين وصالح المسلمين بما هم براء منه، فكانوا أضر عليهم من العدو المبين"[٣٠٣].

- ثانيهم أولئك الذين كبر عليهم "القول بأن القرآن كتاب يفهمه كل من يعرف لسانه، فجعلوا يحومون حول المعاني البعيدة ليحملوا عليها آيات القرآن، ألم تر إلى الذين ضلوا وأضلوا فجعلوا للقرآن تفسيرين: أحدهما باطني والآخر ظاهري، وادعوا أن الرسول الذي أتى به لم يصل إلى إدراك ما فيه من المعاني الباطنية، مع أنه يقول ما معناه: أنا أعلم بكتاب الله تعالى، ولو علمت بأعلم مني لرحلت إليه، أو كما قال"[٣٠٤].

الإسلام والسيف: وفي هذا الجزء يناقش ما لهج به "معظم الأوروبيون، وضعاف العقول من المسلمين بأن الإسلام لم ينتشر ولم ترسخ أقدامه إلا لأنه سعى والسيوف أمامه تمهد

---

[٣٠٣] - نفس المصدر، ص ص ٧٠ – ٧١.

[٣٠٤] - نفس المصدر، ص ص ٧١ – ٧٢.

له السبيل، وتذلكك بين يديه العظماء، وتلجئ المستضعفين إلى اعتناقه حقنا لدمائهم، وصيانة لأملاكهم وأسبابهم"، وتتبع سيرة المبي وغزواته وبين أن ما شرعه الله للمسلمين من القتال وأنه "لا يخالف في شيء ما يسمى في هذا الزمان بقتال المدافعة عن النفس" حيث "نهى الله المسلمين عن الاعتداء" ، وينتهي إلى أن "البصير بالتاريخ، يشهد معنا أن المصطفى عليه الصلاة والسلام لم يسل في حياته سيفا لإرغام أحد من الناس على الدخول في دينه، ولكن الهدى هدى الله يهدي به من يشاء"[٣٠٥].

صلاحية الإسلام ومسوغاته: وفي هذا الجزء من الكتاب يدلل على أن الإسلام "دين الفطرة البشرية التي فطر الناس عليها في كل زمان ومكان، صالحا لكل أمة وكل جيل، مصلحا من استمسك بسببه المتين، وعمل بكتابه

[٣٠٥] - نفس المصدر، ص ص ٧٣ – ٨٢.

المبين"، رادا بذلك على من يقولون "بأن شرائع الإسلام وسننه جاء بها نبي عربي، لم يعرف من أحوال الأمم الأخرى إلا قليلا جدا، كما لم يعلم ما سيتوالى بعده من الأمم المختلفة، والأحوال المتباينة، والعصور التي تكاد تكون متباينة في مقتضياتها ومطالبها وأحكامها"، ثم شرع يشرح ما عده من قواعد الإسلام الأصلية الثابتة والتي تقدر بها الأحكام حسبما تقتضيه الأحوال المختلفة، في الأزمان المختلفة، بين الأمم المختلفة[٣٠٦]:

الأصل الأول: الاجتهاد ويعني به أن تستنبط الأحكام من الكتاب الكريم والسنة الصحيحة حسبما تصل إليه الأفهام السليمة

[٣٠٦] - مرة أخرى تكشف تلك الأصول عن عقلية و علم بالأصول والمقاصد، عقلية فقيه حقيقي، فقها بمعناه الواسع والضيق معا

الأصل الثاني: القصد في الأعمال، وإقامة ما لا يشق على النفوس من أعمال

الأصل الثالث: أنه لا ضرر ولا ضرار

الأصل الرابع: وهو سد الذرائع وإعطاء الوسائل أحكام المقاصد والغايات

الأصل الخامس: إعطاء الظن الغالب حكم اليقين المجزوم به

الأصل السادس: تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض

الأصل السابع: وجوب امتثال ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم شرعا دون ما ذكره من معايش الدنيا على سبيل الرأي

الأصل الثامن: المساواة بين المسلمين في الأحكام وكذا بينهم وبين جميع من لهم ذمة وعهد

الأصل التاسع: ألا تزر وازرة وزر أخرى

الأصل العاشر: أن جميع الزواجر تقدر حسبما يراه الإمام أو من ينصبه من القضاة

الأصل الحادي عشر: تقدير كثير من الأحكام حسبما تعورف عليه بين الناس

وأضاف إلى مسوغات صلاحيات الإسلام بعضا من المعاني منها:

انتقاده "خطأ كثير من المسلمين في فهم التوكل الذي حض عليه القرآن غير مرة إذ قالوا إن التوكل هو تفويض الأمر إلى القادر المدبر سبحانه وتعالى وترك الأسباب

المألوفة"، ثم ذهب يعدد مظاهر ذلك ذاكرا أن ذلك يعد سببا من أسباب تنديد الأمم الغربية بالشرقيين والإسلام والمسلمين بسبب ما جر عليهم ذلك من ضعف وانحلال العقدة والفشل، وبين أن "الاستدلال على فساد هذا الدين بما أصاب أهله حجة داحضة وبرهان واهن" كما بين أن الله "سبحانه وتعالى خلق الأسباب والمسببات وخلق ما بينهما من لحمة السببية، فالتماس تلك الأسباب لا ينافي التوكل في شيء، بل إنه نفس التوكل" ثم انثنى يدلل على ذلك بالقرآن والحديث.

أحكام الشرع ومطاعن الجاهلين: وقد تناول في هذا الجزء من القسم الأول من الكتاب قضيتين بالشرح والإبانة:

- **قضية الرق:** حيث استعرض موقف الأديان السابقة والأمم الحاضرة من الرق، ثم بين موقف الإسلام في

تضييق مداخل الرق وقصرها على الحروب الشرعية، وتوسيعه المخارج بجعله عتق الرقاب كفارة للذنوب وقربى إلى الله، كما استنكر فعل بعض المسلمين في أزمان سابقة أو أماكن معينة مبينا أنها ليست حجة على الدين.

- **قضايا المرأة:** وفي هذا الجزء تناول عددا من الإشكالات التي تثار حول قضايا المرأة في الإسلام، فتناول:

- المساواة: مبينا أن الإسلام ساوى بين الذكران والإناث في التكاليف الشرعية والحقوق المدنية ومنها حق المرأة في أن تزوج أو تطلق نفسها، وأن القوامة لا تعاني فضل البدوي الذي عقله أخلى من أرض البادية على المرأة التي وصلت الليالي بالأيام طلبا للعلم.
- تعدد الزوجات: مبينا أن الأصل هو زواج الرجل بواحدة بنص القرآن على شرط العدل، وصعوبته مع

الحرص، وأن الاستثناء هو التعدد للضرورات، وأنه بمثالبه في تلك الحالات أفضل من إتيان الفاحشة.

- زوجات النبي: مبينا أن أكثر ما ذكره المسلمون حول تلك القضية غير مقنع لغير السملمين "الذين نددوا بالنبي عليه الصلاة والسلام، ولم يجدوا في كتب المسلمين ما ينهض حجة لهم، اللهم إلا قليلا ممن أيده الله بروح منه"، ثم ذكر ما رآه جلاءا لهذه النقطة وأنه لو كان سلطان الهوى على قلب المصطفى لاتخذ من الزوجات من شاء وهو في مقتبل شبابه واستكمال قواه الطبيعية، لا شرع يحول بينه وبين بغيته، ولا عادة تمنعه مراعاتها من قضاء مآربه، لا سيما وقد كان مرغوبا فيه بين الناس لما اشتهر به من مكارم أخلاقه، وجميل خصاله"، وتناول كقضية فرعية زواج بزينب امرأة مولاه زيد، واستشهد في القضية بقول أستاذه الشيخ محمد عبده.

- الطلاق: مبينا أن الإسلام جرى فيه على مقتضى أصل الفطرة وأنه أباح الطلاق لأنه تدعو إليه الضرورة، أما حيث لا ضرورة فسماه أبغض الحلال، وأنه كما أعطى فيه الحق للرجل، أعطاه للمرأة، وأن من أكبر الدلائل لبغض الشرع للطلاق أن جعل للرجل أن يسترجع امرأته في الطلقة الأولى والثانية لأنه ربما يكون التطليق لثورة غضب ثارت، "فرجا الشرع أن يرجع إليه رشده فيتدارك ما فرط منه حتى إذا طلق الثالثة وجبت عقوبته بعدم جواز الرجعة حتى تتزوج غيره لما تبين من أنه سفيه الرأي ضعيف العزم"[٣٠٧].

القسم الثاني من الكتاب:

وقد تناول فيه قضية واحدة ومسائلها المتفرعة منها بالبحث المستفيض وهي: أثر القرآن في تحرير الفكر البشري، حيث

[٣٠٧] - نفس المصدر، ص ١٣٧.

تناول في بدايته فيما يقرب من ٢٠ صفحة حرية الفكر قبل الإسلام، وتاريخ النضال البشري في سبيل تحرير الفكر، وفي هذا القسم من الكتاب يظهر بجلاء أثر الدراسة الغربية على معلوماته ومعارفه التي تعرض لها في معرض شروحه للقضايا المتعلقة بحرية العقل والفكر والموقف الديني من العلم وما إليه بما لا يتناقض مع فكره الإسلامي، ثم قدم بعد ذلك أدلته على قضيته مستهلا بقول جامع في "أن القرآن لم يذر وسيلة موصلة إلى إنعاش العقل وتحرير الفكر إلا تذرع بها، فهو إذا تحاكم فإلى العقل، وإذا حاج فبحكم العقل، وإذا سخط فعلى معطلي العقل، وإذا رضي فعن أولي العقل"[٣٠٨].

القرآن والمعجزات: ثم تعرض لموقف القرآن من المعجزات والخوارق، مناقشا فيها "هل يرى فيها القرآن ما رأته

[٣٠٨] - نفس المصدر، ص ١٦٧.

الأديان الأخرى من اعتبارها أسسا للعقائد الدينية وآيات قاطعة تكفي أن يعتمد عليها الرسل والأنبياء في إفحام المتحدين لهم من الأمم الذين يرسلون إليها؟ أم هل يرى في طبيعتها وقوة حجتها – مع دعوته إلى التعقل وحضه على النظر والتدبر – ما يخرجها عن دوائر الأدلة العقلية والبراهين البينة القطعية الملزمة للخصوم بما تقصد له من النتائج؟"[٣٠٩].

الإكراه في الدين والردة عنه: ثم ناقش قضية الإكراه في الدين ومسألة الردة وهل لها حد شرعي، مبينا أن العقائد لا تتكون في نفوس العقلاء بالقوة والقهر، ولكن لها وسائل معروفة لا تلتمس إلا بها، منها البرهان العقلي، ثم بين أن الردة مالم تلتبس بمحاربة المسلمين وخيانتهم، "فلا حد فيها فالقرآن الكريم لم ينص في آية ما على قتل

[٣٠٩] - نفس المصدر، ص ١٧٣.

المرتدينمن دين الإسلام إلى دين آخر (..) وأما الأحاديث (..) فليس منها شيء فيما نرى جاء نصا في القول بالقتل ولا في بيان حدود الردة وكنهها والتعريف بها"[٣١٠]، وينهي وينهي الحديث حول تلك النقطة قائلا: "الله سبحانه وتعالى أحكم وأعدل أن يكلف الناس ماليس في طاقتهم، أو أن يلزمهم الإيمان بما لم يهدهم وجه الصواب فيه، يدرك ذلك من يفقه سر قوله تعالى: "لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل" فإن الرسل قد بعثهم الله لخليقته وكلفهم البلاغ المبين، إذن فلا تكليف إلا حيث البلاغ المبين، فإذا ابتلي العامة بأمثال بعض علماء هذا العصر الجامدين، وازدحمت الشكوك والشبهات على صدور النابتين من المسلمين، فكيف يؤاخذون إذا ضلت أحلامهم بعد أن فقدوا أركان الإسلام، وأساطين علمائه الذين يقتدرون أن

[٣١٠] -نفس المصدر، ص ١٨٨.

يدرءوا الشبهات، ويهدوا الهائمين في أودية الضلالات"[٣١١].

الدين والعلم بين الجمود والاستلاب: ثم تناول بالنقد موقف كلا من الجامدين والمتغربين قائلا: "نحن على ثقة من أنه لو درس شيوخ المسلمين العلوم الكونية، وعرفوا أسرار سنة الله في خليقته، لما كثرت الملاحدة وفشت المنكرات، فكيف لنا مع جمود هؤلاء المتصدين للفتيا والإرشاد إن نؤاخذ النشء الصغار وغيرهم، ممن لم يستوعبوا أصول الدين، ولم يهتدوا إلى صواب اليقين، وهم عاجزون عن مدافعة ما لا قبل لهم به من غارات الشكوك والشبهات"، ثم يقول "كثيرا ما نسمع من خطبائنا العصريين، ونقرأ في صحفنا ومجلاتنا الحديثة، ما يمثل لنا العلم والدين كدولتين في حرب قائمة دائمة، لا يستقر لها صلح ولا تتخللها مهادنة،

---

[٣١١] - نفس المصدر، ص ١٩٤.

يلهج بذلك أشباه المحصلين، وتلاميذ آثار الغربيين، ممن يطيرون لكل هيعة، ويفتنون بكل بدعة، ولو كبلت عقولهم بأغلال التقليد، واحتبست أفهامهم عن التدبر والتفكير" ثم انتقد مقولاتهم: "زعموا أنه لا يجوز للدين أن يقف في سبيل الرقي العلمي، وأنه إذا لم يتنح عن سبيله فستكون الهزيمة المنكرة مصيره، كذلكم يقولون أيضا فيما يرجفون إنه لابد من فصل الدولة عن الدين وأن حرية الفكر الإنساني تستلزم انقلابه ماديا طليقا لا يتقيد بشيء من قيود الأديان"

القرآن والعلوم العقلية والكونية: وبين أنه بالقرآن بدء عهد البحث والنظر وولت دولة الجمود، فوطئت بذلك الأكناف للفلسفة الإغريقية وتحصيل علوم الكون العقلية بعد أن ماتت أو كادت، فهي بأهل القرآن عاشت، وفي أرض

القرآن نمت، وفي ظل القرآن عزت وسادت". ثم تناول كيف تطور هذا الأمر أو تدهور في تاريخ أمة الإسلام مقارنة بتاريخ الأمم الأخرى، كما تناول تعريف العلم ومادته، ومن ثم موقف الغرب منه قبل عصر النهضة، وكذا موقف القرآن منه مقررا في ذلك أن "موقف القرآن الكريم تجاه العلم في العصر الحديث، هو عينه موقفه إزاء العلم في القرون الوسطى إلى عهد التجديد الغربي، فهو كما كان لا يفتأ يدعو العقل إلى التفكير، والأبصار إلى الاعتبار، والآذان إلى الاستماع، ثم هو مع ذلك لا ينفك يستدرج الناس إلى التحسس من أسرار الكائنات، ويحفزهم إلى الكشف عن غوامضها، والتنقيب عن دقائقها، فهم بحكم تعاليمه الخالدة يفقهون أنهم لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، وأن الله يخلق ما لا يعلمون، وأنه ليس للعلم صورة خاصة ولا حدود حاصرة، كذلكم يجد المؤمنون

أنفسهم بحكم آياته الحكيمة منهيين عن التقليد في عقائدهم، واتباع الظن في أحكامهم، والميل مع الأهواء في تصرفاتهم، على أنهم مع هذا كله يجدون في كثير من آي القرآن ما يرشدهم إلى مواطن التفكير والبحث، ويعرفهم ما يتطلبون الوصول إليه من أسرار العالم ودقائق حقائقه".

التعريف بالكاتب

مجدي علي سعيد

- كاتب ومحرر وباحث من مواليد حي السيدة زينب بالقاهرة عام ١٩٦١
- تخرج من كلية الطب، جامعة القاهرة، عام ١٩٨٦.
- حصل على دبلوم الدراسات الأفريقية من قسم الأنثروبولوجيا - معهد البحوث والدراسات الأفريقية، جامعة القاهرة، عام ١٩٩٦.
- مستشار تحرير موقع كلافو من أبريل ٢٠١٦ إلى سبتمبر ٢٠١٧.
- عضو فريق مراقبة الجودة – قناة العربي الفضائية من أغسطس ٢٠١٦ إلى يناير ٢٠١٨.
- رئيس تحرير الطبعة العربية لمجلة نيتشر من أغسطس ٢٠١٢ حتى نهاية مارس ٢٠١٦.

- مدير قسم البحوث – شركة نيوميديا لإنتاج الأفلام الوثائقية – من يناير حتى يوليو ٢٠١٢.
- مدير تحرير قسم نماء – موقع أون إسلام – النسخة العربية – مؤسسة مدى للتنمية الإعلامية، أغسطس ٢٠١٠ – أغسطس ٢٠١١
- عمل لمدة عشر سنوات كاتبا ومحررا في موقع إسلام أون لاين ٢٠٠٠ – ٢٠١٠

- المحرر العلمي: ٢٠٠٠ – ٢٠٠١.
- رئيس القسم الثقافي والعلمي: ٢٠٠٢ – ٢٠٠٤.
- مدير تحرير صفحة "ساحة مناهضة الحملة الأمريكية": ٢٠٠٣.
- رئيس وحدة البحوث والتطوير: ٢٠٠٥ – ٢٠٠٦.
- رئيس تحرير تنفيذي موقع المرأة والأسرة: أحد مشاريع إدارة المشاريع الخارجية بإسلام أون لاين: ٢٠٠٧.

- رئيس تحرير تنفيذي القسم التنموي: ٢٠٠٨ – مارس ٢٠١٠.

- عضو مجلس الرابطة العربية للإعلاميين العلميين منذ يوليو ٢٠٠٦ حتى نهاية ٢٠١٢، رئيس الرابطة العربية للإعلاميين إدارة العلميين ٢٠٠٩ – ٢٠١٠.
- عضو مؤسس الجمعية المصرية للإعلاميين العلميين.
- نشرت له الكتب والبحوث التالية:

١- الانتخابات الطلابية في الجامعات المصرية العام الجامعي ٨٨-١٩٨٩، نشر عام ١٩٨٩ بالاشتراك مع آخرين.

٢- ألبانيا بين الآمال والمخاطر، مركز الإعلام العربي، ١٩٩٤

٣- لجنة الإغاثة الإنسانية مناخ النشأة وعوامل انتهاء الدور، بحث في إطار ندوة الإسلاميون والمجتمع المدني، المركز الدولي للدراسات، ٢٠٠١، منشور موجزا في نشرة إسلام ٢١.

٤- تجربة بنك الفقراء، الطبعة الأولى عن مركز يافا للدراسات والأبحاث بالقاهرة عام ١٩٩٩، والطبعة الثانية عن الدار العربية للعلوم في بيروت عام ٢٠٠٧.

٥- دليل الإعلامي العلمي العربي (محرر ومشارك)، لجنة النشر بالرابطة العربية للإعلاميين العلميين، ٢٠٠٨.

٦- الإمام الشيخ محمد عبده والجمعيات الأهلية، بحث منشور في الإمام محمد عبده مائة عام على رحيله ١٩٠٥ – ٢٠٠٥، دار الكتاب المصري واللبناني، ٢٠٠٩. ونشر ككتاب مستقل بعنوان: العمل الأهلي حياة الأمة..تجربة الإمام محمد عبده، ٢٠٠٩.

٧- تأملات قرآنية في الإصلاح والنهضة، المركز الحضاري للدراسات المستقبلية بالقاهرة، ٢٠٠٩.

٨- حركة التعاونيات..الطاقة التنموية المهدرة، دار البشير، نوفمبر ٢٠٠٩.

٩- من سير صناع الحياة، دار البشير، ٢٠٠٩، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة عن مؤسسة اقرأ، ٢٠١٣.

١٠- التعليم مشروع الأمة..عبرة الماضي والحاضر وآفاق المستقبل، المركز الحضاري للدراسات المستقبلية، ٢٠١٠.

١١- العلوم والتكنولوجيا..أفكار وتجارب في التغيير والنهضة، المركز الحضاري للدراسات المستقبلية، ٢٠١٠.

١٢- مؤمنون على طريق التنمية (مشاركة مع عبد الله الطحاوي) – مؤسسة مواطنون من أجل التنمية – أغسطس ٢٠١٠.

١٣- ثلاث دراسات تقديمية لكتب: "طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد" لعبد الرحمن الكواكبي، و"الإسلام دين الفطرة" لعبد العزيز جاويش، و"المسئلة الشرقية" لمصطفى كامل، في إطار مشروع "في الفكر النهضوي الإسلامي"، مكتبة الإسكندرية، دار الكتاب المصري واللبناني، ٢٠١١، و٢٠١٢.

١٤- المفاتيح المكسورة..رحلة البحث عن الذات والمشروع، دار أكتب، ٢٠١١

١٥- فسيفساء..تجارب إنسانية في التنمية والنهضة، دار أكتب، ٢٠١١.

١٦- شعاع من الماضي ملامح مشروع للنهضة ١٨٩٠ - ١٩٢٠ (غير مطبوع).

١٧- نقاط مضيئة ..خمسون شمعة مضيئة في حياتنا (الجزء الأول) - كتاب إلكتروني - ٢٠١٥.

١٨- نقاط مضيئة..خمسون شمعة مضيئة في حياتنا (الجزء الثاني) -كتاب إلكتروني - ٢٠١٦.

١٩- نقاط مضيئة..أربعون شمعة مضيئة في حياتنا (الجزء الثالث) - كتاب إليكتروني - ٢٠١٧.

٢٠- قصص ومعان ..هوامش على متون ٥٠ حياة - كتاب إليكتروني - ٢٠١٨.

يمكن التواصل معه على البريد الإلكتروني:

Magdy.said١٩٦١@gmail.com

الصفحة الرسمية على الفيسبوك:

/https://www.facebook.com/Dr.magdysaid

المدونة الخاصة:

/https://drmagdysaid.wordpress.com